مكتبة
رواية

مارکو مالفالدي

مقاس الإنسان

ترجمة: نبيل رضا المهايني

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط

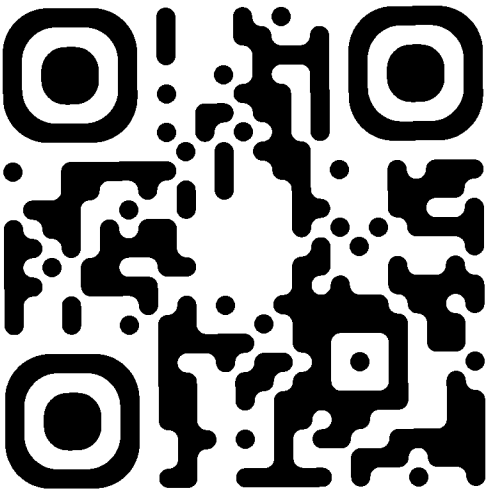

telegram @soramnqraa

مقاس الإنسان

رواية

Author: **Marco Malvaldi**	اسم المؤلف: ماركو مالفالدي
Title: **La misura dell'uomo**	عنوان الكتاب: مقاس الإنسان
Translated by: **Nabil Reda Al Mahaini**	ترجمة: نبيل رضا المهايني
Cover Designed by: **Majed Al–Majedy**	تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
P.C.: **Al–Mada**	الناشر: دار المدى
First Edition: **2020**	الطبعة الأولى: **2020**

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright © 2018 by Giunti Editore S.P.A.,
Firenze-Milano
www.giunti.it

للإعلام والثقافة والفنون
Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
+964 (0) 780 808 0800 +964 (0) 770 2799 999
+964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس
Beirut: Bchamoun - Schools Street
+961 706 15017 +961 175 2617
+961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street
+963 11 232 2275 +963 11 232 2276
ص.ب: 8272 +963 11 232 2289

25 10 2024

مكتبة
t.me/soramnqraa

ماركو مالفالدي

مكتبة
t.me/soramnqraa

مقاس الإنسان

ترجمة : نبيل رضا المهايني

إلى جوفانّا بالديني
لويزا ساشيردوته
مارشيلّا بينكي
ليا ماريانيلّي

إلى جميع المعلّمين
في المدارس العامّة

ماركو مالفالدي

مقدّمة[1]

مكتبة
t.me/soramnqraa

المؤلّف

ولد الكاتب الإيطاليّ ماركو مالفالدي في مدينة بيزا وسط إيطاليا في 27 كانون ثاني 1974. تخرّج من قسم الكيمياء والكيمياء الصناعيّة في جامعة بيزا، وأصبح زميلاً باحثاً فيها ثمّ في كليّة الصيدلة. بدأ حياته الروائية عام 2007 بنشر روايات بوليسيّة، وأعقب ذلك مشاركته في كتابة روايات من نوع آخر مع كتّاب آخرين. صدرت رواية «مقاس الإنسان» عام 2017 وتبعها نشر رواية «الريح في علبة» ثمّ «البرجوازيّ حاجّاً» وحكاية للأطفال بعنوان: «القلعة بآلاف الأبواب. حكاية خرافية لإبقاء الأطفال مستيقظين» فضلاً عن كتب نقديّة مختلفة. وقد حصلت بعض كتبه على جوائز أدبيّة عديدة.

رواية مقاس الإنسان

في تشرين أوّل 1493. كانت مدينة فلورنسا ترزح تحت وطأة حدادها على موت زعيمها لورينزو العظيم. كما كانت سفن كريستوفورو كولومبو قد وصلت لتوّها إلى العالم الجديد. وظهر وقتها أيضاً النظام الماليّ الحديث بفضل استعمال رسائل الاعتماد. في هذه الأثناء كانت مدينة

1- عن ويكيبيديا بتصرّف (م)

ميلانو تشهد نهضة واسعة تحت قيادة لودوفيكو إيل مورو. وكان يلتقي الكثير ممّن يتجوّلون في باحات قلعة ميلانو أو على طول قنوات نافيجلي برجل غريب في الأربعينيات من عمره، يرتدي ملابس وردية طويلة، هادئ التعابير، يمشي كأنّه تائه وهو يلوك أفكاره في رأسه. كان هذا الرجل يعيش في ورشته ومرسمه، مع والدته وصبي صغير لعوب. كان هذا الرجل لا يأكل اللحم، يكتب من اليمين إلى اليسار، ويسعى طيلة الوقت ليحصّل مكافآته التي اكتسبها من وراء أعماله الفنيّة. هذا هو ليوناردو دا فينشي. طارت شهرته إلى ما وراء جبال الألب، ووصلت إلى بلاط ملك فرنسا تشارلز الثامن، الذي ما لبث أن أرسل رجاله في مهمّة سرّيّة للتقصّي عن ليوناردو. وكان يشاع أن المخترع الإيطالي يحتفظ بتصميمات اختراعاته المهمة - بما في ذلك ربّما مشروع فارس محارب ميكانيكي لا يقهر - في دفتر ملاحظات يخفيه تحت ثيابه، بالقرب من قلبه. تمّ في تلك الأثناء العثور على رجل ميت في فناء القلعة، فلجأ إيل مورو إلى دافنشي للمساعدة. على الرغم من أن الجثة لا تظهر علامات عنف، إلا أن الميتة كانت مشبوهة للغاية: وكان على ليوناردو أن يدحض بسرعة الأقاويل عن شائعات الطاعون والتفسيرات الخرافيّة الأخرى. كما لم يكن ليوناردو في وضع يسمح له برفض طلب سيده للتحقيق بالجريمة.

بعد خمسمائة عام مرّت على وفاة ليوناردو، ها هو ماركو مالفالدي يقوم الآن بتجميع شذرات من الأدب والعلوم والتاريخ والجريمة من أجل إعادة الحياة إلى أعظم شخصيات عصر النهضة.

مقاس الإنسان

بقلم: بول بورك - بتصرّف

في بعض الأحيان تثير رواية ما انتباهك وتجذبك، حتّى قبل أن تفهم مسار القصة. هذا ما يحدث مع رواية مالفالدي الراوي الرائع. «مقاس الإنسان» رواية ساحرة تعيد بشكل ذكي تخيّل فترة محوريَّة من تاريخ عصر النهضة في إيطاليا. وتسرد وقائع حياة ليوناردو دا فينشي خلال فترة عمله في خدمة لودوفيكو أمير ميلانو. كان ذلك وقت تغييرات سياسيّة مضطربة، وتحدّيات كانت تواجه النظام الدينيّ السائد. ومع ذلك فكان ذلك هو عصر الفنّ والأدب والاكتشافات العلميّة والنموّ الثقافيّ. إنّها رواية مليئة بالتناقضات، ونستمتع فيها بأسلوب مالفالدي السلس، وفيها ينجذب القرّاء إلى المكائد الدبلوماسية المعقّدة لعصر وحياة العظماء والأقوياء. بينما نرى أن مالفالدي يضخّ بين الأسطر مصطلحات من هذا العصر ومقاييس حديثة يلوّن بها روايته بين الحين والآخر. وهكذا نرى ليوناردو من وجهة نظر أشخاص من حوله، ولكن أيضاً في السياق المعاصر الحديث. وينطبق هذا على لودوفيكو أيضاً. وهنا يقول مالفالدي: أنا لا أريد أن أرى أبطالي كقديسين، بل أحتاج إلى فهم إنجازاتهم كبشر، أريد أن أراهم وهم يسيرون على أقدام حقيقيّة من لحم وعظم، أريد أن تكون شخصياتّهم معقّدة وواضحة العيوب. وهذا ما قدّمه لنا مالفالدي عند رسم صورة ليوناردو. قد يبدو عالم عصر النهضة مختلفاً جدّاً، لكنّ الحياة تدور فيه هنا حول الحبّ والخسارة والطموح والأخلاق والحاجة.

ليوناردو ليس شيئاً مميّزاً، ومع ذلك فهو مفكّر استثنائيّ. لذا، فإنّ «مقاس الإنسان» هي رواية عن ليوناردو دا فينشي خلال فترة وجوده في ميلانو: رسام، وعالم تشريح، ومهندس، وعالم، ومخترع. تمكّن مالفالدي من نقل طموح الرجل وذكائه وبعد نظره، لكن حياته الدنيوية أيضاً وتسويات وهزائم وعادات الرجل. كان دافنشي عبقريّاً، لكنّه إنسان من البشر أيضاً (وإن كان سابقاً لزمانه) وقد تعرض للفشل مثل غيره. وهناك في قلب الرواية علاقة ليوناردو مع لودوفيكو سفورتسا إيل مورو، دوق باري وحاكم ميلانو. ومن أهمّ العناصر الرئيسيّة في علافة الاثنين، أي علاقة السيّد مع الخادم هذه، هو إقامة نصب تذكاري للورنزو العظيم، نصب حصان ضخم يزيّن ساحة كبيرة خارج القصر، ويبلغ ارتفاعه سبعة أمتار، وهو أكبر تمثال تجري محاولة صبّه بالبرونز، ضخم بمقدار ضخامة عبقريّة ليوناردو. لكنّ هذا المشروع لم يتحقق أبدًا بل بقي نقطة خلافيّة بين الرجلين.

في المقدمة نرى رجلاً يشق طريقه عبر الشوارع الرطبة المظلمة في مدينة فوضوية مترامية الأطراف، ويعتقد ليوناردو أنها مدينة تحتاج إلى إعادة تصميم، فلقد سبق له وأن تاه فيها من قبل.

بعد ذلك نرى أنّ لودوفيكو يعمل على تخفيض عدد أعضاء مجلسه الذين لا يمكن السيطرة عليهم ليصبحوا ستّة أعضاء فقط، من الموثوقين. كما يعيّن يوميّ الثلاثاء والجمعة لجلسات الالتماس، حيث يمكن لأيّ شخص أن يطلب مقابلة زعيم ميلانو. شريطة أن يكون من دافعي الضرائب.

نسمع في الرواية أيضاً عن دعوات لاستقلال الكنيسة اللومبارديّة عن الفاتيكان في روما. وعن قلق روما من السماح باستقلاليّة التفكير أكثر من اللازم. فضلاً عما أثاره سافونا رولا من مشاكل في فلورنسا. لقد أصبحت ميلانو بسرعة أغنى دولة في إيطاليا، في قطاع المصارف والتجارة والعلوم والرياضيات والطبّ والفن.

أصبح لودوفيكو سعيداً الآن بعد أن وافق الإمبراطور الرومانيّ المقدس ماكسيميليان على الزواج من بيانكا ماريا في عيد الميلاد، ذلك ليتكرّس التحالف بين الإمبراطوريّة وآل سفورتسا. ومع ذلك فقد بقي لودوفيكو ساخطاً وخاصّة عندما أشار إلى ليوناردو وقال له إن فناء القلعة فارغ رغم سعته، وأنّه وظّفه أي ليوناردو بناء على وعد قدّمه قبل عشر سنوات بتشييد نصب تذكاري للورنزو العظيم. لحسن الحظّ أنّ جواب ليوناردو كان حاضراً، فقال إنّ النموذج الطينيّ بالحجم الكامل أي بارتفاع سبعة أمتار سيكون جاهزاً خلال عشرة أيام.

أمّا في فرنسا فكان جلالة الملك تشارلز الثامن يدرس الحرب وغزو نابولي. لذلك فقد أرسل الملك جواسيسه إلى ميلانو لمراقبة لودوفيكو ولكن أيضاً ليوناردو. يتعثّر خادم لودوفيكو بجثّة رجل مرميّة في فناء القلعة. لم تر علامات واضحة تشير إلى كيفية وفاة الرجل الذي كان قد جاء قبل يوم فقط ليطلب حضور جلسة الالتماس في مجلس لودوفيكو. ماذا لو كان قد مات بسبب الطاعون؟ يجب أن يحصل لودوفيكو على جواب. وكان يعرف عن تجارب ليوناردو الليليّة في علم التشريح، وكان يتغاضى عنها، رغم ما قد تسببه من مشاكل له. لأنّ لودوفيكو يحتاج إلى مواهبه. وهكذا فسرعان ما أثبت ليوناردو أن الرجل مات ضحية «شرور البشر» – لقد قتل.

إنّه عالم مليء بالدسائس والمناورات السياسية والدينية. إمبراطورية تبنى على أعتاب العصر العلميّ، لكنّها ما زالت غارقة في الخرافات وبتحضيرات الحرب القادمة. «مقاس الإنسان»، صورة موثوقة عن ليوناردو دا فنتشي وزمنه. لكنّنا لن نعرف أبداً فيما إذا كان ليوناردو قد تمكّن من حلّ مشكلات البرونز الفنيّة، خاصّة وأنّ الحرب جعلت البرونز ضرورياً للمدافع أكثر منه للتماثيل. رواية أفكار ممتعة للغاية. شغف بالتاريخ والفن، ثاقبة وسهلة القراءة.

عن Paul Burke بول بورك – بتصرّف

الشخصيّات

المرسم

ليوناردو دي سير بييرو دافنشي: رسّام، نحّات، مهندس معماريّ، مهندس القصر ومهتّم بإبداعات الخيال، أي أنّه رجل عبقريّ مبدع.

جان جاكومو كابروتّي الملقّب سالاي: خادم في المرسم، التلميذ المفضّل، لصّ، كذّاب، عنيد، شره. وفيه عيوب أخرى.

ماركو دوجّونو، تزانّينو دا فيرّارا، جوليو الألماني، وتلاميذ آخرون من مدرسة دافنشي.

رامبالدو كيتي: تلميذ سابق لدافنشي، وكان يعمل في الماضي ولسوء الحظ، بأشياء أخرى كثيرة.

كاترينا: أمّ ليوناردو الحنونة، حملت به عندما كانت قليلة الخبرة في عهد الصبا، هي وكاتب العدل سير بييرو دافنشي. كانت تعطف على صاحبنا بألف طريقة وفيها ألف وجه من السذاجة والصراحة.

الحاشية

لودوفيكو إيل مورو: دوق مدينة باري، وسيّد مدينة ميلانو. طوله متر وثمانون بمقاييس الخبث والدهاء. وهو ابن غير شرعيّ لفرانشيسكو سفورتسا. ولم يكن واضحاً في ذهنه إن كان من الأصلح له أن يأمر ويحكم أو أن يسخر ويخدع، لكنّ كلا الأمرين يعجبانه كثيراً.

وكان فرانشيسكو سفورتسا قد مات وفَنِي منذ أكثر من ستّة وعشرين سنة، ومع ذلك فقد بقي أباً ماثلاً على الدوام في ذهن لودوفيكو إيل مورو. بل كان هناك حصان ضخم من البرونز يصنع على شرفه.

جاكومو تروتّي: سفير، وهو عين وأذن دوق مدينة فيرّارا أي إركولِه دي إيست. لم يعد شابّاً ومع ذلك فقد بقي الترجمان القدير للحياة في القصر. وإذا كان جاسوساً بعض الشيء فهم يدفعون له لهذا الغرض.

بياتريشِه دي إيست: ابنة دوق مدينة فيرّارا وزوجة لودوفيكو إيل مورو، بدينة في شكلها وسمينة في مهرها، ساذجة لكن ليس إلى حدّ عدم الانتباه إلى الكثير من حفيف التنانير الذي يسري على طول ممرّات القلعة.

إركوله ماسّيمِليانو: طفل ابن إيل مورو وبياتريشِه. أصبح نبيلاً وهو في السنتين من عمره.

تيودورا: ممرضة الصغير إركوله ماسّيمِليانو.

ماسّيمِليانو دامبورغو: من مدينة فيّينا، إمبراطور إمبراطوريّة القلب المقدّس الروميّة. ليس في القصر، لكن كأنّه موجود فيه.

بيانكا ماريّا سفورتسا: حفيدة لودوفيكو إيل مورو، وخطيبة ماسّيمِليانو لزواج يجري خلال عيد الميلاد القريب.

لوكريتسيا كريفيلّي: عشيقة للودوفيكو إيل مورو، وقد رسمها ليوناردو في اللوحة المعروفة باسم *La Belle Ferronnière*. لكن يجب عدم نشر الخبر.

غالياتسو سانسيفيرينو: كونت كاياتسو وفوغيرا، صهر موثوق للودوفيكو إيل مورو، رجل أفعال وذو زند من حديد. وهو أهمّ الثلاثة الذين يحملون اسم غالياتسو في الرواية.

بيانكا ماريّا سفورتسا: زوجته وابنة لودوفيكو إيل مورو الشرعيّة.

آمبرودجو فاريزِه دا روزاتِه: منجّم القصر، عباءة أرجوانيّة، خبير في

حركات النجوم وقراءة الأبراج. ومن المعروف أنّ المهمّ في التنبّؤات هو توقّع حدث ما أو معطيّة معيّنة، ويجب الكلام عن أحدهما لكن ليس عنهما كليهما في الوقت نفسه.

بيتروبونو دا فيرّارا: المنافس المباشر لفاريزِه دا روزاتِه.

بيرغونزيو بوتّا: مدقّق الضرائب لدى دوق ميلانو.

ماركيزينو ستانغا: مشرف على ضرائب القصر، وأمين صندوق رسمي، ومتحرّش مزعج شبه رسميّ.

بِرناردينو دا كورتِه: آمر القلعة.

ريميدجو تريفانوتّي: خادم

إسكانيو ماريّا سفورتسا فيسكونتي: كاردينال، أخو لودوفيكو إيل مورو. ولم يكن هناك في ذلك الوقت قانون حول تضارب المصالح.

جان غالياتسو ماريّا سفورتسا: دوق مدينة ميلانو الشرعيّ لأنّه ابن الأخ الأكبر للودوفيكو. وكان غالياتسو ماريّا قد قتل قبل بضع سنين. قام لودوفيكو بأدب بزجّ جان في سجن مدينة فيدجيفانو بعد أن حاول هذا بطرق مهذّبة أن يحكم مكانه وأقام بمناسبة عرسه حفل الفردوس الذي عهد بتصميم ديكوراته الفاخرة إلى ليوناردو بالذات.

إيزابيلّا داراغونا: زوجة، لا تشاهد أبداً، وهذا أفضل.

بونا دي سافويا: زوجة غالياتسو ماريّا وأمّ جان غالياتسو ماريّا سفورتسا، فضلاً عن كونها وصيّة عرش دوقيّة مدينة ميلانو إلى أن سجنها لودوفيكو في برج القلعة الذي سميّ بعد ذلك باسمها.

تشيكّو سيمونيتّا: مستشارها الأمين ورجل دولة قدير، دفع رأسه (بمعنى غير مجازيّ) ثمن إخلاصه لبونا.

كاتروتسو: قزم القصر وذو مكانة إلى حدّ ما، يتحدّث عدّة لغات. بذيء كما ينبغي في قمّة الضحك والنكتة.

قصر كارمانيولا

تشيشيليا غالّيراني: امرأة ذات ثقافة عالية مصقولة، أنقذها لودوفيكو من مصير الرهبنة وجعل منها محظيّته الصغيرة. وعندما عرف فيما بعد أنّها حملت منه، عمل هو نفسه على تزويجها بالكونت كارميناتي دي برامبيلّا، الملقّب برغاميي. وهي نفسها التي مازلنا قادرين على الإعجاب بها في لوحة «النبيلة وابن عرس» الموجودة في كراكوف.

شيزارِه سفورتسا فيسكونتي: وهو ابن غير شرعيّ للودوفيكو إيل مورو وتشيشيليا. ومع أنّه لم يكن كبيراً، بل بعمر سنتين فقط، فقد كانت له ممتلكات كثيرة تحت الشمس. وبدأ ذلك عندما فكّر أبوه بتقديم هديّة له عبارة عن قصر كارمانيولا الذي أقيم فيه بعد ذلك مسرح إيل بيكّولو في مدينة ميلانو.

تيرسيلا: سيّدة مرحة وثرثارة تعمل في صحبة تشيشيليا غالّيراني.

كورسو: خادم عند تشيشيليا غالّيراني.

الفرنسيّون

صاحب الجلالة المسيحيّة الكبرى شارلز الثامن[1]: ضعيف الجسم والعقل، لم يشارك قط في أيّ معركة لكنّه ما يفتأ يثرثر في أمور الحرب ويتكلّم عن غزو إيطاليا والاستيلاء على نابولي، أي كمن يقول «هيا يا شجعان» وهو من أكبر الجبناء.

لويجي دي فالوا: دوق أورليان، ابن عمّه والمعلّم المقبل لحملة

1- يعود لقب «الملك المسيحيّ الكبير» (christianissimus rex) إلى العلاقة الطويلة والسلمية بالكنيسة الكاثوليكية. كانت فرنسا أول دولة حديثة معترف بها رسمياً من قبل الكنيسة وقد تمّ تسميتها الابنة المفضلة للكنيسة. واعتبر كلودوفيو الأول من قبل البابا كحام لروما. ثم تم الاعتراف بهذا اللقب للحكام الفرنسيين. خلال عهد تشارلز السابع، تم الاعتراف بلقب الجلالة المسيحية باعتباره اللقب الوراثي والحصري لملوك فرنسا. (م) عن ويكيبيديا

السيطرة على مملكة نابولي. يغذّي في قلبه آمالاً خفيّة حول امتلاك دوقيّة ميلانو (على أساس أنّه سليل جدّته فالنتينا فيسكونتي).

فيليب: دوق كوميز، مندوب فرنسي في أراضي إيطاليا بالتعاون مع دوق أورليان.

روبينوت وماتينيه: القبيح والجميل. يعملان في مهمّة سريّة في ميلانو.

بيرون دو باش: أصله من مدينة أورفيتّو الإيطاليّة، وأصبح سفيراً لصاحب الجلالة المسيحيّة الكبرى شارلز الثامن ودوق أورليان.

كارلو باربيانو دي بيلجيوسو: سفير لودوفيكو الثاني إيل مورو لدى القصر الفرنسيّ.

جاسكان دى بريه: مغنّي الدوق في خدمة إيل مورو، عبقريّ في الموسيقى بجسده وآلاته.

التجّار

آتشيرّيتو بورتيناري: ممثّل بدين لبنك ميديشي، شره لشرائح اللحم والدراهم.

بينشو سيرّيستوري: شريك السيّد آتشيرّيتو، شغّيل أعزل، لكن ليس في أيّام العطل.

أنتونيو ميسّاليا: تاجر سلاح مرموق ومصمّم لرسومات الحديد وصديق ليوناردو.

جوفانّي بارّاتشو: تاجر أصواف.

كليمنتِه فولتسيو، كانديدو بيرتونِه، ريتشيتّو نانّيبييري وآديمارو كوستانتِه: تجّار أصواف وحرير وإبر وأحجار الشبّ، وهم دائنون لبنك ميديشي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

رجال الدين

فرانشيسكو سانسونِه دا بريشّا: جنرال في نظام الفرنسيسكان.

جوليانو دا مودجا: واعظ من الفرنسيسكان.

ديوداتو دا سيينا: كاهن يسوعي (أي في الجماعة التي انحلّت بعد ذلك، وكذلك في فقراء يسوع في بلدة سان جيرولامو) وهو راع عنيد لقطيعه أي أتباعه.

جواكّينو دا برينّو: راهب يسوعيّ وواعظ متطرّف، يتفوّه بالتهديد ويهدّد السكينة.

إيليدجو دا فارّاميستا: يسوعي وخبير عالم الرسم البياني لأنّه خبير في رسائل الاعتماد، وهو مصرفيّ سابق لكنّه تحوّل إلى الإيمان على طريق ميلانو.

جوليانو ديلّا روفيرِه: كاردينال لم يهضم بعد أمر انتخاب البابا أليساندرو السادس بعدما فاز على منافسه بورجا.

مقاس الإنسان

تصيب الموهبة هدفاً لا يمكن لأحد أن يصيبه.
تصيب العبقريّة هدفاً لا يمكن لأحد أن يراه.

• آرثور شوبنهاور

تمهيد

توقّف الرجل لبرهة قبل أن يدخل.

كان من العبث أن ينظر حوله ليحاول أن يعرف ما إذا كان أحد قد تبعه. كان مدخل القلعة في منطقة قديمة من ميلانو، على طول طريق رطب ومظلم لا يمكن بلوغها إلّا من خلال طرق أخرى رطبة ومظلمة أيضاً، لذلك فحتّى لو كان هناك أحد يجري وراءه فلابدّ أن يكون قد ضيّعه منذ فترة، رغم أنّه كان يرتدي ثوباً ورديّا مبهرجاً.

وإذا قلنا الحقيقة فقد حدث أنّه خشي هو أيضاً أن يضيع. فهو لم يقدر ذات مرّة أن يعرف الاتّجاهات بعدما تاه في كبكوبة الأزقّة المحيطة بالقلعة. وكان ذلك بسببه إلى حدّ ما، لأنّه لم يكن يملك أبداً شعوراً قويّا بالاتّجاهات. وكذلك بسبب تلك المدينة التي تطّورت بشكل سيّئ لا يقوم لا على تصميم ولا على شكل ورؤية. لذلك كان لابدّ من إعادة النظر فيها، بتلك المدينة، من أعلاها إلى أسفلها. لابدّ من تنظيمها بطريقة مختلفة، ملائمة. مختلفة بصورة جذريّة. بطريقة غير معروفة من ذي قبل. كأن تكون مدينة على عدّة مستويات مثلاً. من الأسفل إلى الأعلى، من الماء إلى السماء. مدينة على عكس البيت، حيث يقيم الفقراء في الهواء، والأغنياء على الأرض، كما كان يجري في بيوت أهل روما كما وصفها فيتروفيو[2]. وكان الحقّ مع فرانشيسكو دي جورجو عندما ترجم الكتاب،

2- ماركو فيتروفيو Marco Vitruvio (15-70-80 قبل المسيح) كان مهندساً معمارياً، ومهندساً مدنياً وكاتبًا لاتينيًّا. كان المسؤول عن آلات الحرب في عهد يوليوس قيصر

لأنّه يستحقّ ذلك بالفعل. ويستحقّ الثمن المرتفع الذي اشتراه به، وإذا كان قد كلّفه غالياً، فهو قد ذكّره بكثير من...

اهتزّ الرجل ذو الثوب الورديّ بعد أن أدرك أنّه قد تاه - لكن ضمن أفكاره فقط. وكان هذا الأمر يحدث له في كثير من الأحيان، فتكون تلك أفضل الأوقات في يومه. لكنّ تلك لم تكن اللحظة المناسبة للاستغراق في تخيّلاته. لأنّ الوقت الآن هو وقت عمل.

بهدوء، ولكن من دون طمأنينة، قرع الرجل على الباب. سمع مباشرة صوت صرير فهم منه أنّهم في طريقهم لفتح الباب، كما أنّ غُريفةَ المدخل ظهرت كأنّها مضيئة وسط عتمة الشارع.

كلمة واحدة فقط.

- ادخل.

دخل الرجل وترك الظلام وراءه.

والقيصر أغسطس، كان قد صمم وبنى كاتدرائية فانو، كتب قواعد الهندسة المعمارية باللاتينية بعشرة كتب سُميت دي أركيتيتورا «De architectura» التي اتبعت حتى نهاية القرن التاسع عشر (م) عن ويكيبيديا

بداية

أوّل ما كان يلاحظ عند الدخول إلى قاعة المجلس هو أنّ الإنارة ضعيفة.

ورغم أنّ الوقت كان لا يزال في منتصف تشرين الأول فقد ساد البرد في ميلانو، وقبل أن يمتلئ القصر بالسادة العائدين من فيدجيفانو كان الخدم قد فتحوا النوافذ والستائر، وهي عبارة عن أقمشة بيضاء تُشرّب عادة بزيت التربنتين لجعلها شفّافة قدر الإمكان، ولا تترك مجالاً إلّا لبعض الضوء كي يتسرّب من الخارج، كما لا تسمح برؤية شيء ممّا يحدث داخل القاعة التي كانت تسمى بالنسبة إلى من يسكن داخل القصر قاعة سكارليوني، وذلك بسبب زينتها البيضاء والحمراء. أمّا بالنسبة لجميع الآخرين، أي غالبية سكّان ميلانو، فتلك كانت قاعة المجلس، حيث كان يجتمع عادة المجلس السرّي، وهو مؤلّف من ستّة أشخاص، الأشخاص الستّة الأقوى في ميلانو، بالإضافة إلى زعيمهم الذي كان أقوى الجميع.

– أدخل الشخص التالي، يا آمر القلعة.

أشار برناردينو دا كورتِه آمر قلعة بورتا جوفيا بإشارة وهو يسحب الباب الخشبيّ الثقيل ويعلن:

– صاحب السعادة جنرال نظام الفرنسيسكان فرانشيسكو سانسونِه دا بريشّا.

كان يوما الثلاثاء والجمعة معيّنين لجلسات الاستقبال. أي حينما يقوم

لودوفيكو إيل مورو دوق باري ورغم ذلك زعيم ميلانو، بالاستماع لأيّ شخص والاهتمام بأيّ مشكلة تعرض عليه ليجد لها حلّاً. فمهما كان نوع المشكلة، وكائناً من كان مواطن ميلانو - وهذا يعني أيّ شخص يدفع الضرائب التي فرضها إيل مورو، باستثناء طبعاً الأشخاص الذين لا يدفعونها بإعفاء كريم من مورو بالذات. لذلك فإنّ مواطن ميلانو الذي يدفع الضرائب له الحقّ كلّ الحق في أن يلقى السماع، ذلك أنّه يدفع الكثير من الضرائب.

لكنّ رئيس نظام الفرنسيسكان لم يكن مواطناً من ميلانو، كما لم يكن مواطناً كبقيّة المواطنين. لذلك ومن الناحية المنطقيّة لم يكن له الحقّ أن يستغلّ ولا دقيقة واحدة من الوقت الثمين الذي خصّصه إيل مورو لتابعيه كي يستمع إلى رجاء الفقراء بدلاً من فرض إرادته على سفراء مشاغبين ومتنافسين ملتهبين وخادمات مطيعات. لكنّه من الغباء من ناحية أخرى عدم اتّباع قواعد حسن السلوك ورفض استقبال جنرال النظام الذي جاءه كمواطن بسيط.

ولم يكن لودوفيكو إيل مورو، دوق باري وزعيم ميلانو، غبيّاً على الإطلاق.

قال إيل مورو وهو جالس على مقعده: - أيّ شرف أن نستقبل جنرال نظام الفرنسيسكان الذي طلب لقاءنا وجاءنا كمواطن عاديّ بسيط! فبماذا ندين لهذه الزيارة المتواضعة؟

أجاب فرانشيسكو سانسونِه قائلاً: - أنا فرانسيسكاني متواضع ولست معتاداً على التشريفات والبهرجة. كما أنّ المسائل التي أنوي عرضها على نظرك[3] البعيد يا صاحب السيادة لا تتطلّب إلاّ شيئاً من الوقت بحيث كان من المجحف أن أطلب لها مقابلة خاصّة.

أهلاً بكم إذاً في عصر النهضة، حيث تتمّ معايرة كلّ عبارة ويتمّ صياغتها

3- يجب أن نلاحظ أنّ المخاطبة في الأصل الإيطالي هي بصيغة الجمع فلا يقال مثلاً أنت بل أنتم وأنتن للنساء وهكذا في جميع الضمائر، لكنّي آثرت استعمال ضمائر المفرد. (م)

كما تصاغ الجواهر، فتوضع على الميزان كلّ مفردة، ثمّ تعرض القلّادة ليس لإظهار مقدار جمالها بمقدار الرغبة بإظهار قوّة من يتقلّدها. وحيث يجب تفسير معنى أيّ حديث بالنظر إلى من يتحدّث، وإلى من يستمع، وإلى من هو موجود في المكان ومن هو غير موجود، وإلى الأسماء التي تتلى بل وقبل كلّ شيء إلى تلك التي لا تلفظ.

وهكذا فإذا ما نظرنا إلى أساس ما جرى نجد أنّ لودوفيكو إيل مورو قد استقبل الراهب من دون أن يسميّه بالاسم، بل بالصفة، ثمّ قدّر له القيام بزيارته على أساس أنّه مواطن بسيط، وهذا كان يعني أنّ الراهب لا يعني شيئاً له ولا لبقيّة أعضاء المجلس من ناحية كونه رئيس الفرنسيسكان. ومن هنا فقد أجاب الراهب أنّ لديه طرقاً أخرى رسميّة وجليلة بصورة قطعيّة يستطيع بواسطتها أن يفرض نفسه على اهتمام إيل مورو، بعد أن دعاه بلقب صاحب السيادة وليس دوقاً، أي كي يذكّره أنّه وبكلّ بساطة مجرّد مغتصب من الناحية العمليّة وبالنسبة إلى معظم أنحاء إيطاليا.

أجاب إيل مورو: - هذا من دواعي سروري. قل إذاً، فأنا والمجلس مستعدّون للاستماع إليك.

- اعذرني... يا صاحب السيادة، فأنا لا أرى صاحب النيافة أسقف مدينة كومو. أرجو ألّا تكون قد أصابته وعكة.

- لم يصب بأيّ وعكة، لكنّنا خفّضنا مؤخّراً عدد أعضاء المجلس، لأنّ اثنين وأربعين شخصاً عدد كبير بالفعل للقيام بهذه المهمّة، خاصّة أنّ أسباب ودواعي المقابلات قد تقلّصت بشكل كبير خلال مجرى العام الأخير.

من المؤكّد أنّه كان بوسع الراهب أن يقول إذا اعتبرنا أن اثنين وأربعين كانوا كثيرين في الماضي، فإنّ ستّة فقط قليلون بالفعل، هذا إذا لم نلتفت إلى أنّه ليس بين هؤلاء الستّة أيّ رجل كنيسة، بحيث من الصعب أن يعزى الأمر إلى الصدفة. لكنّ الأب سانسونِه صفّى حنجرته ونحنح صوته وقال:

- جئت الآن يا صاحب السيادة بناء على طلب من النظام عسى أن

تعيد النظر في قضيّة الراهب جوليانو دا مودجا، الذي ما زال يقدّم مواعظ تسيء إلى قواعد نظامه وإلى مضمون الكتابات المقدّسة.

أجاب إيل مورو بعد أن نظر إلى كلّ فرد من أعضاء المجلس: - لكنّي لا أعرف كيف لي أن أفعل هذا أيّها الأب.

- ألا يعرف إذاً زعيم ميلانو كيف يُسكت فرانسيسكانيّاً مسكيناً؟

من المؤكّد أنّه لا داعي لوجود مفسّرين جهابذة كي يُفهم مغزى كلام الراهب الفرنسيسكانيّ، وخاصّة صيغته الشرطيّة. وإذا كان القارئ قد فهم هذا، فالأحرى ألّا يفوت ذلك على فهم أيّ عضو في المجلس. ناهيك عن لودوفيكو إيل مورو.

- لقد سبق أن قبض على الراهب جوليانو وحوكم قبل ستّة عشر شهراً، وذلك بمبادرة منك بالذات. ونظراً لأنّي لست مسؤولاً في نظام دينيّ، فقد طلبت أن تتمّ مراجعة القضيّة، وتركت صلاحيّة ترؤّسها لصاحب النيافة رئيس الأساقفة أرشيمبولدي. وتعرف أنت جيّداً ما آلت إليه القضيّة.

وهنا تنفّس الأب سانسونِه الصعداء.

كانت مهزلة المحاكمة التي جرت بحقّ جوليانو دا مودجا من أهمّ الأعمال التي دبّرها إيل مورو. وجميل الصدفة أنّه لم يكن بين جميع الشهود رجل دين واحد، وأنّ جميعهم كانوا ينتمون إلى حاشية لودوفيكو، وأنّهم أشادوا بحماسة بعظات الراهب وقلّلوا من شأن شتائمه ضد كنيسة روما أو تظاهروا بعدم تذكّر شيء منها. وكان هذا، في الواقع، أقلّ الأمور شأناً.

لم يكن الراهب جوليانو يقتصر على قول إنّ زعامة كنيسة روما كانت فاسدة، ميّالة لأمور الدنيا، منحطّة ومقرفة، فهذا ما كان يفعله الكثيرون، بمن فيهم ذلك الدومينيكانيّ ذو الصوت الباكي جيرولامو سافونارولا[4]

4- جيرولامو سافونارولا Girolamo Savonarola رجل دين وسياسي إيطالي، ولد عام 1452 ينتمي إلى نظام الرهبان الدومينيكان. أُدرجت مؤلفاته في الطبعة الأولى لفهرس الكتب المحظورة. لكنّه منح لقب خادم الرب بعد أن قُدمت من قبل أسقفية مدينة فلورنسا دعوى تطويبه في 30 آيّار من عام 1997. وكان هو زعيم مدينة فلورنسا منذ عام 1494 حتى إعدامه حرقاً في عام 1498.

الذي اشتهر بأنّه الناطق الخبيث بالنبوءات التي قالت إنّ لورينزو دي ميديشي سيموت وإنّ مصائب أخرى ستحدث، وقد تحقّق هذا كلّه.

لا، فالراهب جوليانو كان يدّعي أيضاً أنّ كنيسة عاصمة منطقة لومبارديّا يمكن أن تكون منفصلة عن كنيسة روما. وكان مثل سافونا رولا الذي يطمح إلى الحصول على استقلاليّة الأديرة، غير أنّ هذا كان يرنو إلى إقناع ميلانو بالانفصال عن روما. ميلانو، المدينة التي كانت تتحوّل على ما يبدو إلى أغنى مقاطعة في شبه الجزيرة الإيطاليّة، والمكان الذي بدأ يجتذب كبار الفنّانين، والتي كانت تكلّف أفضل الأطبّاء وعلماء الرياضيّات البارزين وترسلهم إلى جامعة بافيّا القريبة، وتدفع لهم مبالغ كبيرة.

هذا لم يكن له أن يحدث، ذلك على حسب قول الأب سانسونِه وزميله ذي النفوذ الذي جلس على عرش روما. لذلك فقد حاول تسخير الراهب جوليانو. لكنّ بعض الأمور تكون أفضل كلّما قلّ الكلام فيها، ووجود فرنسيسكانيّ يدعو بصوت مرعد إلى فصل الكنيسة الأمبروسيّة عن الكنيسة الرومانيّة بأيّ وسيلة مهما كانت - عدا استعمال الجرّافات لأنّها لم تكن معروفة في ذلك الوقت - لم يكن أفضل ما في الحياة، هذا كلّ ما في الأمر.

لكنّ القضيّة التي كان قد نظّمها سانسونِه اختطفها إيل مورو بكلّ مهارةِ عصر النهضة. وقد نظم شعراء القصر أبياتاً ردّدتها كلّ المدينة. وفي كلّ مكان في الشوارع المحيطة ببناء برولويّتو البلديّ وعلى طول أقنية النافيلي، كان يمكن أن يسمع نشيد البيلّينشوني الذي يبدأ بقول «ميلانو يا أعظم مسيحيّة» وكذلك سداسيّة المسمّى جاكومو آلفييري الذي كان مشهوراً في ذلك الزمان لكنّ ذكره انغمر الآن بالطبع، وكلّها شكر للسموات لمجيء الراهب جوليانو إلى ميلانو. وكلتا القصيدتين من أبشع القصائد رغم فعاليتهما. وقد توجّه إيل مورو بالشكر إلى المواطنين قبل القضاة وأخذ بالإمساك بهيئة الكنيسة بين قبضتي كمّاشة إرادته الواعية وإرادة الشعب الشبيهة بعزم الثيران.

هنا قال الأب سانسونِه بعد أن تنفّس بنفس آخر عميق وطويل: - أعرف أنّه قد تمّت تبرئة الراهب جوليانو تبرئة مسيحيّة. إنّ الراهب جوليانو رجل فذّ، وهو يستلهم عظاته من حماسة شديدة. حماسة شديدة وحبّ كبير لرعيّته. الراهب جوليانو رجل يعرف كيف يكلّم الناس، لأنّه يقول للناس ما يحبّون أن يسمعوه.

هذا يعني أنّ رجل الدين كان يذكّر لودوفيكو بصراحة لعينة أنّ تأييد الناس يتغيّر بين لحظة وأخرى. لكنّ التأييد لم يكن آنذاك مع إيل مورو لدى جميع الناس.

ذلك أنّ الناس لم ينظروا بعين الرضا إلى ضريبة الملح وغيرها من الضرائب الجديدة. وهكذا فلم تعد شعبيّة لودوفيكو في أعلى السماء كما كانت ذات يوم. ولو كانت استطلاعات الرأي معروفة في ذلك الحين لكان لابدّ لمجالس صباح الثلاثاء من أن تبدأ باجتماع وقائيّ من أجل تحليل أوجه الوفاق وتوجيه وساطات إيل مورو بشكل جيد. لكنّ الإحصاءات كانت لا تزال آنئذ أبعد من أن تكون، ولم تكن فكرة الرجل المتوسّط قد اكتُشفت بعد، ولم يكن بوسع الناس آنئذ أن يعبّروا عن إرادتهم إلّا من خلال الإشادة. أو الثورة.

استأنف الأب سانسونِه حديثه وقال: - وبما أنّ الراهب جوليانو هو رجل حاضر البديهة فمن الصعب حمله على السكوت. وعندما يعظ في كنيسة سان فرانشيسكو الكبير كانت الكنيسة تزدحم وتمتلئ. إذ كان الناس يأتون من أماكن بعيدة ويخرجون ملهمين. لذلك قد يكون من المفيد...

لكنّ الأب سانسونِه لم يتمكّن من قول ما هو مفيد، لأنّ لودوفيكو نهض في تلك الحظة عن كرسيّه. ولو كنّا ساعتها في مدينة لودي، لقلنا إنّ لودوفيكو إيل مورو هذا هو بطول أربع أذرع وشبر تقريباً بمقياس المصنع، أمّا إذا أردنا قياسه بمقياس المدينة فإنّ طول إيل مورو سيكون أقلّ بقليل عن ثلاث أذرع قماش من ميلانو. أمّا بالمقياس المتريّ العشريّ فإنّ زعيم ميلانو كان بطول متر وتسعين سنتمتراً، وإذا أضيف إلى هذا الطول نظرته

الجليديّة الجامدة وثوبه الطويل المصنوع من الديباج الأسود الغليظ، فلابدّ أن يثير لودوفيكو الرعب عندما ينتصب واقفاً على قدميه.

بعد أن وقف بوقت قصير توجّه لودوفيكو ببطء نحو الفرانسيسكانيّ وتأبّطه بذراعه بكلّ لطف.

ثمّ قال له بصوت حلو رقيق، لكن كمن يعرف مع من سيتعاطى: - تعال أيّها الأب المبجل، أريد أن أريك شيئاً.

بقي تحت ذراعه وهو يعبر القاعة على طولها برجل الدين الصارم لكن الخائف، وهكذا حتّى وصل به إلى خريطة بهيّة للمدينة مرسومة على الجدار.

- انظر أيّها الأب المبجّل، إن ميلانو كالدولاب - قال ذلك بينما كانت يد إيل مورو ترسم دائرة واسعة لتشير على الخريطة إلى الأسوار التي كانت تحمي المدينة، قبل أن يضع إصبعه على مركز الخريطة قرب كنيسة الدوّمو الكبيرة - ميلانو كالدولاب، وكنيستها هي محوره. محور قويّ صلب وآمن ومستقيم. لكن هل تعرف ماذا سيحدث لو توقّفت هذه الكنيسة عن الجري وثبتت؟

هنا بدأت إصبع إيل مورو ترسم دوائر أضيق فأضيق إلى أن أحكمت دوّامة حول الدوّمو حيث وقفت.

- يمكن لهذا الدولاب أن يدور ويدور من جديد، لكنّ الذين يعيشون في داخله... - وهنا باعد إيل مورو بين ذراعيه -...لن يصلوا إلى أيّ جهة كانت. بعد ذلك وضع إيل مورو يمينه على كتف الفرانسيسكانيّ بطريقة ودّيّة لكن ثقيلة أيضاً، وقال له: - فهل فهمت المغزى أيّها الأب المبجّل؟

- فهمت، فهمت أيّها السفير. أرجوك ألّا تقلق لهذا الأمر، أؤكّد لك أنّنا رأينا ما هو أسوأ من ذلك.

- لا أستطيع إلّا أن أعتذر عن الظروف البائسة التي أقدّم بها نفسي، لكن...

كان جاكومو تروتّي سفيراً لدوق مدينة فيرّارا إركوله الأوّل دي إيست، لدى قصر آل سفورتسا، وكان من أكثر الناس تميّزاً وجدّيّة في كلّ ميلانو. لكنّ ما زاد في تميّزه وجدّيّته كان في أغلب الأحيان مظهره الخارجي الملائم، لذلك فعندما يسفح أحدهم على شخص ما محتوى مستعملة الليل فلابدّ أن تنهار تلك الصفات وتتلاشى. وهكذا وبينما كان في طريقه إلى قصر كارمانيولا لحضور لقاء الثلاثاء الموسيقيّ المعتاد في قاعة تشيشيليا غالّيراني، حتّى تحوّل هو بالذات إلى هدف استهدفه من النافذة شخص غليظ جلف وفرّغ عليه ما في مستعملة الليل من أقذار، دون أيّ اعتبار ومن غير أن يصيح بعبارة «لقد وصل...» التي كان يصرخ بها حتّى أقلّ الناس أدباً لتحذير المستهدف وتجنيبه التعرّض لوابل الأقذار المقرفة.

- عاش السفير، عاش، لا تهتمّ أيّها السفير. وفي الحال أشارت تشيشيليا غالّيراني فاقتربت إحدى الوصيفات اللاتي ينتظرن في صدر القاعة، وتقدّمت وهي تمشي بأناقة مفتعلة. - خذي السيّد السفير تروتّي إلى الغرفة الغربيّة وساعديه. ونحن لن نبدأ بالطبع إلّا بحضورك أيّها السفير.

- لا أعرف كيف أشكرك أيّتها الكونتيسّة...

فأجابت غالّيراني وهي تبتسم: - أرجو أن تسرع وتغيّر ملابسك لتلحق بنا ونتمتّع بصحبتك. أوصيكِ يا تيرسيلّا.

توارت الصبيّة بالابتسامة نفسها وهي تختفي وراء الباب، وذلك لتعطي أوامرها لفرقة الموسيقى علّهم ينتظرون شيئاً آخر من الوقت. بينما واصل سفير فيرّارا جاكومو تروتّي النظر إلى الباب الذي اختفت وراءه تشيشيليا غالّيراني. وهنا انطلقت بصورة آليّة المقارنة مع تلك التي كانت نظريّاً الفتاة التي كان يحميها لأنّها من بنات بلده. لكنّ المقارنة بدت كما هي العادة عنيفة قاسية.

فهناك من جهة تشيشيليا غالّيراني السماويّة الرقيقة، التي ما زالت على جمال اللوحة التي رسمها لها قبل سنوات المعلّم ليوناردو، وكانت فيها

صافية الوجه رغم بعض الصرامة الظاهرة، كانت تلتفت فيها بثلاثة أرباع وجهها كما لو أنّها قد انتبهت للتوّ إلى وصول عشيقها لودوفيكو إيل مورو الذي كنّا نتكلّم عنه قبل قليل، والذي كانت تنتظره وهي تداعب ابن عرس القاقم الصغير المتربع في حضنها. وهناك من جهة أخرى تلك الطفلة المزعجة الساذجة البدينة التي كانت تسمى للأسف بياتريشِه دي إيست، أي الابنة الثانية لسيّده إركولِه. وإذا كانت هذه الطفلة رقيقة فاضلة في سلوكها فهي كانت فظّة خشنة في قلبها. ومن هنا فقد كان السفير يلقّبها خلال مناجياته الصامتة باسم فظّ لكنّه كان لا يجرؤ على التلفّظ به في سرّه فكيف في العلانيّة. أمّا بقيّة النّاس فقد كانوا يعبدونها، من أبيها إلى أختها إلى أمّها وكثيرين آخرين لا يمكن بالطبع أن نعدّ بينهم السفير جاكومو تروتّي.

قالت الصبيّة تيرسيلّا: - تفضّل يا صاحب السعادة، ذلك وهي تدلّه على الطريق بالإشارة لكن وهي تحافظ على شيء من المسافة بينها وبينه.
- لابدّ أن نجد ثياباً على مقاسك، لا شكّ في هذا.

كانت بياتريشِه معبودة الجميع، بل ومعبودة إيل مورو أيضاً حتّى وقت قصير، عندما وقع في شراك حبٍّ صادق عميق، وبعد أن أثارته بإحدى الطرق المجرّبة وأكثرها نجاحاً، من تلك التي كانت تستخدمها النساء من كل أمّة وطبقة لآلاف السنين، أي رفضها تقديم نفسها له، على الرغم من أنّ الاثنين كانا قد تزوّجا منذ شهور.

قالت الفتاة: - ها هو ذا، ذلك بعدما دخلت إلى غرفة وتوجّهت مباشرة نحو صندوق يبرز من طرفه شيء خشبيّ غامض يشبه دفّة القيادة. وأضافت: - هنا ملابس السيّد الكونت. كان زوج السيّدة تشيشيليا أقصر طولاً منك، لكنّي أظنّ أنّنا سنعثر بسهولة على ما نريد.

ومع ذلك فقد كان إيل مورو يجد طريقة ينفّس بها عن غرائزه. وكان تروتّي يلاحظ في كثير من الأحيان، أنّه خلال حفلات العشاء - أي كلّ يوم أو نحو ذلك - كان إيل مورو يختفي من حفل المأدبة ليعود بعد ساعة، وعلى وجهه ابتسامة الرضا. لكنّه لم تمض إلّا بضعة أيام حتّى تمّ

التأكّد من أنّ غالّيراني كانت تصل إلى برج روتشيتا في الوقت نفسه الذي كان ينهض فيه لودوفيكو عن الطاولة، أو قبل ذلك ببضع دقائق. وهكذا وبينما كانت الزوجة الشابّة الحرون تتمتّع بالتهام اللحوم المشويّة، كان لودوفيكو إيل مورو يقضي شهوته من اللحوم الغضّة.

- خذ هذا الثوب - قالت الصبيّة وهي تسحب خارج الصندوق لباساً من البروكار لابدّ أن يكون ضيّقاً على رجل ذي جسم بنصف جسم تروتّي رغم أنّ هذا لم يكن ضخماً بالفعل. وأضافت: - أظنّ أنّ هذا الثوب سيناسب مقاسك بصورة رائعة.

بعد ذلك حملت غالّيراني. وبما أنّ لودوفيكو كان قد قال لتروتّي «إنّ النساء الحوامل يثرن القرف» فإنّه انقطع بكلّ بساطة عن التواصل معها. في الوقت نفسه، عاد ليزور زوجته الشابة مراراً وتكراراً في شقّتها، ليلاً، فكان ينزل على الدرج المنحدر بشدّة، الذي يفصل بين الطابقين، وهو لا يرتدي إلّا قميصاً خفيفاً من حرير وكان يخلعه على الفور. وقد عرف تروتّي هذه الأمور أيضاً مباشرةً من فم إيل مورو الذي كان يصف له علاقاته بكثير من التفصيل.

يجب ألّا نندهش من قلّة الحياء في وصف الأمـور الشخصيّة، فالحياة الجنسيّة بين الزوج والزوجة لم تكن تعتبر في عهد النهضة أمراً سرّياً، خاصّة إذا كان أحد الاثنين أميراً حاكماً أو وليّ عهد. وإذا تمكّن أحدهم من أن يسأل تروتّي فإنّ بوسع هذا أن يخبره كيف قضى آلفونسو دي إيست في مدينة فيرّارا ليلة عرسه الأولى مع آنّا سفورتسا بحضور فرانسيسكو غونزاغا والسفير الأراغوني[5] سيمونوتّو دا بيلبيترو فضلًا عن أربعة أو خمسة من موظّفي القصر، وقد قام هؤلاء في البداية بخلع ملابس آلفونسو ثمّ وضعوه في السرير إلى جانب العروس الصبيّة. لكنّ آلفونسو لم يرغب القيام بواجباته الزوجيّة وكان يخرج باستمرار من السرير، ربّما لأنّه خاف من وجود هذا العدد من الناس في غرفته، أو ربّما لأنّه لم يكن

5- تقع منطقة آراغون شمال شرق إسبانيا. (م)

على دراية بأمور هذه الدنيا بل وكان على قناعة أنّ الفأرة تعضّ[6]. لهذا فقد توجّب على غونزاغا أن يتدخّل وأن يضرب سليل النبلاء بالفعل كي يعيده إلى تحت الغطاء، وكي لا يفكّر بالخروج مرّة أخرى قبل أن يقوم بشيء ما.

قالت تيرسيلّا بعد ذلك وهي تسحب من الصندوق جوارب طويلة بتسعة ألوان أي على الطريقة الفرنسيّة: - وفي النهاية: ها هي الأرجل!

كانت كلّها أشياء لا يمكن أن تشاهد. لذلك فإنّ تروتّي، رغم أنّه لا يهتمّ أبداً بأمور الموضة، فهو لم يكن ليسمح لنفسه ولا حتّى بالسير برفقة شخص يرتدي تلك الألبسة، بينما عليه أن يرتديها الآن بنفسه. من ناحية أخرى فإنّ الأشياء التي تثير القرف تثير القرف بالفعل.

وهكذا فبعدما حملت بياتريشه إثر كلّ تلك الزيارات الليليّة التي كان يقوم بها إيل مورو، بدأ تروتّي يشعر مباشرة بالقلق. كان على ثقة أنّ سيّد ميلانو لم يكن ليلمس زوجته حتّى بطرف خنصر مغلّف في قفاز، رغم أنّها كانت بدأت تتخمّر في خدرها، وأنّه لابدّ أن يجد طريقة أخرى يشبع بها غرائزه. ولماذا لا يذهب إلى غالّيراني من جديد التي تبقى أجمل امرأة في ميلانو، والتي ما زال إيل مورو على حدّ قول الكثيرين مرتبطاً بها بمشاعر حبّ صادقة ودائمة؟ أليست هي غالّيراني التي إن قورنت ببياتريشِه فلابدّ أن تظهر كقطعة ألماس قرب شريحة لحم مقدّد؟

نظر تروتّي بحزن إلى الملابس التي قدّر عليه ارتداؤها. لو كان في فيرّارا لفضّل الانحباس في البيت على ارتداء ثياب مماثلة. لكنّ ميلانو ليست فيرّارا.

في ميلانو يتنقّل الرجال على ظهر البغال، بينما تتنقّل النساء، النساء الثريّات، في عربات - عربات تبدو كأنّها نوع من اللوحات التي توضع على مذابح الكنائس ممزوجة بعربات صقليّة المزخرفة الملونة والفخمة،

6- يقال كناية عن الخوف من الجماع. (م)

وكان يجرّها أربعة أحصنة فتخيف المارّة. لهذا، وإن كان الأمر يبدو غريباً، فإنّ حركة السير كانت صعبة في ميلانو في أواخر القرن الخامس عشر.

كان جاكومو تروتّي يعرف أنّ أمراً عاجلاً أصدره إيل مورو لا يسمح إلّا لعدد محدود من العربات بالوصول إلى قلعة جيوفيو في جميع أوقات الليل والنهار. كان بين هذه العربات عربة تشيشيليا غالّيراني، لكنّ هذه لم تشاهد في القلعة منذ وقت طويل. على كلّ فإنّ هذا لا يعني الكثير، لأنّه بوسع إيل مورو أن يخرج من القلعة في بعض شؤونه ثمّ يعرج بكلّ طمأنينة على بيت عشيقته، خاصّة أنّ زوجها كان يقيم خلال تلك الفترة في سان جوفانّي إن كروتشِه قرب مدينة كريمونا.

لهذا السبب بالذات ذهب هو إلى هناك، هو جاكومو تروتّي، سفير إركولِه دوق فيرّارا. ذهب ليمعن النظر بغالّيراني، وليرى فيما إذا كانت هناك جوهرة جديدة تزيّن جبهتها، أو فيما إذا كانت ترتدي ثوباً من ديباج البروكار المجعّد والمنسوج بخيوط الذهب، الذي لا يمكن إلّا لإيل مورو أن يقدّمه هديّة لها كعربون محبّة وهوى، خاصّة أنّه على ثقة تامّة أنّ مثل هذه الهدايا لا يمكن أن تصل إليها من زوجها. فالكونت لودوفيكو كارميناتي بيرغاميني الذي زوّجه إيل مورو بتشيشيليا بعدما أبعدها عن قلعة سفورتسيسكو، كان من أبخل الناس ليس في جميع أنحاء ميلانو فقط، بل في جميع أنحاء الإمبراطوريّة الرومانيّة المقدّسة.

– شكراً أيّتها الآنسة تيرسيلّا، قال تروتّي بلهجة مؤدّبة حزينة. – هل لي أن أساعدك في إغلاق الصندوق؟

– أشكرك يا صاحب السعادة، لكنّي قادرة على فعل ذلك بنفسي، ذلك كما كنت قادرة على فتحه، بهذه الأداة، ألا ترى؟

قالت تيرسيلّا ذلك وهي تغمز بعينها وتعرض جهازاً غريب الشكل مصنوعاً من خشب وحديد كان موضوعاً بين الصندوق وغطاء الصندوق وينتهي بآلة تشبه دفّة قيادة السفن.

ثمّ استطردت تيرسيلّا قائلة بنوع من الكبرياء، وكأنّها هي من اخترع

الجهاز: - لقد اخترعه السيّد سير ليوناردو وقدّمه هديّة إلى سيّدتي. - إنّه جهاز يعمل كرافعة. يكفي تدوير الدفّة فيمكن رفع الغطاء أو تنزيله من غير بذل أيّ جهد. إنّه شيء مدهش، ولا يمكن أن تتصوّر كم من الوقت يوفّر علينا. إنّ سير ليوناردو رجل عبقريّ بالفعل، ألا ترى ذلك أنت أيضاً؟

أجاب جاكومو تروتّي الذي تهيّأت له فرصة في هذا اليوم الدبلوماسيّ أن يقول أمراً يؤمن به بالفعل: - لا شكّ في ذلك، أظنّ أنّه ليس هناك أي شيء مستحيل على السير ليوناردو دافنشي.

- مستحيل بالفعل!

أغلق الرجل ذو الملابس الورديّة الصندوق بشيء من الخوف. كانت تقف وراءه امرأة وقفة من يفكّر بشيء ما، ربّما كانت في حوالي الخمسين من العمر، بشرتها بلون زيتونيّ وكانت تضع يديها على وركيها وهي تنظر إليه:

- ربّما كنت قد تركته في المكتب، فوق في الغرفة العليا.

مستحيل! أذكر تماماً أنّي وضعته في هذا المكان، قبل أقلّ من شهر.

- حسناً، بما أنّه انقضى شهر على ذلك...

هزّ الرجل ذو الملابس الورديّة رأسه، وهو ينظر إلى الصندوق، كما لو أنّ الذنْب ذنبه. ثمّ رفع رأسه نحو المرأة. كان له وجه غريب، وهو ذكرٌ أكثر من جميل، شعره طويل أشقر لكن بدأت تتخلّله خصل رماديّة، لم تصل إلى لحيته. وكانت عيناه الوديعتان في العادة قد انقبضتا بانزعاج لا يثيره إلّا الأبوان.

- كفاك سخرية يا كاترينا، اتّفقنا. إنّها مشاريع هامّة، ولا أحملها معي عبثاً حتّى عندما أخرج في الطريق.

- هل يمكن أن يكون قد أخذها سالاي. وقد قلت أنت بنفسك إنّه لصّ يسرق أيّ شيء غير ملتصق بالأرض...

عاده إلهام مفاجئ، وهو أمر غالباً ما يحدث له، فالتفت الرجل وذهب إلى الغرفة المجاورة وهو يواصل الكلام.

- لكنّ جاكومو يعرف حقّ المعرفة أنّ عليه ألّا يلمس مشاريعي أبداً، وإلّا جلدته أوّلاً ثمّ تركته بلا عشاء.

بقي يوجّه حديثه إلى المرأة وهو يقلّب بعض الصفحات الموضوعة على الطاولة. - وعلى سيرة العشاء أرى أنّ ديكاً كاملاً هو مقدار كبير بالنسبة إلى ثلاثة أشخاص فقط. أرجوك أن تقتصدي قليلاً هذا المساء، بل أظنّ أنّه سيكفي ما بقي عندنا من الفاصولياء واللفت.

- أجل، تكفيك أنت. فضلاً عن أنّ مزيداً من الطعام سينفعك أنت أيضاً. فلقد زاد هزالك منذ قدومي، لقد خسرت أكثر من عشرة أرطال في ثلاثة شهور فقط.

- إنّها ثلاثة شهور، لكنّي أحسبها عشرة سنين، قال الرجل وهو يواصل البحث. - هذا فضلاً عن أنّي لا أحب أكل الحيوانات الميّتة لا هذا اليوم ولا في الغد ولا في أيّ وقت آخر. لكنّ ما سبّب لي الهزال هي لعنة تمثال الفروسيّة ذاك. فضلاً عن أنّي فقدت هذه الأوراق اللعينة، ولا يعلم إلّا الشيطان أين انتهى بها الأمر...

- لكنّ الأوراق لا تسير يا ابني.

- كما أنّ الأمّهات لا يفعلن ذلك بما فيه الكفاية، يا كاترينا، يا أمّي. فلماذا لا تبتعدي قليلاً عن خصيتيّ وتتركينني أبحث عن أوراقي بسلام؟

- لم تكن مبتذلاً بهذه الطريقة في صباك. ولا بخيلاً كذلك.

- وما يدريك أنت بأموري. لم تكوني موجودة حينها. عندما أجبروني على البخل. إنّي لا أرى أيّ دفعة منذ شهرين. - اسمحي لي. وهنا أبعد الرجل أمّه بيده وتوجّه نحو قنّ الدجاج ثمّ بدأ يبحث في الأقفاص.

فقالت كاترينا بلهجة صبر متأنّية: - لم أستعملها في تنظيف القنّ.

فأجاب الرجل وهو ينهض ويصلّح أمر الحزام حول ثوبه: - لن

أندهش لو فعلت، كما لو أنّك لم تفعلي مثل ذلك...لحظة لقد ساورني شكّ...

ترك الرجل يده اليمنى موضوعة على حزامه ورفع اليسرى إلى ثوبه الورديّ ودفعها فيه ليسحب من داخله دفتراً مليئاً بأوراق وقصاصات مثنيّة. سند الدفتر على الطاولة ثمّ فتحه بعناية فائقة وأخذ من بين الأوراق رقاقتين مصفرّتين تظهر عليهما صور أحصنة كتبت حولها بعض العبارات وأشياء أخرى. ثمّ وضع يده مباشرة على وجهه ورفع عينيه نحو السماء.

فسألته كاترينا وهي تتضاحك: - كانت إذاً معك؟

فأجاب وهو ينظر إلى أمّه كما ليعرف إذا ما كانت غاضبة، وقال لها:

- عفواً يا كاترينا، لابدّ أنّي وضعتها قبل يومين قبل أن أتوجّه نحو القلعة.

- يمكن لك أن تقول يا أمّي، أحياناً.

- عفواً يا أمّي، إنّي أفقد كثيراً من الأشياء حتى إنّي، أحياناً...

لكنّ صوت قرع صارم على الباب قطع حديثه.

التفتت كاترينا، لكنّ الرجل تجاوزها وذهب برشاقة ليفتح الباب. ليس لأنّه يخجل بأمّه! يعني، نوعاً ما، إلى حدّ ما. على كلّ بحسب الزائر. لكن في تلك الساعة المبكرة من الصباح لا يمكن أن يكون الزائر إلّا واحداً.

فتح الرجل ذو الثوب الورديّ الباب، فوجد أمامه شخصاً أقصر منه بقليل لكن أكبر بكثير في العمر، يرتدي ثوب بروكار أسود وحاسر الرأس، لأنّه حمل طاقيّته بيده في نوع من الاحترام. كان نادلاً من المهمّين، لكنّه نادل على أيّ حال.

سأل الرجل المسنّ: - هل أنت السير ليوناردو دافنشي؟

فأجاب: - في خدمتك.

اثنان

– هه، سير ليوناردو، أيّ شرف عظيم أن أراك.

كان واقفاً على قدميه وسط الفناء الفسيح المعروف باسم ساحة السلاح، فأشار لودوفيكو إيل مورو إلى ليوناردو كي يقترب. كان إلى جانبه صاحب السعادة الفارس بيرغونزيو بوتّا، مدقّق الضرائب، وهو رجل نحيف القدّ وجشع الطبع، وكان يحمل كالعادة مجلّداً ضخماً تحت ذراعه.

– في خدمتك يا صاحب السيادة. أجاب ليوناردو بحذر. ولم يكن من السهل عليه أن يفهم سبب استدعاء لودوفيكو. يمكن أن يكون حماسة، كما جرى في اليوم التالي لحفل الجنّة، عندما غطّى زعيم ميلانو ليوناردو بأصناف الثناء والمديح أمام جميع أهل القصر، أو يمكن أن يكون عكس ذلك.

– تعال، اقترب، قال له لودوفيكو بابتسامة سمحة صافية. – أعتقد أيّها السيّد المدقّق أنّ المحاسب قد طلب رؤيتك.

كانت هذه طريقة من الطرق المعروفة حتّى في غير عصر النهضة لدعوة السيّد المدقّق للانصراف بسرعة، لأنّ زعيم ميلانو يريد أن يثرثر مع ليوناردو على انفراد. بعد أن انحنى بيرغونزيو بوتّا بعض الانحناء ونهض بدأ يسير إلى الخلف، ثمّ التفت وتوجّه نحو كنيسة سانتو سبيريتو. بقي لودوفيكو بعدها صامتاً وهو ينظر فيما حوله من غير أن يلقي نظرة على ليوناردو. ثمّ سار ببطء نحو الباب الجنوبيّ الواسع، وأشار إلى ليوناردو كي يتبعه.

– يبدو أنّك يا صاحب السيادة مسرور بشكل خاصّ هذا اليوم، – غامر ليوناردو بالقول وهو يحاول سبر مزاج الرجل الذي يعطيه الراتب.

– أنا كذلك يا ليوناردو، أنا كذلك، أجاب لودوفيكو وهو ما زال يبتسم وما زال يمشي. – وهل تعرف لماذا؟

– أرجوك أن تتكرّم يا صاحب السيادة وتضعني في مجرى الأمور التي كانت سبباً في سرورك.

أجاب إيل مورو: – إنّه ليس سرّاً. لم يعد كذلك. إنّ الإمبراطور ماسّيميليانو داسبورغو سيشرّفنا بالزواج من حفيدتي الحبيبة بيانكا ماريّا خلال أعياد الميلاد المقدّسة. وهكذا فسينضمّ آل سفورتسا إلى الإمبراطور يا سير ليوناردو.

هكذا إذاً. منذ أشهر ولودوفيكو يحاول أن يدبّر زيجة بيانكا ماريّا سفورتسا بماسّيمليانو داسبورغو، إمبراطور الإمبراطوريّة الرومانيّة المقدّسة، ويغريه بعروض متواصلة من الصداقة، وخاصّة بمهر كبير، مخيف بالفعل. ويجري الحديث بين حاشية القصر عن أربعمئة ألف دوقيّة، أي أكثر من نصف العائدات السنويّة لإمارة الدوق. وللتشبيه نقول إنّ هذا يعني كما لو أنّ وزير الاقتصاد الحالي يعد رئيس الولايات المتّحدة الأميركيّة بتزويجه ابنته على مهر يقدّر بنصف العائدات الضريبيّة لكلّ شبه الجزيرة الإيطاليّة، أي بمبلغ يقدّر بالمليارات.

– سنسافر يا سير ليوناردو مع موكب العرس في أوائل تشرين الثاني. ولن يكون من الصعب علينا بالتأكيد تنظيم رحلة العروس، ولا تجميع أغراضنا وجواهرنا وتابعينا هنا في القلعة، لا بل سيكون ذلك سهلاً للغاية. هل تعرف لماذا؟

– أخْ، أخْ.

كان لودوفيكو إيل مورو قد تلقّى تعليماً على أعلى مستوى بالنسبة إلى سيّد من ذلك العصر، لكن من غير أيّ تركيز على الفلسفة اليونانيّة.

ومع هذا فكان يبدو أنّه قد تمكّن من أن يتمثّل بلا مشاكل تقنيّات الجدل لدى سقراط التي تسمح باستصدار الجواب المرغوب به من فم المُحاوِر بطريقة بسيطة أي بالتضييق عليه. لذلك فقد كانوا يقولون في القصر إنّه عليك أن تحذر عندما ترى أنّ إيل مورو بدأ بطبع القبل على رقبتك، لأنّه يكون قد أخذ برفع ردائك من الخلف.

- لا، يا صاحب السيادة. مكتبة سُر مَن قرأ

فقال لودوفيكو وهو يفتح ذراعيه ليشير إلى ساحة السلاح التي تحيط بها القلعة: - لأنّ لدينا هذا القصر الرائع تحت تصرّفنا، هذا الفناء الرائع الفسيح الكبير الواسع. وعندما وصل لودوفيكو إلى الباب، باعد بين يديه وأشار إلى الفسحة الضخمة الممتدّة أمام الجسر المعلّق، وقال: - وأمامنا أيضاً كما ترى ساحة أوسع وأكبر، سوّيت على التمام والكمال، ومازالت خاوية، خالية من الزخارف والزينة. أي فارغة تماماً يا سير ليوناردو.

وهنا حوّل إيل مورو نظره عن الساحة ونقله ليضعه على ليوناردو. كان فمه يبتسم، لكن ليس عينيه.

كانت قد انقضت أربع سنين على قيام لودوفيكو بتكليفه رسمياً بالمهمّة التي تفاخر ليوناردو أنّه سينجزها بأفضل ممّا يمكن لغيره أن يفعل. كما مضت عشر سنين على يوم أقسم أنّه قادر على ذلك.

فقبل عشر سنين تقدّم ليوناردو إلى لودوفيكو إيل مورو برسالة طويلة أكّد فيها أنّه قادر على التصميم والنسف وحفر أنهار وقنوات تحت الأرض وبناء قلاع لا يمكن غزوها، ولم يشر إلّا في نهاية الرسالة المذكورة إلى أنّه يجيد الرسم أيضاً. كان هذا معروفاً من قبل، خاصّة أنّ دافنشي قد استدعي إلى ميلانو بصفته موسيقيّاً وعازف قيثارة يدويّة من اختراعه. لكنّ عبارة معيّنة أثّرت بلودوفيكو إيل مورو على وجه الخصوص.

لا بدّ أن أجيد تنفيذ حصان برونزيّ يعبّر عن الأمجاد الخالدة والشرف الأبديّ لذكرى أبيكم وجميع آل سفورتسا.

سرعان ما تمّ ترجمة هذا الوعد إلى تكليف من القصر، فتمكّن ليوناردو بموجبه من حيازة منزل ومكتب بطابقين في القصر القديم قرب كنيسة الدوّمو، حيث تمكّن من العمل والحصول - نظريّاً - على راتب معتبر. لكنّ ذلك الوعد انصبغ عبر السنين بألوان التبجّح، ذلك على ما ظنّه البعض، ومن بينهم إيل مورو بالذات.

واستأنف إيل مورو حديثه وهو يحدّق بليوناردو: - انقضت ثلاث سنوات على تأكيدك أنّك أعدت الروح والجسد لتصميم النصب في ذكرى السيّد الوالد. وقد أكّدت لي عدّة مرّات أن النصب أصبح في مرحلة التنفيذ حتّى إنّي سارعت إلى تفريغ وتسوية هذه الفسحة الواسعة تجاه القلعة حيث نقف الآن.

- أنا سعيد بإخبار سيادتك أنّ النموذج الطينيّ للحصان أصبح شبه جاهز، ويمكن أن يعرض في نهاية الأسبوع القادم في هذه الساحة بالذات.

رفع لودوفيكو حاجبه وقال: - النموذج الطينيّ؟ هل تقول هذا جادّاً؟

- النموذج الطينيّ بالحجم النهائيّ يا صاحب السيادة. أي بارتفاع سبعة أمتار، وهذا ما لم يسبق أن اقترب أيّ نصب فروسيّ من هذا الحجم ارتفاعاً وسؤدداً. أقسم أنّه سيتمّ عرض النموذج هنا في أقلّ من عشرة أيام.

- أوه، لكنّ هذه قصّة رائعة حقّاً. ممتاز، خارق. وأخبرني، هل في نيّتك تكريم السيّد والدي وتخليده بنصب مصنوع من الفخّار، أو أنّك تريد تجاوز ذلك لتضع عليه أيضاً معطفاً جميلاً من البرونز؟ لسنا هنا أيّها المعلّم ليوناردو في منطقتك أي توسكانا التي تعانقها الشمس، فأنت تعرف أنّنا نتجمّد هنا في ميلانو، ولا أريد أن يصاب السيّد أبي بالبرد وهو بلا غطاء من معدن.

لم يكن لودوفيكو إيل مورو غبيّاً، وكان يعرف حقّ المعرفة أنّه ليس من السهل أن نغطّي بالبرونز السائل شيئاً بارتفاع سبعة أمتار. لكنّنا لا نعني بهذا أنّه يعرف مقدار الصعوبة الفنّية والهندسيّة في ذلك الأمر، لكن وببساطة أنّه يعرف صعوبة صنع أشياء من البرونز تكون خفيفة ومقاومة

في الوقت نفسه. ولابدّ أنّ إيل مورو كان يتصوّر المدافع في هذا الصدد. فالجيش الفرنسيّ كان على دراية بصنع المدافع، أمّا هو فلا.

- في الوهلة الأولى فكّرت يا صاحب السيادة بصبّ البرونز السائل في قالب الحصان بعد قلبه رأساً على عقب، أي مستلقياً وقوائمه نحو الأعلى. ستسمح هذه الطريقة بحلّ مشكلة فقاعات الماء التي تتحوّل إلى هواء بسبب الحرارة الشديدة، فتنطلق إلى الخارج وهي تفقس وتثور على سطح البرونز، نظراً...

- يبدو لي أنّها فكرة رائعة. إذا أحسنت الفهم فإنّ بخار الماء يخرج من القوائم، فلماذا لا تنفّذ الفكرة؟

- لقد فهمت الفكرة تماماً يا صاحب السيادة. لكنّ مدينتكم الجميلة ليست باردة ورطبة فوق الأرض فقط، يا صاحب السيادة، بل وتحت الأرض أيضاً.

- ماذا تعني؟

- أعني أنّه إذا حفرنا حفرة لنضع فيها قالب الحصان، فإنّنا سنجد فجأة يا صاحب السيادة طبقة المياه الجوفيّة التي تجري تحت ميلانو. إنّ حصاناً من لحم ودم يعرف كيف يسبح، أمّا حصان البرونز فإنّ الماء سيضرّ به كثيراً.

نظر إيل مورو للحظة إلى ليوناردو بعينين من جليد. ثمّ تقلّص فم إيل مورو بعد ذلك بقليل ليعبّر بعدها بثانية عن ابتسامة.

قال إيل مورو وهو يلتفت نحو الساحة: - ليوناردو، أنا أحترمك كثيراً، وأنت تعرف ذلك. أحترمك كمهندس، كرسّام، كمصمّم أزياء، وأحترمك، أخيراً وليس آخراً، بسبب نكاتك ومجاملاتك.

- إنّك طيّب جدّاً يا صاحب السيادة...

- بدأت أفكّر بذلك. لو لم أكن طيّباً جدّاً لرميت بك وسط الطريق.

- قال لودوفيكو بجفاء بينما كان يطلّ ببصره على قوس القلعة من حيث كان يخرج شابّ أشقر، بدا رغم أنّه ما زال بعيداً شابّاً رائعاً جميل القوام

من أولئك الذين كان المعلّم ليوناردو يعجب بهم، كما كان يقال همساً وثرثرة. - هه، هذا هو الكونت غالياتسو قد أتى. لكن أخبرني كيف تسير الأمور في تلك القضيّة الأخرى؟

قال لودوفيكو هذه الكلمات الأخيرة بلهجة عدم اهتمام وبصوت منخفض.

فلفظ ليوناردو جوابه تمتمة هو أيضاً:

- كلّ شيء على ما تحبّ وترضى.

- حسناً، حسناً، قال لودوفيكو وقد عاد إلى صوته المعتاد. - قلت إذاً عشرة أيّام. سأعتبر هذا عهداً منك.

- أتوجّه بتحيّاتي إلى سيادتك.

- تحيّاتي لك يا غالياتسو. كيف هي أحوال المحبوبة بيانكا؟

فأجاب غالياتسو سانسيفيرينو: - إنّها بروعة العنقاء وأجمل. لقد أصبحت الآن امرأة تقريباً. قال ذلك وهو يتأبّط ساعد حميه في لفتة قديمة تعني «لا أحمل سلاحاً في يدي في الوقت الحالي».

لم تكن تلك اللفتة ضروريّة بين الاثنين. لكنّ غالياتسو سانسيفيرينو وقف في زمن الحرب بين ميلانو والبندقيّة إلى جانب إيل مورو وضدّ روبرتو أي أبيه بالذات. وهذه أمور لا يمكن أن تنسى. وقد وثق لودوفيكو بغالياتسو بشكل زوّجه فيه بابنته الشرعيّة الأولى بيانكا جوفانّا التي كانت قد أتمّت منذ وقت قصير أحد عشر عاماً. ولا يعتبر قوله «أصبحت الآن امرأة تقريباً» أنّ غالياتسو هو شاذّ يحبّ الأطفال، لأنّ من هو بعمر أحد عشر عاماً كان يعتبر في ذلك الزمان شخصاً ناضجاً في كثير من الأمور، بما فيها الإنجاب إذا سمحت الطبيعة بذلك.

وواصل غالياتسو حديثه قائلاً: - أمّا أنت فتبدو قلقاً يا لودوفيكو، وانتقل بذلك من مخاطبته باللهجة الرسميّة إلى لهجة الودّ نظراً لعدم وجود أشخاص آخرين معهما.

- ذلك حالي دائماً يا غالياتسو.

- لم تكن كذلك قبل اجتماعك بالمعلّم ليوناردو.

نظر لودوفيكو إلى صهره، فجابه هذا نظراته بطلاقة.

كان غالياتسو سانسيفيرينو من الأشخاص الذين يبدو أنّهم أخذوا كلّ شيء مهراً من والديهم عدا الاسم. من ناحية الجمال كان جميلاً، وهذا ما كان يعرفه الجميع. وكان قويّاً وشجاعاً، على عكس لودوفيكو، وهذا ما كان يلاحظه جميع أهل ميلانو الذين حضروا حفل البطولة الكبير الذي أقيم للاحتفال بزواج لودوفيكو من بياتريشِه دي إيست، حيث تمكّن غالياتسو من تحييد أو طعن أو تحقير كلّ خصومه بعد أن كسر اثني عشر سهماً من سهام العدوّ الاثني عشر بسهولة يحقّ أن نسميّها مخيفة.

كان غالياتسو ذكيّاً بالفعل أيضاً أو مثقّفاً، ويكفي للتأكّد من هذا التحدّث إليه قليلاً. لكنّ غالياتسو سانسيفيرينو كان يتمتّع وقبل كلّ شيء بإمكانيّات دبلوماسيّة غير عاديّة، وهذا ما لا يعرفه إلّا إيل مورو وقليلون آخرون. كان الصهر الذي يحلم به كلّ أب لابنته على شرط أن يعيش في أواخر القرن الخامس عشر وبغضّ النظر عن عيب صغير يتعلّق بالاسم. فغالياتسو كان ابناً لقائد مرتزقة ومن الصعب معالجة بعض مشاكل الولادة.

ولم يكن في ميلانو رجلان متفاهمان أكثر من غالياتسو ولودوفيكو. فكلاهما كانا يحاربان من أجل كسب لقب لم يحظيا به عند الولادة، لكنّهما على قناعة باستحقاقه على قدراتهما.

- معك حقّ. إنّي خائف يا عزيزي غالياتسو ألّا أرى هذا النصب الفروسيّ اللعين. فضلاً عن أنّ أحاديث المعلّم ليوناردو خلت من أيّ إشارة إلى أبي. فهو لا يتحدّث إلّا عن «الحصان» فقط. أمّا عن فرانشيسكو سفورتسا وهو على ظهره فيبدو أنّه أمر يكاد يكون ثانويّاً.

- إذا كنت تخشى على الفارس فبوسعي أن أطمئنك. ألا تذكر كيف وضعني المعلّم ليوناردو على الصهوة؟

فقال لودوفيكو مبتسماً: - ما زلت مندهشاً كيف تمكّنتَ من الثبات على السرج رغم تلك الأفعى المجنّحة التي تخرج من وراء خوذتك...

ابتسم غالياتسو. فالدخول إلى حلبة المباراة بدرع عليه قطع ذهبيّة كان من أشدّ لحظات حياته غرابة رغم أنّها توّجت بالنصر. كما أنّ خوذته كانت تزن وحدها ربّما مئة رطل، وكانت تبدو مثل حيوان زاحف مجنّح بسبب الذيل الذي كان يخرج من الجزء الخلفي من حدبتها لينطلق بشكل حلزونيّ وعريض في الهواء قبل أن يلمس ظهر الحصان.

- الواقع أنّ قوائم الثعبان كانت تستند إلى مقعدِ حصاني، أي أنّ الحصان بالذات هو الذي كان يسند رأسي. كلّ شيء متوازن. لأنّ ليوناردو معلّم في هذا النوع من الأمور.

فأجاب لودوفيكو بنوع من التشكيك: - قد يكون هذا صحيحاً. نحن مطمئنّون إذاً من ناحية الفارس، لكن ماذا عن الحصان...

- لقد أمضى شهوراً في حظائري وهو يدرس حصاني الصقلّانيّ الأصيل. لقد أخذ مقاسات كلّ أطرافه.

تضاحك لودوفيكو وقال: - كلّ أطرافه؟ بما أنّي أعرف المعلّم ليوناردو فأظنّ أنّه قد تمهّل بسرور وتلذّذ في دراسة بعض الأطراف أكثر من غيرها.

فقال غالياتسو جاداً: - إنّ ليوناردو يعرف يا لودوفيكو كلّ ما يفعله.

فأجاب لودوفيكو وقد تقتّم وجهه بل كلّه: - أجل، لكنّ المشكلة أنّه لا يفعل ما لا يعرفه، لا يهمّني أنّه يعرف نحت حصان جميل، لكنّي أشكّ أنّه قادر على صَهره. ولقد علمت أنّه تحدّث إلى كبيري خبراء هذا الفنّ، مثل سانغيلّو والمهندس فرانشيسكو جورجو وأنّهما أبديا شكوكهما في هذا الشأن. أمّا الفرنسيّون فأولئك نعم. لا أحد يتفوّق عليهم في فنّ الصهر.

- وفي هذا فقط، أجاب غالياتسو بحذر وقد عرف أنّ أفكار إيل مورو أخذت تتّخذ منحى آخر.

- لكنّ هذا يكفي ويزيد يا غالياتسو. أجاب إيل مورو بجفاء.

بقي الاثنان بعدها صامتين، كأنّ جداراً من زجاج قد انتصب بينهما، وهذا محض افتراض، لأنّه لم يكن من المستطاع وقتها تصنيع الواجهات الزجاجيّة، وإلّا ما كانوا ليسدّوا النوافذ بستائر منقوعة بزيت التربنتين. لكن وإن كان الصمت يفصل بين الاثنين، فإنهما كليهما كانا يفكّران في الأمر نفسه.

لا يهمّ أن يكون تحت تصرّف المرء فرسان أقوياء وشجعان مثل غالياتسو سانسيفيرينو، أو فرسان سكارى يرتمون في المعارك بلا وعي ولا إدراك، إذا كان أمامه بطّارية مدافع قادرة على تمزيق العدوّ إلى أشلاء متناثرة. هذا إذا لم نأخذ بعين الاعتبار أنّ إيل مورو لم يكن لديه فرسان كالمذكورين.

في زمن الكومونات والمقاطعات الإيطاليّة كان هناك لغز مخيف، عبارة عن مدن وقلاع وحصون تقضي أوقاتها بشن الحروب بعضها على بعض، ونادراً ما كان المواطنون والفلاحّون يشاركون في تلك المعارك، إلّا عندما يلعبون دور الضحيّة. لم يكن لدى أيّ مدينة جيوش نظاميّة مؤلّفة من رجال وطنيّين مخلصين مستعدّين للتضحية بحياتهم من أجل أرض مولدهم الطاهرة. لذلك فقد كان يعهد بالحروب بالكامل إلى فرق من المرتزقة وإلى رؤسائهم، إلى أشخاص مثل الإنكليزيّ جون هوكوود المعروف باسم جوفانّي آكوتو وهو أحد كبار المحاربين المرتزقة لمصلحة الغير. أجل، ونصب الفروسيّة لابدّ أن يليق بأفعال مثل هذا الشخص، ولو كان بارتفاع سبعة أمتار أيضاً. (لكن تجب الإشارة إلى أنّ العمل المسمّى نصب الفروسيّة على شرف جوفانّي آكوتو ليس في الحقيقة إلّا لوحة آفريسكو من الرسوم الجداريّة التي رسمها باولو أوتشيلّو[7] في كنيسة سانتا ماريّا ديل فيورِه، ولم يتعدّ فيها البعد الثاني).

كان هذا المعلّم الإنكليزي يجيب عندما يبادرونه بتحيّة «السلام عليكم»

7- باولو أوتشيلو Paolo Uccello (1397-1475) وهو رسام وعالم رياضيات من مدينة فلورنسا، عرف بعمله الرائد في الرسم المنظوري المرئي في الفن. كتب جورجو فازاري في كتابه حياة أمهر الرسامين والنحاتين والمهندسين المعماريين أن أوتشيلو كان مهووسًا باهتمامه بالرسم المنظوري وأنه كان يفضل البقاء مستيقظًا طوال الليل لمعرفة تحديد نقطة التلاشي. (م) عن ويكيبيديا

يجيب «أرجو ألّا يحدث ذلك، وإلّا بقيت عاطلاً عن العمل». ولم يكن في هذا شيء من السخرية، بل كان احترافيّة. لم يكن لدى هذه الفرق من المرتزقة أو لدى رؤسائها أيّ رغبة في الموت في ساحة الحرب، بل كانت الحرب سبيلاً لهم لكسب العيش. فهم يحترفون المهنة العسكريّة وليسوا أبطالاً. كما أنّ المعارك والحروب بين الكومونات كانت تنتهي أغلب الأحيان بنوع من المناوشات. أمّا أشدّ أنواع العنف فكان من نصيب أهالي البلدات المهزومة، لأنهم كانوا يسرقونهم ويذبحونهم ويغتصبونهم من غير أن يستطيعوا ردّ ذلك ولا مقاومته. ومن الواضح أنّ مرور عشرات السنين عليهم وهم يتمازحون فيما بينهم وينفّسون عن أنفسهم على حساب الناس العزّل، أضعف تلك القوّات التي كانت تجوب إيطاليا بلا حوافز تشجّعها ولا تجد خصوماً مؤهّلين فكانت تعدّل مستوياتها لتنحطّ إلى أسفل فأسفل.

كل هذا على عكس الجيش الفرنسيّ الذي كان مؤلّفاً قبل كلّ شيء من فرنسيّين. فلا بلقان ولا دالماطيّين ولا هولّنديّين ولا مرتزقة من أيّ نوع، بل أذرع متينة لشجعان من مواطني صاحب الجلالة المسيحيّة الكبرى شارلز الثامن، الذين يتقاسمون معه اللغة والأهداف. من ناحية ثانية بدأ رؤساء المرتزقة يتنعّمون وتحوّل أولادهم في بعض الحالات إلى سادة أو دبلوماسيّين، بينما بقيت الرافعة الاجتماعية في تلك الفترة معطّلة في فرنسا، فكان الجنود الفرنسيّون جنوداً وبقوا كذلك، أي جنوداً مدرّبين على قتل أتباع الآخرين عندما يجدونهم أمامهم وليس لوضعهم في مؤخّرة تابعهم.

قال إيل مورو بعد صمت طويل: - علينا أن نعرف المزيد عن نوايا الفرنسيّين، لقد مرّ وقت طويل على انتظارنا.

- من المؤكّد أنّي ما زلت أنتظر منذ وقت طويل! - قال الرجل الصغير الذي لا يرتدي سوى جوربه وقميص نوم. - أين هي وجبة إفطاري؟

فسارع الدوق دو كومّين في القول وهو يتوجّه نحو الباب: - سأسرع في الحال لأستعجل بها يا صاحب الجلالة.

فأجاب صاحب الجلالة وهو يرفس غطاء السرير ويرفس معه امرأة شبه عارية عليها مظهر المومس: - لقد حان وقت ذلك أيّها الدوق. وأنت ارتدي ملابسك وانصرفي، علينا أن نتحدّث بأمور جادّة الآن.

أجابت المرأة بطريقة سوقيّة تفصح عن أنّها مومس وأنّ هذه هي مهنتها بالفعل: - هيه، ما هذا الأسلوب...

- تمام، إنّك رائعة ما دمت تهتميّن بمهنتك. ثمّ بدأ صاحب الجلالة المسيحيّة الكبرى شارلز الثامن بالنزول عن سريره، ولم يكن هذا أمراً سهلاً عليه لأنّ الفراش يرتفع عن الأرض بحوالي ثمانين سنتمتراً بينما لا تصل ساقاه عندما ينتصب واقفاً إلى سبعين سنتمتراً. - وبما أنّه علينا أن نتكلّم الآن بأمور الحرب والسياسة وأشياء أخرى لا يمكن لك أن تفهمي منها شيئاً فعليك أن ترتدي ملابسك وتنصرفي. أو بوسعك أن تنصرفي وأنت على هذه الحال، على كلّ لست من النوع الذي يخجل. وبما أنّك في الطريق فاسألي عن النهاية التي آلت إليها وجبة إفطاري.

وبقفزة متشنّجة هبط صاحب الجلالة على الأرض.

المشكلة الأولى التي كان يعاني منها صاحب الجلالة المسيحيّة الكبرى شارلز الثامن هي أنّ الجلالة لا توجد إلّا في اسمه. في هذا فكّر الدوق الثاني الحاضر، وهو لويس دي فالوا دوق أورليانز: - ومن المؤكد أنّ الجلالة ليست ولا حتّى في جسمه، فكّر وهو ينظر إلى تلك المجموعة المستحيلة من العظام والشعر التي تسعى لأن تلتحف سرجاً مزيّناً من صوف. كان قصير القامة، أحدب، أنفه مرعب ولحيته عبارة عن خصل متمرّدة من الشعر هي العلامة الظاهرة الوحيدة التي تدّل على شيء من الرجولة. كان شارلز الثامن لا يبدو ملكاً بمقدار ما يبدو مجرّد كرسيّ جمّعوا قطعه بطريقة خاطئة.

قال صاحب الجلالة بمجرّد أن انتهى من ارتداء ذلك السرج من غير أن يختنق فيه، وكانت هذه أخطر مغامرة قام بها خلال حياته: - بوسعنا

الآن إذاً أن نبدأ بالكلام أيّها السادة. لماذا ترتسم علائم عدم الرضا على وجهك؟ كما لو أنّك أكلت ضفدعاً.

فقال دوق أورليانز بعد أن تنحنح وصفّى صوته بالسعال: - أعتقد يا سيّدي أنّه من المفضّل ألّا نشير في العلانيّة وأمام أيّ كائن إلى أنّنا نتكلّم بأمور الحرب. خاصّة أنّ ضيفتك هذه الليلة تتنقّل من مكان إلى آخر وتعاشر كلّ أنواع الناس.

وأضاف الدوق في قرارة نفسه، من غير أن يقول ذلك بفمه: - بمن فيهم أنت.

- أجل، صحيح أيّها الدوق. لكنّ العمل الذي نحن بصدده بطوليّ مجيد بشكل لا أستطيع تحمّل انتظار ساعة حدوثه -. وهنا وثب صاحب الجلالة كالثور ليمسك برمح مرميّ قرب السرير ووجّهه ضدّ عدوّ من صنع خياله. - فكّر قليلاً أيّها الدوق، ما إن أصدر أوامري حتّى يعبر جيشنا جبال الألب كما فعل هانيبال، وسيدخل إلى إيطاليا. عندها ستسمح لنا جميع ممالك إيطاليا بالمرور عبر أراضيها وهم ينحنون لنا انحناء لطيفاً. إنّ البندقيّة وميلانو وفلورنسا تقف على أهبة الاستعداد لتصفّق لمحرّر نابولي ولتساعدنا عندما ندخل إلى إقطاعات آلفونسو داراغونا. إنّنا في طريقنا لغزو نابولي من غير قتال.

وهنا فكّر دوق أورليانز مرّة أخرى في نفسه: - وتلك هي الطريقة الوحيدة التي يمكن لنا أن ننجح فيها.

المشكلة الثانية بالنسبة إلى صاحب الجلالة المسيحيّة الكبرى شارلز الثامن هي أنّه أبله مجنون. - ومن المرجّح أنّ القارئ قد فهم هذا الأمر من تلقاء نفسه وبكلّ وضوح. فهو ضعيف الجسم والعقل، كما وصفه كونتاريني سفير البندقيّة. وبما أنّ ملك فرنسا لم يشارك في عمليّة عسكريّة واحدة خلال حياته كلها، فإنّه لا يعرف أيضاً ما هي الحرب. وكلّ مصادر معلوماته عنها هي الكتب وأشعار الفروسيّة التي تتحدّث عن أبطال وفتوحات وأمجاد وقرون ينفخ فيها فرسان

وهم يحتضرون، وقد استلهم من قراءاته هذه فكرة تقول إنّه هو أيضاً فارس مقدام تنتظره فتوحات مجيدة. لذلك فإنّ كلّ من يملك ذرّة من التجارب العسكريّة، مثلما هو حال دوق أورليانز، سيدرك بكلّ سهولة أنّ صاحب الجلالة المسيحيّة الكبرى سيصبح عندما تنشب حرب حقيقيّة أفضل حليف للأعداء، وذلك سواء في مرحلة التخطيط أو خلال المعركة نفسها.

لكنّ شارلز الثامن، الذي لم يكن يملك أيّ تجربة، كان مقتنعاً على أساس قراءاته أنّه يكفي لإخضاع إيطاليا مجرّد تقرير الأمر ثمّ الانطلاق لذلك، وهذا ما يحدث اليوم أيضاً لكثير منّا، بفارق أنّنا على قناعة أنّ الإنترنت تقوم مقام القصائد والأشعار.

ثمّ استأنف الملك كلامه وهو يجهل ما يدور في خلد الدوق: - أو أنّنا سنكون في طريقنا لغزو إيطاليا إذا انطلقنا لذلك، فماذا ننتظر إذاً أيّها الأسقف الكبير؟

رفع الأسقف بريسونيت دي سان - مالو حاجبيه وتساءل من أين يكون البدء أفضل.

- إنّ المشكلة في الوقت الحاضر يا صاحب الجلالة هي مشكلة المدافع. فهي ثقيلة، وهذا جيّد في وقت الحرب، لكنّه ليس كذلك عندما يكون على القوّات أن تتحرّك. خاصّة أنّه ليس هناك وسائل نقل ملائمة ولا رجال أكفاء بما يسمح بعبور جبال الألب.

- حسناً، فلنصنعها، أجاب الملك في دليل على حسن قدرته على محاكمة الأمور.

- لقد عهدنا بصنعها إلى المعلّم ديبليسّيه، وهي ستكلّف ثلاثمئة دوقيّة على الأقلّ.

- وهل نحن لا نملك ثلاثمئة دوقيّة مليئة بالقمل؟ فلنقترضها إذاً من حليفنا لودوفيكو الذي ضمن لنا مساعدته الواسعة. وذلك على الأرض

كما في التمويل. أرسلوا في طلب السفير بيل جيوسو، هيّا، آه، كان قد حان الوقت. ماذا حلّ بوجبة إفطاري أيّها الدوق؟

- إنّها في خدمتك يا صاحب الجلالة. أجاب الدوق دو كومين وهو يدخل ومن ورائه خدم بثياب العمل يحملون صواني مليئة بالخبز واللحوم المشويّة والقناني. - أرجو ألّا يكون صاحب الجلالة قد وجد الانتظار غير سارّ.

- على الإطلاق أيّها الدوق. بل كنت قد طلبت استدعاء السفير بيل جيوسو لأسأله أن يرسل لنا دفعة ملائمة من سيّده. نحن بحاجة إلى ثلاثين ألف دوقيّة، وهذا لا شيء بالنسبة إلى لودوفيكو إيل مورو. ليس هناك صعوبة، أليس كذلك يا كومين؟

- آمل هذا بحرارة يا صاحب الجلالة. لكنّه من الخطورة بمكان أن نعتبر الأمر مضموناً. فالوضع الماليّ لإيل مورو قد لا يكون مزدهراً كما يبدو. وهنا سعل أيضاً الدوق دي كومين. - وبحسب تقديراتي فإنّ إمارة دوقيّة ميلانو تدرّ حوالي خمسمئة ألف دوقيّة في السنة، وإن كان إيل مورو يرجو أن تحصّل ضرائبه أكثر من ذلك بكثير. أي حوالي سبعمئة ألف بموجب حساباتي.

وهنا كان بودّ دي كومين أن يشرح لشارلز الثامن أنّ هذا الضغط الضريبيّ لا ينمّ عن أنّ صندوق الدوقيّة في وضع سليم، وأنّ هذا الوضع لا يمكن أن يدوم طويلاً. لكنّ صاحب الجلالة المسيحيّة الكبرى قرّر أنّ ما سمعه كان كافياً وليس من الضروريّ سماع أمور أخرى، معبّراً بذلك عن السلوك المعروف عن المجانين حقّاً.

- حسناً هذا رائع، فليحصّلها، فهذا أفضل بالنسبة إليه. وبالنسبة إلينا أيضاً. سأعطي أوامري حالاً إلى بيل جيوسو كي يتقدّم بالطلب. قرّب إليّ تلك الصينيّة، لطفاً أيّها الأسقف.

- كلمة واحدة أيّها الدوق... أخبرني أيّها الدوق.

كان الدوق دي كومين قد وقف في الممرّ مع نظيره دوق أورليانز ثمّ وضع على كتفه يده التي كانت ضمن القفاز. ولم يكن له أن يسمح لنفسه القيام بهذا الأمر في حضرة الملك لولا وجوده في هذا المكان، أي في الحظيرة الملكيّة، حيث بدا الفعل أكثر من مفهوم.

- إنّي بحاجة للتحدّث معك. إنّه أمر في غاية الأهميّة.

- بوسعك أن تتكلّم أيّها الدوق، نحن هنا في أمان.

- تعتريني ريبة أيّها الدوق، شكّ لا يترك نوماً في عينيّ منذ ليال وحتّى اليوم، أي منذ عاد السفير بيل جيوسو.

- وهل أخبرك السفير ربّما بوجود مشكلة ما؟ فلقد علمت أنّ كلّ شيء أصبح جاهزاً.

فأجاب كومين: - لا، ليست هناك أيّ مشكلة. وقد أكّد لي السفير وجود رابط لمصلحتنا، وكرّر من جديد أنّ بوسعنا عبور أراضي دوقيّة ميلانو من غير أن نخشى أيّ خطر على جيشنا. كما تلقّيت اليوم رسالة من مبعوثنا إلى إيطاليا السيّد بيرون دو باش الذي أكّد لي هذه النيّة.

- ليس من مشاكل إذاً.

- ولا مشكلة. لكن هذه هي المشكلة بالذات. فلماذا يتركنا إيل مورو نمرّ باطمئنان عبر أراضيه؟ لدينا جيش متفوّق، ويمكن لنا أن نقلبه في أيّ لحظة.

- ليس هذا في نيّتنا الآن. فأهدافنا وأهداف إيل مورو متوافقة. فكلانا نريد طرد الآراغون من نابولي.

استطرد كومين حديثه وهو يفكّر: - يريد صاحب الجلالة أن يطرد الآراغون من نابولي ليأخذ مكانهم. لكنّ صاحب الجلالة لن يقود القوّات، لأنّك ستقودها أنت أيّها الدوق، وهذا ما يراه إيل مورو أمراً مؤكّداً.

التفت دوق (أورليانز) نحو دوق (محلّة أخرى).

لم يكن سرّاً خفيّاً على أحد أنّ لويس دي فالوا دوق أورليانز يغذّي مطامع حول دوقيّة ميلانو، وذلك بحكم نسَبه وهو حفيد فالنتينا فيسكونتي القريبة المباشرة لحكّام دوقيّة ميلانو الحقيقيّين الذين استولى آل سفورتسا على أهليّتهم. وإذا خيّر دوق - أورليانز، وأستميح العذر عن تكرار الاسم لأنّ كلّ واحد هنا دوق، أي فوضى في فوضى - في فعل ما يريد أن يفعله، فلا شكّ أنّه سيقرّر الزحف على ميلانو على رأس جيش يحرّر المدينة من المغتصب ويترأّسها عوضاً عنه. خاصّة أنّ دوقيّة أورليانز غنيّة جدّاً ومزدهرة بشكل يشتهيها الجميع.

لكنّ دوق أورليانز لم يكن حرّاً في أن يفعل ما يروق له، بل كان عليه أن يطيع الملك. مليكه. أي ذلك الأبله والأحمق الذي سبق لنا أن تكلّمنا عنه، الذي لن يكون بمقدوره أن يستولي ولا على حجرة دورة مياه، وليس على مملكة.

لماذا لم يكن إيل مورو يخشى هذه الإمكانيّة؟

فقال كومين موضحاً أفكار الدوق (أحد الدوقين، وقرّروا أنتم من منهما): - إن إيل مورو يملك كلّ الأسباب التي تجعله يخشى وجودنا المسلّح على أراضيه، ومع هذا فإنّ كلّ المظاهر تدعو للظنّ أنّه لا يخاف منّا. وأنا أخشى ألّا تكون ثقته نابعة عن الدبلوماسيّة ولا عن التمويل.

- عن ماذا إذاً؟

- هناك في خدمة لودوفيكو رجل عبقريّ اسمه ليوناردو. ليوناردو بن سير بييرو دافنشي.

- سمعت الكثير عنه، يبدو أنّه رسّام ماهر.

والحقيقة أنّ دوق أورليانز كان يعرف حقّ المعرفة من هو ليوناردو. بل إنّه التقى به أيضاً. لكن أن يظهر المرء جاهلاً أكثر ممّا هو في الحقيقة يبقى أمراً أساسيّاً بالنسبة للدبلوماسيّ.

- أنت سمعت عنه، أمّا أنا فقد رأيت إبداعاته. فهو ليس رسّاماً فقط،

بل ومهندس ومخترع أيضاً لآلات حربيّة. فقبل سنتين رأيت مبارزة قاتل فيها غالياتسو سانسيفيرينو وهو يرتدي درعاً من ذهب كانت خوذته فقط صدّقني تزن أكثر من الشخص الذي كان داخل الدرع، ومع ذلك فإنّه كان يتحرّك فيها كأنّه ريشة. وقد أخبرني أكثر من شخص أنّه كانت داخل الدرع نظم معقّدة جدّاً من الروافع والبكرات تعمل على تعظيم قوّة الفارس. وقد حكى لي شخص عمل في مخبره عن قاصفات تتحرّك مثل السلاحف، كما عن اختراعات مماثلة... فماذا تخشى أيّها الدوق؟

حدّق دوق كومين مباشرة بعينيّ زميله في النبل.

- يقال إنّ المعلّم ليوناردو قد اخترع وسيلة تجعل الدرع يقاتل من غير أن يكون فيه فارس. ذلك من خلال توفير الزخم والقوّة بواسطة نوابض ضخمة موضوعة في صندوق الصدر، وهي التي تحرّك الآليّات. لا أعرف إذا كان هذا صحيحاً. ولا أعرف إذا كان قد طوّر وصمّم حقّاً أسلحة أخرى أشدّ رهبة، لكنّي لا أستبعد الأمر. وإذا رأيت سانسيفيرينو وهو يقاتل لفهمت في الحال ما أعنيه. فهو لم يكن يتحرّك كالبشر، كان فيه شيء خارق للطبيعة. وسيكون من الخطر للغاية خوض الحرب مروراً بأراضي عدو لا نعرف أسلحته.

بينما كان كومين يتكلّم، بدأ ذهن دوق أورليانز في العمل كأنّه طاحونة على نهر خلال الفيضان.

حقّاً، لابدّ أنّ هناك خطورة في عدم معرفة أسلحة العدوّ. لكنّه سيكون من الروعة بمكان امتلاك هذه الأسلحة بالذات. وإذا كانت سرقة الأسلحة أمراً خطيراً وصعباً، فإنّ سرقة تصاميمها هي أقلّ من ذلك بكثير.

ثمّ إنّ المعلّم ليوناردو لم يكن يصنع. لأنّ المعلّم ليوناردو كان يصمّم فقط. كان قبل كلّ شيء يرسم، ويحسب، ويقيس، وذلك بدقّة ووضوح لم ير لهما مثيل من قبل.

لقد رأى الدوق بأمّ عينيه تصاميم المعلّم الفلورنسيّ، وانبهر بها، وهو يظنّ أنّ صنع أيّ جهاز بناءً على تلك التصاميم سيكون أسهل بكثير من

سرقة جهاز كامل. فليسرق إذاً واحداً من تلك التصاميم، أو كلّ تلك التصاميم. وأن يكون لدى ليوناردو دفتر سرّي، فلا شكّ في هذا. خاصّة أنّ جميع علماء الرياضيّات والمهندسين كانوا في ذلك الوقت يملكون مثل ذلك الدفتر. كان هذا نوعاً من الإجازة وسبباً من أسباب الثروة. إذا كشفوا عمّا فهموه من تلقاء أنفسهم، وبعد سنوات من الدراسة، فلن يكونوا هم وحدهم من يعرف صنع ما صنعوه. إنّها مشكلة المعرفة العلميّة: إذ يمكن للجميع أن يربحوا من جرّاء استخدامها بمجرّد أن يفهموها.

– معك حقّ، علينا أن نستفهم أكثر. فماذا يقترح دوق كومين؟

أجاب دو كومين: – هناك اثنان من رجالي المخلصين روبينوت وماتّينيه يعملان مع بيرون دي باش، وهما يتجوّلان في إيطاليا معه. يمكن لنا أن ندرّبهما على استخلاص المعلومات. – أشجّعك على فعل هذا. – أيّها الدوق... – تكلّم.

– سيكون من الأفضل ألّا يعرف أحد غيرنا بنوايانا هذه، ذلك كي لا نعرّض للخطر نجاح العمليّة.

– لكنّه عليّ أن أخبر من كلّ بدّ بيرون دي باش، وإلّا فإنّه سيرتاب.

– حسناً، أخبره، لكن هو وهو وحده.

ثلاثة

– رائع، بالفعل. قل ما شئت، لكن إذا أردت تذوّق اللحم كما يجب فيكفي أن تضعه على النار.

وضع آتشيرّيتو بورتيناري يده اليمنى على الطاولة، باطنها أوّلاً ثمّ ظاهرها ثانياً، وذلك ليحاكي تقليب شريحة اللحم التي كانت يده تشبهها بالفعل.

– دقيقة من هذا الطرف ودقيقة أخرى من الطرف الثاني، وهكذا. وليس كما يفعل هؤلاء المتوحشّون من أهل ميلانو حين يتركونها على النار أكثر من ساعتين. إنّهم يعذّبونها كما لو أنّهم يريدون حملها على الاعتراف ومن يدري بأيّ خطيئة. أمّا نحن أهل فلورنسا فنعرف، والأشياء الجيّدة تعمل الطبيعة على جعلها كما يجب، والخطيئة هي إفسادها.

وضع آتشيرّيتو بورتيناري السكيّن قرب الطبق الذي أصبح فارغاً ونظر إلى ليوناردو بابتسامة جميلة رسمها على وجهه الممتلئ والمسرور.

– أوافقك الرأي – أجاب ليوناردو وهو يبتسم ويضع الملعقة بدوره قرب صحنه الذي بقي مليئاً إلى النصف، لكن بالخضار فقط، على عكس صحن بورتيناري. – ويسعدني أن أرى أنّ طبخ كاترينا قد أعجبك. إذا أردت التفضّل بتذوّق شيء من الهندباء...

– لا، شكراً أنا لا آكل من الأرض. لا يحتاج الإنسان العاقل إلّا اللحم والنبيذ، أمّا ما تبقّى فهو لإسعاد الطبيب. أمّا أنت، أيّها المعلّم ليوناردو، فكيف يمكن لي أن أجعلك سعيداً؟

نظر آتشيّريتو بورتيناري بعينيه الخنازيريّتين إلى ليوناردو، وكانتا تبرقان في وجهه البدين.

في نهاية القرن الخامس عشر كانت البدانة أمراً رمزيّاً، أي أنّ المرء يمكن أن يأكل كلّ يوم أكثر من اللازم، لكنّ القليل من الحريرات المبلوعة يتحوّل إلى عمل يدويّ. والواقع أنّه لم يتوجّب على آتشيّريتو بورتيناري طيلة حياته أن يبذل كثير جهد كي يضمن معيشته. فهو كان في البداية أخاً لبيدجيلّو ممثّل بنك دي ميديشي في ميلانو، ثمّ خليفة له عندما انتقل الأب إلى حياة أفضل.

أجاب ليوناردو بنصف ابتسامة وقال: - بقيامك بعملك يا سيّد آتشيّريتو.

أصبحت ابتسامة آتشيّريتو عريضة وديّة وهو يقول: - هل لديك أموال للاستثمار؟ هذا خبر رائع. وأمامك الرجل المناسب. بنك دي ميديشي أمامك في صورة شخصي المتواضع.

طمأنت الإشارةُ إلى بنك ميديشي قلبَ ليوناردو. فبعد أن مات أخوه بيجيلّو عانى آتشيّريتو كثيراً من مشاكل الملاءة. بل إنّ لورينزو دي ميديشي قرّر في لحظة ما إغلاق فرع البنك في ميلانو، وتمّ وضع قصر بورتا كومازينا الفخم بالمزاد العلنيّ ببوّابته المحفورة والمزيّنة وبكلّ رسومات الفنّان فوبّا[8] الجداريّة. غير أنّ الحظّ عاد واستدار في لحظة ما، فوجد آتشيّريتو مموّلين جدداً بينهم شخص يدعى جوفانّي بورتيناري ليس فيه أمر مشترك معه إلّا اللقب وكان يعرفه ليوناردو أيضاً، وهكذا فقد استأنف عمله القديم الذي كان يعمل به أبوه أيضاً. فكان يقرض الأموال ويستثمر ويصرف رسائل الاعتماد فأظهرت كثير من التفاصيل أنّ الأمور تجري معه على أحسن ما يرام.

8- فينشينزو فوبّا Vincenzo Foppa (1427-1515) رسام إيطالي من كبار فناني عهد النهضة ومعلمي مدرسة لومبارديا، أمضى حياته في خدمة سلالة آل سفورتسا. (م)

ثمّ تابع آتشيرّيتو كلامه: - أصبحنا الآن من أكثر المصرفيّين شهرة ولا أقول هذا للتبجّح، بل نحن تحت تصرّفك يا سير ليوناردو. يرتبط الأمر طبعاً بالمدّة التي تريد أن تسترجع أموالك خلالها، إذ يمكنني أن أعيدها إليك وقد أضيف إليها عشرة بالمئة إذا كنت تريد استرجاعها بعد ستّة أشهر. أمّا إذا صبرت عليها عاماً كاملاً فيمكن أن نتّفق على اثني عشر بالمئة.

- وماذا إذا كنت أريدها مباشرة؟

- مباشرة؟

- لا أنوي أن أعهد إليك بنقود منّي، بل أريد يا سير آتشيرّيتو أن أطلب منك قرضاً.

- هه.

كان ليوناردو على الأرجح أفضل رجل في العالم قادر على تقييم التعابير البشريّة، لكنّ هذه العبقريّة لم تكن ضروريّة لفهم موقف من كان يشاطره الطعام، ولا أقول إنّ فنّاناً مثل بوتيشيلّي[9] كان يكفي لذلك، بل حتّى أيّ تلميذ من تلاميذه كماركو دودجونو على سبيل المثال. فهذا أيضاً سيكون قادراً على معرفة أنّ تعابير وجه آتشيرّيتو بورتيناري كانت تدلّ على خيبة أمله الكاملة. يقال أيضاً إنّ ليوناردو هو الوحيد بين المذكورين الذي كان يستطيع رسم تلك التعابير بفعّالية، لكنّ هذا لم يكن ضرورياً في تلك الآونة.

قال ليوناردو في محاولة لتمرير أسس العمل إلى بورتيناري: - لقد قيل لي إنّك تقدّم قروضاً بالفائدة، حتّى بمبالغ كبيرة.

- هذا صحيح يا سرّ ليوناردو.

- أعرف أنّك أقرضت سيدّنا لودوفيكو مبلغ عشرة آلاف دوقيّة في هذا

9- ساندرو الملقب بُوتِتْشِيلّي Sandro Botticelli (1445-1510) عاش في فلورنسا ومن أشهر رسامي عصر النهضة. (م)

العام الجاري. تأكّد أنّي لن أطلب منك مثل هذا المبلغ، إذ يكفيني مبلغٌ صغير أستطيع أن أتدبّر به أمري حتّى نهاية العام، عندما ستصلني دفعات مختلفة. وما زال لي لدى الأخويّة ألف ومئتا لير من أجل لوحة...

– هل هي اللوحة التي تسمى *عذراء الصخور*؟ لقد رأيتها، إنّك عبقريّ يا سير ليوناردو.

– أشكرك. لكن ألا ترى أنّ العباقرة يأكلون الطعام أيضاً، وكذلك تلامذتهم، هذا إذا لم نتكلّم عن أمّهاتهم.

– إذاً فصحيح ذلك الذي يقال من أنّ كاترينا هي أمّك، تلك التي طبخت لنا هذا اللحم الرائع؟

فقالت المذكورة وهي تدخل عليهما: – كما هو صحيح أنّ المسيح مات على الصليب. – لحم رائع بالفعل، لكنّ ابني المحبوب لا يريد حتّى أن يذوق منه شيئاً. هل تريد شيئاً آخر من النبيذ؟

– أشكرك أيّتها السيّدة، كما لو أنّي شربته.

انتظر بورتيناري بضع ثوان بعد خروج المرأة.

– هل تعرف يا سير ليوناردو كيف يعمل البنك؟

– أعرف بالطبع. تأخذون القروض بفائدة اثني عشر وتعطونها بفائدة خمسة عشر. وفرق الثلاثة بالمئة هو ربحكم.

– بل الأمر أشدّ تعقيداً من هذا. الأمر هو أنّي أدير أموال قسم كبير من ميلانو. فكلّ أصحاب دكاكين شارع آرمورواري هم زبائني. بل لديّ زبائن حتّى بين ندّافي اللودي.

– هذا من دواعي سروري، يعني أنّ عملك مزدهر. ويمكن لك إذاً تقديم قرض بخمسمئة دوقيّة إلى فنّان من مواطنيكم.

– أجل، إنّ أعمالي مزدهرة، وكميّة الأموال التي أديرها كبيرة، أكبر بكثير من الأموال التي أملكها. ألا ترى يا سير ليوناردو أنّ البنك هو مثل لاعب الخفّة، فهو يوازن بين أموال الآخرين، وكلّما حدث ولمست

درهماً من دراهم الآخرين فإنّ بعض المال يبقى في يدي. لكن وحتّى وإن لعبت بعشرة أطباق في الهواء، فإنّ واحداً منها فقط يبقى معي، لكنّ هذا أيضاً ليس ملكي.

وإذا كنّا موضوعيّين، فكلامه صحيح بالفعل. وأمام حجمِ أعمالٍ يقدّر بحوالي مئة ألف دوقيّة، فإنّ رأسمال فرع البنك هو عشر المبلغ، أي حوالي عشرة آلاف ليس أكثر. لكنّ هذا لا يستثني أنّ يستعمل آتشيرّيتو هذا الحديث كلّما أراد أن يرفض تقديم قرض لشخص ما.

حينها كان آتشيرّيتو يشرح لذلك التعيس ويقول إنّه لا يستطيع تقديم قروض لأحد كيفما كان، لكنّه يمكن له أن يقرض مقابل بعض الضمانات. لكن بما أنّ زبونه الحاليّ عبقريّ فلم تكن هناك حاجة للتحديد.

قال ليوناردو له وهو ما زال يبتسم: - إنّك تقول لي إنّك لا تستطيع إقراض أحد كيفما كان. أفهمك بالفعل. لكنّي أنا لست شخصاً أيّاً كان يا سير آتشيرّيتو. وأنت تعرفني حقّ المعرفة. وعندي أشياء أكثر بكثير من ملابسي البائسة كي أقدّمها ضمانة للقرض. عندي مكتبي وعندي لوحاتي. وأنت تعرفني حقّ المعرفة يا سير آتشيرّيتو.

لهذا بالضبط يا سير ليوناردو، لهذا لا أستطيع أن أتصرّف معك تصرّف المرابين. خمسمئة دوقيّة وتعطونني ضمانات من أعمالك بقيمة تربو على المبلغ بعشرة أضعاف.

أجاب ليوناردو وهو يهزّ رأسه: - بالتأكيد، إذا كان لدى أحدهم مال ليدفع ثمنها. قلت الحقّ، فأعمالي غالية الثمن، ولهذا فإنّ القليلين يستطيعون السماح لأنفسهم بشرائها.

- لسنا هنا في فلورنسا، حيث تثير الأشياء الجميلة الإعجاب ويدفعون ثمنها نقوداً رنّانة.

- ثق أنّها تثير الإعجاب هنا أيضاً، لكنّه ليس لدى الناس نقود. لذلك فهم يقترضون كي يتمكنّوا من شرائها.

الجميع هنا يقترضون، بمن فيهم الدوق.

ابتسم آتشيرّيتو بورتيناري هنا ابتسامة خبيثة.

– أيّ دوق تعني يا سير ليوناردو؟ انتبه، فالأمور هنا في ميلانو ليست واضحة على الإطلاق. هل هو دوق باري أي لودوفيكو إيل مورو، أو دوق ميلانو العزيز جان غالياتسو؟ بالمناسبة، هل تعرف أنّهم ذكروك في قافيةٍ جديدة، على هذه السيرة تماماً؟ ولقد سمعتهم يغنّونها قبل أيّام قرب أقنية النافيلي.

وهنا بدأ بورتيناري يدمدم بالأغنية بصوت تينور جميل:

لقد استدعوا ليوناردو، الرجل المبدع الكبير، ليمثل أمام السيّدة إيزابيلّا وجان غالياتسو العاري، وقالوا له: «نحن بحاجة ماسّة إلى جهازكم العظيم ليساعد زوجي الحبيب على الانتصاب».

فالمسألة المريرة المتعلّقة بالعلاقة الزوجيّة بين جان غالياتسو سفورتسا وايزابيلّا داراغونا أصبحت شهيرة في جميع أنحاء ميلانو، خاصّة أنّ الخصوصيّة كانت هناك بالوضع الذي سبق أن أشرنا إليه. إذ إنّ الدوق الصغير جان غالياتسو الذي لم يكن قد بلغ العشرين من عمره، بقي عاجزاً لأشهر طويلة عن الاقتران بزوجته الشرعيّة إيزابيلّا، ولم يكن من الواضح فيما إذا كان السبب عمليّاً هو عجزه الجنسيّ – كما كان يؤكّد طبيب ومنجّم القصر آمبرودجو فاريزِه دا روزاتِه – أو بسبب اقتران غير ملائم بين النجوم والأبراج، كما كان يحلف ويقسم الدوق الصغير – أو لأنّ جان غالياتسو لا يشعر بالجاذبيّة الجنسيّة إلّا للخدم الأقوياء الذين كان ينعزل معهم وراء ستائر غليظة – كما كان يُزعم في بقيّة أنحاء المدينة بما في ذلك الأرياف. والواقع العمليّ هو أنّ الزيجة بقيت لعدّة دورات قمريّة غير تامّة ولم تجر على ما أمر الله به، وهذا ما ركّز عليه لودوفيكو إيل مورو والكاردينال آسكانيو سفورتسا من أجل إجبار جان غالياتسو على تحقيق واجباته. لأنّ عدم الدخول في الزواج هو من كبائر الخطايا، على ما كان يشدّد عليه بطريقة فظّة أعمامه، وأضافوا أيضاً إذا كنت لا تريد

الذهاب إلى الجحيم فعليك أن تتغلّب على تمنّعك عن الفرج وأن تقوم بواجباتك، وإلّا فسيتمّ إشهار عدم صلاحيّة الزيجة وإعادة مهر زوجتك بشكل نفقد فيه عشرات آلاف الدوقيّات فضلاً عن ماء الوجه.

في هذه الأثناء دخلت كاترينا إلى الغرفة وبدأت بتنظيف المائدة ورفع أدوات الطعام القليلة. عشر ثوان أو أقل، لكنّ الوقت كان كافياً لسماع عبارات بورتيناري ولمشاهدة كيف تغيّرت تعابير وجه ابنها وتقطّبت بشكل واضح.

أجاب ليوناردو وهو يحوّل نظره: - ليس لي يا للأسف مثل هذه القوّة يا سير آتشيّريتو. بوسعي أن أزيد في قوّة الشخص بواسطة بعض الأجهزة، لكنّي لا أستطيع بالتأكيد تغيير إرادته أو ميوله. ثمّ حتّى لو كان بوسعي فعل ذلك، فإنّي أؤكّد لك أنّي لن أفعل.

- هيّا بنا يا سير ليوناردو، لا تقطّب بهذا الشكل. على كلّ فإنّ الجميع أصبحوا يعرفون أنّ جان غالياتسو منحرف شاذّ، يعرفون هذا حتّى في فرنسا وهو ليس من أسرار الدولة. على هذه السيرة يا سير ليوناردو... هل تعرف أنّ اللوطيّين يعاقبون في هذه المدينة حرقاً بالنار. كان هذا بأمر من غالياتسو ماريّا، ولم يلغَ الأمر مطلقاً. نحن هنا لسنا في فلورنسا حيث يمكن التغاضي عن بعض الأمور.

- وماذا يعني هذا يا سير آتشيّريتو؟

- أردت بهذا فقط أن أقدّم لك النصح. فالناس يثرثرون. لسنا هنا في فلورنسا. آه، ما أجملك يا مدينتي فلورنسا...لا أدري ما هو رأيك، لكنّي مشتاق إليها كثيراً...

فقالت كاترينا بشيء من الحدّة: - هل تريد أن تشبع هذا الفضول يا سير آتشيّريتو؟

- تفضّلي يا سيّدة كاترينا.

- لماذا لا تعود إلى فلورنسا بما أنّك تتباكى كثيراً عليها؟

– لأنّه لا يبدو لي مناسباً، هذا هو السبب. إنّك بحاجة إليّ. ماسّيميليانو بحاجة إليّ. كلّما مرّت بضعة أيّام من غير أن أراه، أجد أنّه مختلف.

قال لودوفيكو إيل مورو: – أشكرك على اهتمامك، لكنّي على كلّ حال أظنّ أنّك إذا عدت لبعض الوقت إلى مسقط رأسك فسيكون في هذا راحة كبيرة بالنسبة إلى أبيك وإلى أختك. وبالنسبة إليك أيضاً.

توجّهت بياتريشِه نحو الطفل من غير أن تنظر إلى لودوفيكو. تحت الأنظار القاسية لامرأة بملابس سوداء وعيون يقظة لرجل بملابس حمراء، كان الصغير يزحف وهو يوسّخ يديه الصغيرتين بالأعشاب العطريّة التي نثرها الخدم على الأرض للتغطية على روائح الأماكن المغلقة الكريهة التي تفوح من غرف النوم.

– تعال يا ماسّيميليانو...

مدّت بياتريشِه ذراعيها برشاقة ورفعت الصبيّ في الهواء وأبقته أمامها على ذراعيها الممدودتين. اقتصرت المرأة ذات الملابس السوداء على النظر إلى الطفل وهو يُرفع من غير أن يرفع عنها مسؤوليّتها. على كلّ كانت المربّية تهتمّ بماسّيميليانو خلال أربع وعشرين ساعة على أربع وعشرين، بما في ذلك الدقائق الثلاث أو الأربع التي كان يوضع فيها كلّ يوم أمام أبويه.

كان عمر بياتريشِه دي إيست في ذلك الحين ثماني عشرة سنة، لكنّ مراقباً من عصرنا لابدّ أن يظنّ أنّ عمرها ضعف ذلك.

فهناك الطفل من ناحية، ومن ناحية أخرى ذقنها المشقوقة وبدانتها الرخوة التي لم تشأ أن تفارقها بعد أن وضعت، والتي كانت الدوقة تحاول أن تتستّر عليها بارتداء ثياب عريضة مخطّطة بخطوط طوليّة من الذهب والفضّة. لكن رغم أنّ هذا الوزن الزائد يعبّر كما قلنا آنفاً عن وضع اجتماعي مرفّه، فقد كان بإمكان الرجال أن يتحمّلوا أكثر من هذا من النساء، حتّى في ذلك الوقت.

لكنّ الدوقة كانت ترتدي في ذلك اليوم ثوباً من قماش بنيّ وأكمام

منفوخة، بينما كانت تضع على رأسها، عوضاً عن زينة اللآلئ المعتادة، طاقيّة من الحرير الأسود تنسدل منها براقع بيضاء طويلة. كانت هذه ثياب حداد، لأنّ أمّها إيليونورا داراغونا ماتت قبل وقت قصير، ولهذا السبب كان لودوفيكو إيل مورو يحاول منذ أيّام إقناع زوجته بالذهاب إلى زيارة عائلتها في مدينة فيرّارا، ربّما على أمل أن يجد لنفسه بعض الطمأنينة والراحة.

– إذا كنت تريد راحة أبي فيكفي أن تقدّم له ما وعدته به. وأمّا عن راحتي فإنّي أؤكّد لك أنّ جلّ ما أريده هو أن أكون زوجة دوق ميلانو.

– بياتريشِه، يا زوجتي الحبيبة، تعرفين حقّ المعرفة أنّي لست أنا وحدي من يقرّر. إنّ تسليم قيادة أركان القوّات الفرنسيّة لأبيك هو ما يبدو لي أيضاً الاختيار الأمثل، لكن يبدو أنّ الطالع والنجوم ليست مع هذا الرأي. وقد تكلّمت بهذا صباح هذا اليوم بالذات أيضاً مع المعلّم آمبرودجو.

– أليس كذلك أيّها المعلّم آمبرودجو؟

– إنّ أنباء النجوم واضحة يا صاحب السيادة. أجاب آمبرودجو بصوت ظهر أنّه يصدر مباشرة من الأرض، عميق وواثق، لأنّه صوت رجل يعرف أنّ ما يقوله لا يصدر عن ظنونه بل عن علومه. أو هكذا هو يعتقد على أقلّ تقدير. وأضاف: – يقع عطارد تحت تأثير سلبيّ من النجوم، لذلك فإن هذه هي لحظة سّيئة للغاية بالنسبة لأولئك الذين يخضعون لسلطان هذا الكوكب، وكذلك أولئك الذين ولدوا تحت علامة العقرب.

وهنا تدخّلت بياتريشِه بصوت جهوريّ قائلة: – لكن هناك مصادر تؤكّد عكس ذلك وتقول إن شهر تشرين الأوّل والطقس البارد والرطب يشكلان ظرفاً مثالياً يسمح للعقرب أن يظهر بكلّ قوّته. أي أنّ أبي في وقت نشاطه الأعظم.

رفع المعلّم آمبرودجو حاجبه وكأنّه فوجئ، والتفت بنظره نحو سيّد ميلانو.

كانت نظراته تقول أنا آمبرودجو فاريزه داروزاتِه، طبيب وطبيب أطفال

وعالم فلك وطبيب أسنان ومستشار سياسيّ وعسكريّ لديك يا صاحب السيادة. فهل صحيح أنّ زوجتك تخلط بيني وبين مصادر أخرى مختلفة؟

بعد لحظات حوّل المعلّم آمبرودجو نظره من جديد نحو بياتريشِه.

- إنّ هذا الوقت بالنسبة إلى والدك المبجّل يا صاحبة السيادة هو الأسوأ، وهذا ما برهن عليه فقدان أمّك الحبيبة، وكان هذا أمراً لا يعوّض بالنسبة إليه وبالنسبة للدوقيّة، خاصّة أنّه حدث فجأة وبطريقة غير متوقّعة لكن ليس بالنسبة إلى النجوم وإلى من يستطيع أن يقرأ النجوم.

كان هذا من الأمور التي كان المعلّم آمبرودجو يتقنها هو الفلكيّ المخضرم، أي أنّه كان يتذكّر ويذكّر بالأحداث التي بوسعها أن تؤكّد أو كانت تؤكّد توقّعاته، مع تحجيم أو تناسي الإشارة إلى تلك التي خذلته بشكل فاضح.

نهض إيل مورو ونظر هو أيضاً إلى زوجته التي بقيت تحدّق بالمعلّم آمبرودجو تحديق من يعرف حقّ المعرفة بماذا يجيبه لو لم يكن هناك أناس آخرون في المكان، كما هو الأمر في كلّ وقت.

- هذا فضلاً يا زوجتي الحبيبة عن أنّه يجب أن تأخذي بعين الاعتبار أنّه لا يمكن لي أن أتّخذ هذا القرار من غير أن أسمع قبلها رأي حلفائي. إذ لا يمكننا في هذه الحرب أن نتجاهل الذي يريده الفرنسيّون، بل على العكس. أوه، يا غالياتسو يا صاحبي، تحيّاتي. ادخل، ادخل. هل سمعت ماذا كنت أقول؟

أجاب غالياتسو سانسيفيرينو بطريقة أنيقة، بما أنّه كان واقفاً قرب الباب منذ خمس دقائق بانتظار السماح له بالدخول فكلاهما كانا من أصدقائه، لكنّ الثاني يبقى زعيم ميلانو وعمدتها: - علينا للأسف أن نقنع حلفاءنا، ولن يكون هذا أمراً هيّناً. لكن ربّما سنحت لنا الفرصة بفعل هذا عن قريب.

وهنا مدّ سانسيفيرينو يده الموضوعة في القفاز، التي كانت تحمل

رسالة فيها عطر بخّور نافذ. كانت رسالة من فرنسا. ليس لأنّ من عادة الفرنسيّين تعطير الرسائل، بل لأنّ المعلّم آمبرودجو بالذات وخشية الطاعون أمر بتبخير كلّ ما يصل من أماكن قذرة أو معرّضة للعدوى مثل بلدان ما وراء الألب بالذات.

تناول لودوفيكو الرسالة، فتحها ونظر فيها بتمعّن، بينما كانت بياتريشِه تقف خلفه وتتصنّع اللعب مع الطفل لكنّها كانت تسترق النظر من فوق كتفه.

– إنّها من دوق دي كومين. وهو يعلمنا أنّه سيعبر جبال الألب وسيصل إلى ميلانو خلال الأيّام القادمة ليقابل مفتّش صاحب الجلالة المسيحيّة الكبرى بيرون دو باش. وهو يطلب استضافته خلال أيّام إقامته في ميلانو.

سألت بياتريشِه بلهجة عدم مبالاة زائفة مثل العملة المزيّفة: – ومن هو بيرون دو باش هذا؟

– إنّه – هو المفتّش المسؤول عن عبور إيطاليا من نابولي إلى الأعلى، وعن تقييم قوى جيش نابولي وظروف الحلفاء. إنّنا نتحضّر للحرب يا عزيزي غالياتسو.

– يبدو كذلك. علينا أن نتناقش. هل أنتظرك في الحظائر؟

– لا حاجة لذلك يا عزيزي غالياتسو. ليس هناك أسرار أخفيها عن زوجتي.

لم يبح وجه غالياتسو النبيل بشيء من خيبة الأمل التي شعر بها لأنّ عليه أن يبقى في الغرفة. فمنذ أن ماتت أمّها كانت بياتريشِه تتناول وجباتها في الغرفة بحضور لودوفيكو وغالياتسو، وفي جوّ قاتم صامت، رغم أنّ الدوقة بياتريشِه ظهرت في ذلك الصباح أشدّ سروراً بالمقارنة مع الأسابيع الأخيرة. لكنّ غالياتسو الذي كان رجل أفعال وحياة في الهواء الطلق، لم يعد يصبر على فترة الحداد تلك فكان يحاول بكلّ الطرق تجنّب مكان سكن الدوقيْن والجوّ المرهق الذي يجلّله بالفعل ومن دون أيّ استعارة

بلاغيّة، لذلك ومهما كانت طبيعة الروائح في تلك الغرفة، فكون غالياتسو قد فضّل الحظيرة يفسرّ الكثير ممّا في الأمر.

– على أيّ حال يجب علينا في هذه اللحظة أن نفكّر فقط بطريقة إقامتهم، وأعتقد أنّه من المناسب أن يقيموا هنا في القلعة.

– علينا أيضاً أن نستقبلهم بشكل لائق، ألا ترى ذلك؟ قالت بياتريشِه وقد عادت إليها بلاغتها بعدما وجدت الفرصة المناسبة لإظهار شيء من البهرجة مكان ثياب الحداد. – وعلينا أن نقيم حفل عشاء لتكريم حلفائنا. حفلاً مثل الذي أقامه بوتّا، هل تذكرون؟ بوجود كلّ الآلهة الوثنيّة التي كانت تعلن عن وصول الأطباق...

بينما كانت زوجته تتكلّم، كان لودوفيكو يفكّر وهو يضمّ يديه ويفركهما بفمه وأنفه، كما لو أنّه يبتهل لذهنه عسى أن يمدّه بفكرة ما.

– لا أعرف يا زوجتي. فأذواق الفرنسيّين خشنة بالفعل، وحنكهم ليس مهذّباً كأهل ميلانو أو نابولي. كنت أفكّر...هل لدينا قزمٌ يتكلّم الفرنسيّة؟

– قزمٌ يتكلّم الفرنسيّة؟

– ما أروع هذه الفكرة! هتفت بياتريشِه وهي تبتسم للطفل وترفعه في الهواء من جديد بسرور. – عرض رائع بوجود أقزام ومشعوذين، تماماً! إنّك رائع، رائع جدّاً. حتماً، هذا ما يصلح للفرنسيّين، ألا ترى يا ماسّيميليانو مدى ذكاء أبيك؟

زغرد ماسّيميليانو (أو بالأحرى إركولِه ماسّيميليانو سفورتسا، بكر بياتريشِه ولودوفيكو، لكنّ أمّه كانت تناديه باسمه الثاني، وإذا ظنّ البعض أنّها كانت تفعل هذا تزلّفاً لجانب إمبراطور النمسا فليعلم أنّه على صواب) بسرور ونظر إلى غالياتسو سانسيفيرينو الذي ابتسم بدوره أيضاً.

وافق غالياتسو وهو يعود بنظره إلى مورو ليومئ برأسه إيماءة قويّة، وقال: – لابدّ أن المحاسب يعرف ذلك. هل تريد أن أستدعيه؟

– أجل يا غالياتسو، علينا أن نكرّم ضيفنا كما يجب. لا نريد حتماً أن يقال عنّا إنّنا سوقيّون خشنون، أليس كذلك؟

– أجل، كنت خشنة نوعاً ما يا كاترينا.

فأجابت كاترينا وهي تواصل التحرّك جيئة وذهاباً في الغرفة: – معك حقّ، لكنّي أجبت بخشونة على شخص سوقيّ خشن. وكان آتشيرّيتو بورتيناري قد انصرف قبل قليل، بتحيّات أقلّ من تلك التي تمّ استقباله بها. – لكن كيف دعوته للطعام وأطعمته من أفضل لحوم العجل في كلّ ميلانو، ثمّ منع عنك هذا المرابي مساعدة مقدّسة، بل بدأ يتكلّم بأحاديث عن الحرق بالنار. إنّ المرابين سيحرقون أيضاً بالنار، ألا تعرف؟

– أيضاً؟ ومن غيرهم؟

واصلت المرأة سيرها للحظات أخرى وهي تنظّف هنا وهناك. جلست بعدها من غير ما إنهاك إزاء ابنها.

– ليوناردو، إنّي لست حمقاء.

– أعرف هذا حقّ المعرفة يا أمّي. أنا ابنك. إذا حملت امرأة بيضاء من رجل أسود، فإنّ الولد يولد رماديّاً، أمّا إذا ولد أسود فلأنّ كلا أبويه أسودان. ألا ترين ذلك؟

– اسمع يا ليوناردو، عندما كنتَ في فلورنسا سمعت أنّك كنت تسلك سلوكاً فاجراً، لكنّي لم أعط للأمر أهميّة. فالناس سيّئون في الأصل، فتصوّر كيف حالهم مع ابن خادمة. لكنّي جئت إلى هنا ورأيت بأمّ عيني... – ماذا رأيت يا أمّي؟

أرى ذلك الفتى المسمّى سالاي يتجوّل في البيت، وهو لا يرسم ولا يحضّر الألوان، أي أنّه لا يفعل شيئاً، لكنّه يعيش معك في بيتك.

نظر ليوناردو إلى كاترينا وهو يرفع أحد حاجبيه وقال: – ليس صحيحاً أنّه لا يفعل شيئاً، إنّه لصّ ماهر جدّاً. أطلّ سالاي مباشرة على الباب وكأنّه خمّن أنّهما يتحدّثان عنه. – إذا تركنا النكات جانباً يا أميّ فعليّ أن أقول إنّ أيّ فتى يبدأ العمل يا أمّي بالأشغال الأشدّ تواضعاً. فعندما دخلت أنا لأعمل مع فيرّوكيو كنت في البداية أنظّف أقفاص الدجاج.

- أجل لقد فهمت تماماً، فكلّ فنّان كان في ذلك الحين يملك قنّ دجاج، وليس لأسباب غذائيّة.

في زمن ليوناردو لم تكن تقنيّةُ الرسم الزيتيّ قد عرفت تماماً، فكانوا يرسمون في فلورنسا باستعمال تقنية ألوان الغواش أي بخلط الأصباغ مع مثبّت رابط مثل صفار البيض الذي ما إن يجفّ حتّى يشكّل شبكة حماية قادرة على الالتصاق بالسطح وعلى حفظ الألوان بشكل دائم. وبما أنّ افتتاح سوبر ماركت قريب لن يجري قبل أربعمئة وخمسين سنة، فإنّ كلّ فنّان كان يلجأ إلى أسهل طريقة للحصول على البيض الطازج، أي إلى تربية الدجاج في البيت. ومن القنّ بالذات كان المبتدئون يبدؤون عملهم فيهتموّن بتنظيفه. بعد ذلك، وبعدها فقط كان المبتدئ ينتقل إلى مرحلة تتلاءم أكثر مع هواياته، لكنّه كان عليه أن يفقس البيض ويسلخ جلود الأرانب ويطحن الأصباغ وما إلى هنالك. وكان لابدّ أن يمرّ وقت طويل قبل أن يتمكّن من تمرير ريشة الرسم على لوحة.

وإذا كانت هذه التفسيرات تبدو مهمّة بالنسبة للرجل المعاصر، فهي لم تكن كذلك بالنسبة إلى كاترينا، فهي كانت تعرف حقّ المعرفة طريقة عمل مرسم الفنّان، بما في ذلك ما يحدث عندما يقود الفنّان تلميذه إلى خلف المرسم.

تنهّدت كاترينا وهي تقول له: اسمع يا ليوناردو، حسناً، إنّي لا أراك تذهب البتّة إلى القدّاس في الكنيسة.

- ولماذا عليّ أن أذهب إلى القدّاس؟ قد أذهب فيما لو كان من يعظ هناك قادراً على قراءة الإنجيل. لكنّي لا أسمع إلّا وعّاظاً يخلطون بين إرادة الله وهذيان أدمغتهم. كما يفعل الأخ سافونارولا في فلورنسا والراهب جواكينو هنا في ميلانو.

- في السنة الماضية قال الراهب سافونارولا إنّ المصائب ستنهال قريباً على فلورنسا، بعد ذلك بثلاثة أيّام مات لورينزو دي ميديشي.

- وهل كان يلزم لذلك صوت من الله؟ كان لورينزو مصاباً بالنقرس

ولم يكن يتمكّن من الوقوف على قدميه. كان منتفخاً كالضرف. – وهنا أشار ليوناردو بيد مفتوحة إلى سالاي، فاقترب هذا منه ثمّ ربض في حضنه كأنّه هرّ صغير. – أنا أيضاً أستطيع أن أتنبّأ أنّ هذا الوغد سيسرق شيئاً خلال ثلاثة أيّام. إذ يكفي أن أعرفه.

– لم أكن أنا يا سير ليوناردو! لابدّ أنّك أخطأت في حساباتك في المرّة الماضية...

– ها هو، هل سمعت يا أمّي؟ هكذا هو صوت سالاي. صوت الكلب هو بَوْ بَوْ، وصوت القطّ هو مياو مياو، أمّا سالاي فيقول «لست أنا». وهنا ضرب ليوناردو رقبة الفتى ضربة أشبه بالمداعبة منها بالضرب. – كذلك فإنّ الواعظ يردّد: «إرادة الله، إرادة الله». كلّ واحد له صوته.

– انتبه يا ابني ليوناردو لما تقوله. فالهلاك لا يأتي عقابه من الله فقط، بل من البشر أيضاً. لقد نجوت في فلورنسا لأنّه كان معك قريب من دي ميديشي ولو أدانوه لأدانوك معه. لكنّنا الآن في ميلانو، ولسنا في فلورنسا. فانتبه لأقوالك وانتبه لأفعالك.

– وماذا فعلت أنا يا أمّي من أشياء مقيتة؟

– أنت تعلم يا ليوناردو...

– إذا كنت أعلم يا أمّي فإنّي لن أخجل إذا أخبرتني به.

لكنّ كاترينا التزمت الصمت وهي تلوي الثوب الذي كان بين يديها.

– هل تقصدين أنّي أفعل أموراً مخالفة للطبيعة، كما كان يقول بورتيناري الطيّب؟

بقيت كاترينا على صمتها، لكنّها أشارت إشارة خفيفة بالإيجاب.

– معك حقّ يا أمّي. إنّي أفعل أشياء مخالفة للطبيعة. لا بل إنّي أفعل أمراً واحداً وواحداً فقط يخالف الطبيعة. هل تعرفين ما هو؟ – وهنا داعب ليوناردو بلطف رأس سالاي، فحرّك هذا رأسه كالقطّ عندما يخرخر، مع إمالة عنقه نحو يد المعلّم. – أنّي لا آكل اللحم. أنا لا أتغذّى ببقايا

حيوانات أخرى أقتلها أنا أو غيري، لا يهمّ، لأنّها أقلّ شأناً منّا، ذلك كما تفعل أكثر الحيوانات في الطبيعة. إنّ التغذّي بلحوم حيوانات أضعف منّا هو أمر من صلب الطبيعة، لكنّي لا أفعل هذا، بل إنّي أمقته.

نهض ليوناردو عن الطاولة وأنهض سالاي بعد أن صفعه على ظهره، وكان من الواضح أنّه مستاء من كلّ ما حدث بعد الغداء.

تمطّط وهو يملّس ثوبه ذا القماش الورديّ.

- إنّي أمقته، لكنّي أسمح به للعزيزين على قلبي، لدرجة أنّي جئتك قبل قليل بقطعة لحم لتطبخيها بالمرق أو تصنعي منها الكفتة أو ما تشائين. لكنّي لم آكل منها لأنّ هذا يسعدني، كما يسعدك أنّكِ أكلت. - وبعد أن أصبح ليوناردو قرب الباب التفت وهو يبتسم، وقال: - كذلك لن أمنعك من الذهاب غداً للاستماع إلى جواكّينو راهبك المحبوب وهو يثرثر عن الجحيم ونهاية العالم والزلازل والجراد. لكنّي إذا سمحت لي أريد الآن الذهاب لأنام. وإذا لم تسمحي لي فإنّي سأذهب للنوم على كلّ حال.

على ضوء شمعة

تحرّك الإبهام نحو أسفل فخذ الحصان، حيث تنقلب العضلة إلى وتر وتختفي عن النظر. خلف الإبهام بنصف متر، كان ليوناردو يركّز بهدوء. هذه العضلة توحي بالحركة، إنّها ضروريّة، لكن لا تكفي. لكنّ النحت أسهل من الرسم، أجل أيّها السادة. فعندما تعمل بثلاثة أبعاد ليس عليك إلّا أن تنسخ ما تراه وتشعر به، وبهذا ينتهي الأمر. ولابدّ أنّ هناك سبباً جعل رسوم اليونانيّين القدماء تظهر بمظهر مضحك، بينما كانت تماثيلهم رائعة. لأنّه من الأسهل صنع الأشياء بثلاثة أبعاد، أليس كذلك؟ أمّا عندما تصنعها ببعدين فلابدّ أن تكون قادراً على إتقان العمل، وأن تعرف تدرّجات الألوان والمنظور. تماماً، لكن أيّ منظور؟ منظور العين اليمنى أو تلك اليسرى؟ كلّ الفنّانين كانوا يعنون بكيفيّة ظهور المنظر أمام العين، لكنّ للإنسان عينين. لربّما هذا هو سبب أنّنا لا نرى كما يجب حدود الأشياء. أو لأنّه لا حدود على الإطلاق.

استجمع ليوناردو نفسه. يمكن أن يبقى الطين طريّاً لنصف ساعة أخرى على أبعد تقدير، وسيتمكّن من معالجته. لذلك لابدّ من الإسراع. ها هو. هنا. المس هنا، ثمّ هناك. انظر، ارجع. إنّك ترى، وتشعر.

أين هي الحدود بيني وبينك أيّها الحصان؟ هل هي هنا حيث تلمسك يدي؟ لكنّ هذه حدود اللمس. وإذا ضغطت فستتغيّر. فكيف أستطيع أن أميّز بينك أيّها الحصان وبين كتلة طين جديدة، هل باللمس فقط؟

إذا ابتعدت عنك لا ألمسك، بل أشّم رائحتك. رائحة طيّبة، رائحة

طين وماء وأرض ونضارة. وإذا لمسك شخص آخر، أو ضربك فإنّي أسمع الصوت، حتّى أبتعد إلى أبعد من ذلك فلا أسمع شيئاً. فهل هذه هي الحدود التي بيني وبينك يا حصان؟ لكن إذا فتحت عيني فإنّي أراك، وإذا ابتعدت عنك فسأستمرّ في رؤيتك وتبقى في عينيّ حتّى تغيب في الأفق. فهل الحدود التي بيني وبينك هي الأفق إذاً يا حصان؟

نظر ليوناردو حوله، وألقى نظرة على الشمعة التي كانت تتّقد في إحدى الزوايا، وذابت بأكثر من بوصتين منذ أن اشتعلت. أي أنّها تعمل منذ أربع ساعات. بعد قليل سيحين وقت العودة إلى السرير والنوم لشيء من الوقت. ربّما لساعة ونصف الساعة أو ساعتين، حتّى الصباح. ما زال هناك خمسة أيّام على موعد تسليم ذلك العمل. بقي علي أن أضع الذيل، ما زال هناك وقت. وهناك طين سيتحوّل إلى ذيل، تشكّله يداي، يدا ليوناردو ابن سير بييرو الذي جاء من فينشي إلى ميلانو ومن يدري كم سأبقى في ميلانو. ربّما بقيت هنا طيلة حياتي، يا حصاني الجميل. وسأراك إذاً كلّ يوم.

لكنّه عليّ أن أتحلّى بالصبر إذا رحلت، لأنّي لن أراك بعد ذلك. إنّك حسن الصنع، وإذا قابلتُ يوماً مسافراً فإنّه سيحدّثني عنك. سيصفك، سيتكلّم عن منحنياتك، ولربّما عرض عليّ رسماً لك. إنّك ليس كما تُرى، بل أبعد من ذلك. يمكن لي أن أتخيّلك في ذهني كما أنت، ولربّما أجمل ممّا أنت عليه. وقتها ستكون حصاني بالفعل.

عندها لن يكون هناك حدود بيني وبينك يا حصان. كما لا توجد حدود بيني وبين إيل مورو، الذي عليّ أن أعمل من أجله حتّى عندما لا يكون حاضراً. أو بيني وبين سالاي فليحفظه الله وليعاقبه. أقلق عليه إذا لم يكن حاضراً، وأقلق منه إذا كان حاضراً. لكن أين هي الحدود، والانفصال؟ إنّي أحبّه أجل، ذلك الفتى، كما أحبّ ابني الذي لن أنجبه.

أربعة

لم تكن الشمس قد أشرقت وراء سور القلعة عندما عُثر على الجثّة.

كان ظلام الليل القاتم الدامس العميق قد بدأ يرفع ستاره عن الأفق منذ بضع دقائق، ذلك ليعرض مشهد يوم آخر جديد. حينها لم يكن يرى داخل القلعة الشيء الكثير، كما كانت الرؤية محدودة جدّاً حتّى في الفناء المعروف باسم ساحة السلاح.

لهذا فإنّ خادم القلعة ريميدجو تريفانوتّي لم يدرك في الحال ما هو أمر هذا الشيء الذي تعثّرت به قدماه، والذي ما كان يجب أن يكون هناك، بما أنّ صاحب السيادة أمر أن يبقى فناء السلاح خالياً من أيّ شيء يوضع على الأرض وفي جميع ساعات النهار والليل. كان ذلك الشيء يشبه الكيس بقوامه الغريب، كأنّه كيس فيه حجارة نهريّة كبيرة متّصلة بعضها ببعض بواسطة غراء لاصق. هذا أوّل انطباع تولّد في ذهن ريميدجو تريفانوتّي وهو ينهض ويشتم لأنّه سيكون عليه هو أن يزيح ذلك الكيس الثقيل.

لكنّه بينما كان يحاول أن يجد أفضل طريقة ليحمله على كتفه أدرك أنّ الكيس يحتوي على شخص.

وكان جسد الشخص بارداً ومتخشّباً بحيث لا يمكن أن يكون حيّاً.

- ميّت؟

- ميت، يا صاحب السيادة.

- هل مات طعناً بالسكّين؟
- لا يبدو ذلك يا صاحب السيادة.
- هل يمكن أن تكون *تلك*؟
- يمكن أن تكون تلك يا صاحب السيادة.
- هل نعرفه؟
- سبق لي أن رأيته يا صاحب السيادة.

كان ذلك صوت بيرغونزيو بوتّا، ليس مدقّق ضرائب لودوفيكو فحسب، بل ومدير مراسمه أحياناً، في جلسات الاستماع الصباحيّة.

- كان ممّن جاؤوا بالأمس لتستمع إليهم وقد طلب حضور جلسة الاستماع صباح البارحة، ولم يتسنّ لسيادتك أن تستمع له. لذلك فقد جاء إلى القلعة ظهيرة الأمس ليطلب حضور جلسة الاستماع القادمة.
- هل تذكر ما هو اسمه؟
- من المؤكّد أنّي كتبته في قائمة الذين ألحّوا في طلب المقابلة. سأذهب حالاً لإحضارها، يا صاحب السيادة.
- اذهب يا بيرغونزيو، لكن استدع قبل ذلك المعلّم آمبرودجو.

بينما كانت العائلة تضع الجثّة على الطاولة، كان المعلّم آمبرودجو فاريزه دا روزاتِه يدور حولها وهو يحرّك مبخرة وضع فيها البخّور وأوراق الليمون. البخّور لظنّه أنّه يبعد الرياح التي تحمل العدوى، وأوراق الليمون لأنّ رائحتها تعجب المعلّم آمبرودجو.

بعد وضع الجثّة بقي أفراد الأسرة قرب الطاولة، وعيونهم تتنقّل بين الميّت وبين الطبيب، بينما تتوجّه أقدامهم نحو الباب القريب منهم.

- اخلعوا ملابس هذا المسكين وليتغمّده الله برحمته.

وهذا ما فعله الأهل بحركات سريعة ممزّقة من تلك المعروفة عمّن يشعر بخوف قاتل، وتركوا على الطاولة رجلاً عارياً ميّتاً شاحب اللون.

أخذ آمبرودجو دا روزاتِه بالدوران حول الطاولة كأنّه صقر يبحث عن فريسة.

أجل، كان آمبرودجو دا روزاتِه يبحث أيضاً عن فريسة، أو بالأحرى عن دليل، علامة. أيّ علامة. لكنّه لم يجد على تلك الجثّة أيّ علامة من أيّ نوع. لم يجد علامة تدلّ على ضربة سكّين، أو طعن سيف، أو جرح خنجر. لا أثر لأيّ تسرّب دم من الفم أو من الأذنين أو من الأنف. – أديروه... ولا من أي فتحة أخرى في الجسم.

واصل آمبرودجو السير دائرياً، وهو يفكّر، بينما وقف أهله جامدين، بانتظار أن يؤمروا بالخروج من الغرفة.

وليس هناك أيضاً علامات أخرى تدلّ على تسمّم بمواد كالزرنيخ، الذي كان شائعاً في تلك السنين.

لا كدمات أو رضوض تقود إلى التفكير بلكمات أو بشجار أو بصلة عنيفة مع أيّ جسم حادّ.

لا احتقان في الوجه أو الرقبة مما يدعو إلى التفكير بسكتة دماغيّة قاتلة. من ناحية أخرى، فكّر المعلّم آمبرودجو، لو مات بضربة ما فلماذا يزعجون أنفسهم بلفّه بكيس وحمله إلى منتصف ساحة السلاح؟ ماذا يختبئ إذاً وراء مسكين مات بنوبة قلبيّة؟

لا انتفاخات أو تورّمات أو علامات أخرى عن الشرور التي هزمت قرابة نصف القارّة قبل أكثر من مئة عام، تلك الاندفاعات الجلديّة، تلك الفطور السامّة التي كانت تبرز تحت الملابس وكانت تشير إلى شيء واحد. إلى *تلك* كما قال لودوفيكو وكما أجاب بيرغونزيو بوتّا. مرض رهيب بشكل لم يكن أحد في القصر يسمّيه باسمه، وكان الجميع يخشونه.

كان يخشى منه الخدم والطاهيات والمحاربون، وكان يخشاه هو أيضاً: المعلّم آمبرودجو فاريزِه دا روزاتِه وهو الخبير بفنون النجوم ويعلم علم اليقين أنّه أقلّ خلوداً منها بكثير. وكان يخشى منه ذلك الذي أمر بفحص الجثّة.

- هل انتهيت من العمل أيّها المعلّم آمبرودجو؟

فأجاب آمبرودجو ببطء وبصوت غائر عميق: - أخاف بالفعل أنّنا ما زلنا في البداية فقط...

- ماذا تعني بهذا أيّها المعلّم آمبرودجو؟

التفت آمبرودجو دا روزاتِه نحو الخادم وقد نسي الفروق بينهما. كان وجهه بلا تعابير، لكنّ الخوف بدا ظاهراً في عينيه.

- مهما كان الشيء الذي مات به هذا الرجل، فإنّه مات بمرض لم نشاهده من قبل.

- هل أنت متأكّد أيّها المعلّم آمبرودجو؟

- أعترف بجهلي، يا صاحبة السيادة. إنّه ليس مرضاً سبق لي أن شاهدته على جسم رجل أو امرأة ولا قرأت عنه في صفحات أيّ كتاب من كتبي.

فقالت بياتريشِه بصوت فيه بارقة أمل ضعيفة: - إنّه ليس الطاعون إذاً.

- بكلّ تأكيد يا صاحبة السيادة. أجاب آمبرودجو دا روزاتِه. عندما سمع هذا الاسم يُلفظ بطريقة واضحة، قام خادمٌ يقف خلف الدوقيْن بحركة خاطفة لمس فيها خصيتيه[10] وهو يتفوّه بكلمتي باسم الآب والروح القدس.

قال لودوفيكو ويداه مضمومتان إلى وجهه: - لكن رغم ذلك فمرضه قاتل، ويقتل بسرعة. قلت لي يا سير بيرغونزيو إنّك رأيت البارحة ذلك الرجل حيّاً. متى كان ذلك على وجه الدقّة؟

كان بيرغونزيو بوتّا موظّفاً يعمل على جمع ضرائب صاحب السيادة من مناطق لودي وكومو وفيدجيفانو، ولم يكن رجلاً يخشى أو يهاب أيّ شيء. وإذا كان يتجوّل بصحبة بعض المسلّحين، فذلك لأسباب تتعلق

10- لمس الخصيتين حركة تعوّذيّة شائعة جداً في إيطاليا تُستخدم دائماً (باللفظ أو بالحركة الفعليّة) عند سماع أو رؤية شيء يخشى أمره من تطيّر أو سوء حظ وما إلى ذلك. (م)

حصراً، كما اعتاد أن يقول، بحماية السلامة الشخصيّة، وإن كانت تلك السلامة يمكن أن تتعرّض لخطر الصواعق والطاعون والتسميم وغير ذلك من المصائب التي يستخفّ بها معظم الآخرين من أشباهه ولا يقدّرونها حقّ قدرها. أي أنّه كان يقال باختصار إنّ بيرغونزيو بوتّا لم يكن رجل خوف وخشية: بل كان جباناً بالفعل. وعندما وجّه لودوفيكو إليه الكلام، كان يحسب بالضبط عدد الساعات منذ وجد ذلك الشابّ على بعد خمس أو عشر خطوات على أبعد حدّ، وكان يتساءل فيما إذا كانت أحاسيس الدوخة الخفيفة التي شعر بها ليست إلّا أول أعراض عدوى ممكنة.

- في الساعة التاسعة يا صاحب السيادة - أجاب بوتّا.

- وكيف كان مظهره يا سير بيرغونزيو؟

- حسناً، كان كما رأيته بالتمام. شابّاً أشقر، في حوالي الثلاثين...

لكنّ آمبرودجو دا روزاتِه الذي فهم مغزى السؤال، حاول إعادة صياغته.

- هل كان يرتجف؟ هل بدا أحمر بسبب الحمّى؟ هل كان شاحب الوجه؟

- على العكس، على العكس تماماً. كان بصحّة جيّدة وسليماً كالسمكة. يعني أنّه كان يبدو كذلك. أنا لست طبيباً جرّاحاً، لكنّه بدا لي أنّه بصحة جيدة تماماً.

ظهر لودوفيكو إيل مورو قاتم الوجه فضلاً عن كونه قاتم اللقب[11]، وهو يحدّق بآمبرودجو دا روزاتِه.

فاعترف هذا قائلاً: - لم أشاهد في حياتي يا صاحب السيادة مثل هذا المرض أبداً.

- هل يمكن أن يكون قد سمّم؟

11- لقب إيل مورو يعني بالإيطاليّة: الأسمر أو الأسود، وكانوا يسمّون بهذه الكلمة المغاربة والعرب إجمالاً. (م)

– لم أشاهد على جسمه شيئاً يا صاحب السيادة يمكن له أن يحملني على التفكير بهذا. لا توجد اندفاعات ولا تدمية من أعراض السموم الشبيهة بالزرنيخ وبغيره. إنّ كلّ سمّ يدخل إلى الجسم يخلّف وراءه أثراً يا صاحب السيادة.

– كلّ سمّ يدخل إلى الجسم يخلّف وراءه أثراً – كرّر إيل مورو كلام المعلّم بصوت مرتفع، كما لو أنّه وجد فيه أهميّة خاصّة، أو كأنّه يعرف بتجربته الشخصيّة أنّه كلام صحيح.

– فهمت أيّها المعلّم آمبرودجو، لكن أخبرني الآن ما هي توقّعات النجوم في هذا الصدد؟

– يجب أن أستشير وسائلي، إذا سمح لي سيادتك بهذا الخيار.

– اذهب أيّها المعلّم آمبرودجو.

وهذا ما فعله آمبرودجو دا روزاتِه بعد أن انحنى بعمق وببطء وأدب. مرّر لودوفيكو بضعة ثوان من الصمت بعد أن أغلق الباب، بينما كان بيرغونزيو بوتّا يحاول أن يعرف فيما إذا كان قد أصيب بالحمّى وذلك بتحسّس نبضه تحت كمّه المصنوع من قماش ثقيل غامق اللون.

قال له لودوفيكو: – إنّي بحاجة إليك يا سير بيرغونزيو.

– أنا تحت تصرّف صاحب السيادة.

– أرسلوا في طلب سير ليوناردو.

– سأذهب أنا بالذات لأناديه، إذا سمح صاحب السيادة.

– هل ما زلت تتجوّل يا سير بيرغونزيو بصحبة الحامية؟

– بالتأكيد يا صاحب السيادة. ستّ رجال أكفَاء، مسلّحين وأصحّاء. لن يتعرّض سير ليوناردو لأيّ خطر.

رفع لودوفيكو عينيه نحو السقف.

– بماذا سيفكّر العامّة إذا رأوا أنّي أرسل في طلب أفضل مهندس وفنّان عندي بواسطة مدقّق الضرائب محاطاً برجال مسلّحين؟

– بأنّه... أي بأنّ هناك بينك وبينه مشاكل تتعلّق بدفع الضرائب.

– أرى أنّك قادر على التفكير أنت أيضاً عندما تجبر على ذلك يا سير بيرغونزيو. أرسل أحد رجالك في طلب ليوناردو، على أن يذهب وحده وغير مسلّح. وعلى أن يأتينا وحده بلا ضجّة ولا حرس. وإيتوني به مباشرة إلى صالة المشفى.

– كما ترغب يا صاحب السيادة – تمتم سير بيرغونزيو وقد بدأ يشعر بالمرض فعلاً.

– اعلم أنّه يروق لي أيضاً أن تكون لي غرفة فيها شقّ مفتوح نحو الشرق – قال ليوناردو وهو ينظر من النافذة الخالية من الضباب.

كانت الشمس تبدو ثابتة في السماء، لكنّها في الحقيقة كانت تشرق وتجلّل الغرفة بثوب من الضياء والنضارة المليئة بوعود تمتدّ لتغطيّ كلّ شيء بما في ذلك عشرات الدروع واللوحات المعلّقة على الجدران، والتي ترمز إلى العائلات من سلالات النبلاء، جامدة ثابتة كما يجب فعله على نبيل بوجود السيّد. وأيّ سيّد: لودوفيكو إيل مورو، زعيم ميلانو، الذي كان يقول إنّ قسّيسه هو البابا وإنّ خادمه هو الإمبراطور. كان إيل مورو واقفاً على قدميه، وسط الصالة الأشدّ ضياء في أنحاء القلعة: مشهد رائع مفتوح وأنيق. المشكلة هي مشكلة تلك الجثّة المسجّاة بقفاها العاري على الطاولة وسط الصالة.

– أجل، إنّها تروق لي جدّاً. تتيح فهماً جديداً مختلفاً، ألا ترى ذلك يا صاحب السيادة؟ إنّ ضوء الصباح هو أصدق ضوء.

– أنا أيضاً يروق لي أن أمتلك غرفة باتّجاه الشرق، ربّما كان هذا ما قد يجيب به لودوفيكو في الظروف العاديّة، أي من دون جثث موبوءة في الأنحاء. لكنّي أنا، العميد والزعيم الفعليّ لهذه المدينة، عليّ أن أقبع في غرف صغيرة مظلمة موجّهة نحو الغرب، ذلك إلى أن يموت حفيدي غير المفيد جان غالياتسو – لكنّه لم يكن للودوفيكو أن يقول البتّة مثل هذا القول.

– قال لودوفيكو بجفاء: – لم نأت بالجثّة إلى هذا المكان لتتمكّن من رسمه يا سير ليوناردو. فالمعلّم آمبرودجو يعتقد أنّ الرياح التي تأتي بالطاعون تهبّ من الشرق نحو الغرب، لذلك فإنّ وضعه بهذه الطريقة يقلّل خطر تعريض المدينة للعدوى.

هذه ليست مناسبة للضحك أيّها القارئ المعاصر. فآمبرودجو دا روزاتِه يساير بكلّ بساطة المعارف الطبّيّة السائدة في تلك الحقبة، والتي كانت تقول إنّ الرياح وليس الجراثيم هي التي تنقل الأمراض، والرياح هي أيضاً التي تبعدها، حتّى إنّ أبواب مشافي ذلك الزمان كانت توجّه نحو الفاتيكان، كي تتمكّن روح القدس من عبورها بطريقة أسهل. لهذا فإنّ ليوناردو لم يستغرب سماع هذا التفصيل، وإن كان قد استغرب سماع غير ذلك من الأمور.

– الطاعون؟

رفع ليوناردو حاجبه واقترب من الجثة التي لا يبدو أنّها عارضت ذلك.

وقال ليوناردو: – يبدو من المؤكّد أنّه لم يمت بالطاعون. أرى أنّ مظهر الجثّة سليم وملوّن. سامحني يا صاحب السيادة على الدعابة، لكنّ هذا الرجل كان قبل أن يموت يتمتّع بصحّة تامّة.

– هذه هي المشكلة بالضبط. إنّه لا يبدو ميّتاً على الإطلاق. يقول المعلّم آمبرودجو إنّه ليس لديه فكرة عن السبب الكامن وراء موت هذا الرجل. وهو يستبعد أن يكون قد سمّم، أو قتل عن عمد، لكن ما الذي أوقف قلب هذا الرجل، فهذا ما لا يعرفه.

– قال المعلّم آمبرودجو إنّه لا يعرف. آهٍ.

لو حدث الأمر ضمن العائلة، أو في دكّان، لكان آمبرودجو دا روزاتِه قد تفوّه بكلمة عابرة لأنّه عادة ما يدّعي أنّه يعرف كلّ شيء، لكنّ هذا لم يكن ممكناً أمام إيل مورو. وكانت كلمة هذا الفلكيّ هي الوحيدة التي لم يكن إيل مورو يناقشها. لذلك فقد استأنف ليوناردو قائلاً:

– إذا كان المعلّم آمبرودجو، أقدر طبيب وجرّاح في كلّ شبه الجزيرة، قد قال هذا، فماذا بوسع رسّام مثلي أن يضيف؟

– لقد شاهده المعلّم آمبرودجو من الخارج فقط، وأريد أن تراه أنت من الداخل.

– من الداخل؟

– أليس صحيحاً إذاً يا سير ليوناردو أنّ التشريح يستهويك، وأنّك اعتدت كي تجعل رسومك حقيقيّة أن تعرّي الأجسام من جلودها كي ترسم معالمها؟ توقّفت أنفاس ليوناردو. لكن للحظة.

في ذلك الوقت كان التشريح البشريّ أشبه بالشعنذة[12] منه بالرسم عن الواقع. وكان موضع الأعضاء لا يعرف إلّا بصورة تقريبيّة وغير كاملة، وحين لا يعرفون شيئاً ما كانوا يضعون في مكانه رموزاً فلكيّة لا فائدة لها.

إنّه ليس ممنوعاً، لكنّه ليس أمراً بسيطاً. فتشريح الخيل أو الكلاب أو الخنازير كان ممكناً. ولم يكن تشريح المرأة أمراً صعباً كذلك. فمن المعروف أنّ الإناث ليس لهنّ روح، لذلك فإنّ تقسيمهنّ إلى أجزاء وأرباع من أجل مراقبة أعضائهن الداخليّة لم يكن مقيتاً ولا خطيراً في سبيل الحصول على الخلود في الحياة الأبديّة. أمّا تشريح الرجل فهذا أمر مختلف. وأن نجد جثّة ذكر كاملة ثمّ نفتحها لنراقب باطنها لم يكن أمراً سهلاً ولا خالياً من المخاطر، وخاصّة بالنسبة إلى شخص ليس طبيباً. بوسع ليوناردو أن يفعل ذلك، لكنّه لم يكن يسرّه أن يشيع ذلك بين الناس، خاصّة أنّ المحاكم الكنسيّة كانت تسرع في إساءة فهم بعض الأشياء.

– إنّ ملاحظاتي التشريحيّة تستند يا صاحب السيادة إلى العديد من

12– الشَّعنَذة أو النكرومانسية اسم من أصل يونانيّ وهو صنف من السحر يجري باستحضار أرواح الموتى أو استخدام الأموات في السحر كإحيائهم أو التسلط على جثثهم. غالبا ما تُستحضر الأرواح في الشَّعنَذَة للسؤال عن أمور غيبيّة أو المعرفة والحكمة أو القوة الروحانية، أو أسرار لا يعرفها إلا الميت المستحضَر. تسمى الشعنذة أيضا بسحر الأموات وتُنسب إلى أصناف السحر الأسود. (م) عن ويكيبيديا

الجثث التي تهيّأ لي أن أراها في فلورنسا، وكذلك بين أوجه التشابه بين الإنسان والحيوان نظراً لأنّني أستنتج أوجه التشابه والاختلاف بين هذا وذاك. هل ترى...

- اسمعني يا ليوناردو. لا يهمني ماذا تفعل أنت مع الجثث، على ألّا تصنع وحدك المادّة الأوّليّة انطلاقاً من البشر الأحياء. أنا لست أخا الكاردينال ولا صديقك الذي يجلس على عرش روما. أنا حاكم هذه المدينة، وعليّ أن أهتمّ قبل الأموات بالأحياء وأن أبذل ما في وسعي كيلا يصبحوا أمواتاً هم أيضاً. لذلك فإني أحتاج إلى مساعدتك.

- سامحني يا صاحب السيادة إذا سمحت لنفسي من جديد، لكنّه عليّ أن أنجز كثيراً من الأعمال التي ما زالت تنتظرني، وأوّلها الحصان البرونزيّ في ذكرى السيّد أبيك، لذلك فكلّ دقيقة ثمينة...

- إنّي أفهمك يا سير ليوناردو. إنّك تعمل كثيراً ولا تأخذ إلّا القليل، من الكثيرين، بمن فيهم أنا. حسناً إذاً يا سير ليوناردو، إنّي أشكرك على استعجالك في المجيء وسأتركك لتعود إلى أشغالك. إنّه وقت أزمات، أليس كذلك؟

- نعم، يا للأسف الشديد يا صاحب السيادة. هذا ليس زمناً سعيداً. وليس هناك إلّا القليل من الدراهم بين الأيدي. والذي يملك بعضها فهو يمسك به لنفسه حتّى لو كان قد وعد بدفعه.

- أعلم أنّه تبقّى لك دفعة كبيرة لدى أخويّة سان فرانشيسكو الكبير المسمّاة الحبل بلا دنس.

- ألف ومئتا ليرة، يا للأسف. أنا وكذلك الرجل الطيّب دي بريديس.

فقال لودوفيكو وهو يومئ برأسه متعاطفاً: - «هذا ظلم كبير». - ستدفع لكم غداً بالذات.

هذا وعد منّي.

كان هذا ما يستاء منه ليوناردو من لودوفيكو. أنّه لا يعد بشيء وعداً

صريحاً إلّا مقابل شيء آخر. كان يجعلك تشعر بواجب ردّ الجميل. كما لو أنّه يريد أن يشعرك أنّه هو السيّد، وأنّك تعرف هذا حقّ المعرفة، وأنّه سيبقى السيّد حتّى لو ترغب أنت بإظهار معرفتك بالأمر.

- إنّك يا صاحب السيادة طيّب جدّاً. إنّي أتساءل...

- قل.

- إذا رأيت ذلك مناسباً، يمكن لي أن ألقي نظرة في هذه الأثناء على هذا البائس المسكين حتّى من أمامه. فرغم أنّ المعلّم آمبرودجو حكيم خبير، فإنّ نظره لم يعد كما كان في سابق الأيّام.مكتبة سُر مَن قرأ

- امض، من فضلك.

وضع ليوناردو يده بشيء من التردّد على كتف الجسد، ليحاول معرفة مدى الاستجابة. ثمّ قام بحركة حاسمة بدا فيها من الخبرة أكثر بكثير ممّا بدا في كلماته، وطوّق جانب الجثة وقلبها دون أيّ عناء على ظهرها.

بقي ينظر إليها لعدّة ثوان وهو يحدّق فيها بتركيز شديد.

قال: - لا توجد أيّ علامة خارجيّة.

فأجاب لودوفيكو: - لا، لا توجد أيّ علامة في الخارج.

أي أنّ إيل مورو كرّر كلمات ليوناردو كما هي من الناحية النظريّة. لكنّ هناك فرقاً كبيراً في المعنى من الناحية العمليّة، ومن الصعب تجاهله.

كما كان من الصعب تجاهل رؤية أنّ شيئاً ما قد تغيّر في تعابير ليوناردو. فهو وإن بقي جادّ المعالم، فإنّه قد زالت من وجهه مسحة الخفّة التي كانت تغطّيه والتي كانت تُسعد من يقابله. كما لو أنّه رأى شيئاً غاب عن فلكيّ الدوق، لكنّه لم يكن على ثقة كاملة ممّا رأى.

التزم الاثنان الصمت لعدّة ثوان أخرى.

ثمّ قال ليوناردو بطريقة عمليّة كسر فيها حاجز الصمت: - إنّي بحاجة إلى بعض الأشياء.

- سأرسل إليك المحاسب في الحال.

- نعم، شكراً. أجاب ليوناردو من غير أن يثقل جوابه بإضافة ألقاب وضمائر لا لزوم لها.

- أرسلوا أيضاً في طلب جاكومو سالاي من مرسمي. علّه يأتيني بأوراقي وبأدواتي وبسكاكيني وبالأشياء الأخرى التي يعرفها، ولا تدعوا أحداً يدخل علينا غير هذين الشخصين.

خمسة

- حسناً، أدخلوا هذين الاثنين، قال ليوناردو بصوت منخفض وهو يراقب ما حوله.

لم تكن الغرفة مضيئة بالفعل، مثل تلك التي تركها ليوناردو، لا بل كانت أظلم وأبعد غرفة في كلّ القلعة.

على كلّ كان هو الذي اختارها عن قصد، وكان يعلم أنّ مضيفيه يقدّرون له ذلك.

كانت غرفة في الزاوية، ليس لها نوافذ، ونظام التهوية الوحيد فيها هو مدخنة تستطيع بالكاد أن تسحب دخان الحطب الذي كان يحترق فيها دونما توقّف ابتداء من الخريف وحتّى الربيع.

أطلّ آمر القلعة على الباب ثمّ أشار وهو يلتفت ليفتح الباب على مصراعيه ويعلن بصوت مرتفع:

- يطلب صاحب السيادة فيليب دوق كومين والسيّد بيرون دي باش قبولهما للمثول أمامك يا صاحب السيادة.

- تقدّم، تقدّم أيّها الدوق، قال لودوفيكو وهو يلقي تحيّة غير رسميّة على الإطلاق، وكأنّ صوته يعلو فوق صوت آمر القلعة، وهو يشير إليه كي يتركهم وحيدين. - كنّا ننتظركم بفارغ الصبر، فكيف تسير الأمور يا عزيزي فيليب؟

- دائماً بخير يا صاحب السيادة، وذلك بعون الله ورعاية صاحب الجلالة المسيحيّة الكبرى. وأنتم، كيف أحوالكم؟

– جيّدة، جيّدة جدّاً. يجب قبل كلّ شيء أن أستميحكما العذر على تأخّري في استقبالكما كما يجب، لكنّنا تعرّضنا لإزعاج صغير وكان علينا التدخّل شخصيّاً لإصلاح الأمور.

– كنت شديد اللطف إذ استقبلتنا بنفسك – أجاب بيرون دي باش بلهجة ليس فيها أيّ لكنة فرنسيّة، بل بلكنة تذكّر نوعاً ما بلهجة أهالي أومبريا[13]. والواقع أنّ السفير هو من مواليد مدينة أورفيتو لكنّه بقي في خدمة الفرنسيّين لوقت طويل حتّى تمّ اعتباره من أهالي ما وراء الألب في جميع النواحي. – لابدّ أنّ لديك ألف عمل آخر يشغلك.

فأجاب لودوفيكو وهو ينظر إلى السفيرين: – كلّها أقلّ أهميّة من الأمور التي يجب أن نتحدّث بها يا عزيزي بيرون ويا عزيزي الدوق. لا بل إنّي أردت في هذا الصدد استقبالكما في هذا المكان على انفراد. إذ إنّي مهتمّ بالحصول من السيّد دي باش على إحاطة أوّليّة عن الوضع، وهذه أشدّ الغرف انعزالاً في قلعتي المتواضعة. فلنجلس، رجاء.

هنا أشار لودوفيكو إلى طاولة ضخمة مصنوعة من خشب الكستناء السميك منصوبة وسط الصالة، وقائمة على عمود مركزيّ ثقيل على شكل مربّع مزخرف بزخارف نباتيّة وعبارة باللّاتينية[14] تقول: هديّة العرس إلى لودوفيكو من حميه. وهي من أفضل الهدايا قبولاً. لذلك فقد قال إركولِه وهو يضرب بيده على سطح الطاولة: إنّها من أفضل صديق. وعندما تجلس لتتكلّم من أمام هذه الطاولة فأنت تعلم علم اليقين أنّ كلامك مسموع.

نظر دوق كومين وبيرون دي باش بعضهما إلى بعض. كان كل منهما دبلوماسيّاً جوّالاً ويعرف لهذا أنّه ليس من المناسب أن يناقشا تفاصيل وضع معقّد مباشرة بعد وصولهما، وهما مرهقان جائعان ومنهكان بسبب ساعات طويلة أمضياها وهما يعدوان على صهوة الحصان. أدرك لودوفيكو أنّهما محرجان، فابتسم وهو يباعد بين يديه.

13– منطقة هامة وسط إيطاليا. (م)

14– HERCULES DVX FERRARIAE DONAVIT.

– لا حاجة بي للقول إنّ بوسعكما أن تستخدما هذه الغرفة كما يروق لكما ولمناقشة الأمور فيما بينكما، على أن تخبراني خلال اليومين التاليين تفاصيل طلبات صاحب الجلالة المسيحيّة الكبرى وذلك لنناقش ذلك كما يجب. أمّا الآن فأودّ أن أعرف كيف هو الوضع تحت جبال الألب وما إذا كانت الأمور هناك لا تزال لمصلحتنا.

تنفّس السفيران الصعداء من الطمأنينة. كان بيرون دي باش على وشك البدء بالكلام، لكنّ الدوق سبقه، بعد أن وضع يده على كتفه.

– نشكرك يا صاحب السيادة على ضيافتك. إذا كان بوسعي أن أسمح لنفسي، فإنّي أودّ تذكير سيادتك أنّ هناك في مقرّ المساعدات مساعديْن لنا ميدانيّيْن، هما روبينوت وماتينيت. عسى أن نتمكّن من مقابلتهما في وقت لاحق...

– كما تريدان. يمكن لكما أن تذهبا إلى مكان تواجدهما، لكنّي أظنّ أنّه من الأنسب لمقامكما حملهما على أن يأتيا إليكما. سأعطي أمري للخدم كي يسهّلا مجيئهما إلى هذه الغرفة.

فأجاب دوق كومين وهو يجلس: – إنّك يا صاحب السيادة لطيف بالفعل. لذا عليك يا بيرون أن تعلم سيادته، وأن تعلمني أيضاً. فنحن لم نتبادل حتّى الآن ولا نصف كلمة.

– سألتني يا صاحب السيادة عن الوضع. إنّه أكثر من ملائم. فلورنسا ما زالت كما أخبرتك في حزيران. مجلس السبعين ما زال على موقفه الغامض، ولكن ليس هذا هو المهمّ. لأنّ ما يهمّ هي إرادة الشعب، والشعب كلّه مع مليكنا صاحب الجلالة المسيحيّة الكبرى.

– وماذا يقول بييرو؟

– سامحني على صراحتي، لكن ليس لبييرو أهميّة تذكر. فأهمّ رجل في فلورنسا الآن هو الأخ جيرولامو سافونارولا. وسافونارولا يسمّي شارلز الثامن رسولَ الله، وسيعاقب من يوسّخ يديه بروث الشيطان.

فأيّده لودوفيكو وهو صارم الوجه.

يحدث في كثير من الأحيان أنّ رؤساء حكومات ورجالاً أقوياء متنوّرين ومستبصرين أصيلين ممّن يعرفون كيف يجمعون بين العبقريّة والسلوك العمليّ يعقبهم ابن بكر أحمق لا يملك لا تلك العبقريّة ولا ذلك السلوك. وقد يكون الأمر في عصرنا الحاليّ مشكلة خاصّة، لكنّه كان يمكن أن يكون في عصر النهضة مصيبة عامّة لأنّ السلطة كانت تنتقل من يد إلى أخرى عن طريق الإرث.

لذلك فعندما مات لورينزو - الذي لم يكن يُعرف بعد بلقب الرائع[15] - تبعه ابنه بييرو، الذي لُقّب في الحال باسم الأحمق. كان قويّاً لكنّه غبيّ، أي عكس أبيه تماماً.

أضاف بيرون دي باش: - ليس لديّ ما أضيفه على الذي قلناه في حزيران. فالوضع إذا كان قد تغيّر، فإنّما تغيّر لما هو أفضل كما سبق أن أسلفت. لذلك فلا يوجد أحسن من هذا الوقت إذا أردنا أن نجتاز إيطاليا وأن ندخل في مملكة آراغونا. لقد مات البابا لتوّه وكان مستاء لأنّ الآراغونيّين في نابولي لم يكونوا يدفعون له العشر، ويبدو أنّ الجديد إيل بورجا مهتمّ بواحدة اسمها فانّوتسا أكثر من اهتمامه بتحرّكاتنا...وهكذا تابع بيرون حديثه المغرض وهو يريد على ما يبدو أن يعبر شبه الجزيرة[16] مملكة بعد مملكة.

لكنّ إيل مورو سرعان ما قاطعه: - حسناً أيّها الدوق، أيّها السيّد، كلامك كالموسيقى في أذني، موسيقى رائعة مثل مؤلّفات ابن بلدكم جوسكان إيل بيكّاردو الذي سيمكنكما إذا رغبتما أن تسمعا واحدة جديدة

15- لورينزو دي بييرو دي ميديشي، الملقب لورينزو الرائع Lorenzo il Magnifico حاكم فلورنسا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، أديب وراع كبيرللفنون، ينتمي إلى سلالة ميديشي. هو أحد أفراد الأسرة التجارية القوية النفوذ الغنية التي سيطرت على فلورنسا طوال قرن ونصف القرن، ولعله كان أبرز أعضاء هذه الأسرة. فحياته كانت حافلة وخصبة. (م) عن ويكيبيديا

16- الإيطاليّة. (م)

من ميلودياته. إنّي أشكركما على الوقت الذي منحتماني إيّاه حتّى قبل أن تسترخيا وتستريحا، وإنّي بانتظاركما هذا المساء على العشاء. سنقيم مأدبة سخيّة تتخلّلها عروض أسخى يجريها بهلوانات القصر. أمّا الآن فيمكن لكما استعمال قصري وهذه الغرف على الوجه الذي يرضيكما. تحيّاتي أيّها السيّدان.

ثمّ نهض وتوجّه نحو الباب.

بقي دوق كومين يفكّر للحظات والتفت بعدها نحو ذلك الذي يكاد يكون مواطناً إيطاليّاً.

- بيرون.

- قل لي أيّها الدوق.

- ما هو رأيك؟

- إنّها رفاهيّة أيّها الدوق. كنت أخشى أن نضطرّ أن نتحمّل على العشاء تسبيحات من إعداد جوسكان دي بريه. أفضّل بكثير عروض البهلوانات، على الأقلّ فهي ستبقينا يقظين.

- أجل يا بيرون، أشاطرك الرأي في هذا. لكنّي كنت أعني... - ماذا كنت تعني؟

- ألا يبدو لك أنّ لودوفيكو كان متوتّراً؟

- أنا متوتّر بالفعل يا غالياتسو. ماذا لو كنت مكاني. ها أنذا مع ميّت وجدوه في فناء البيت ميّتاً ولا يعرف سبب موته، وهذا ليس أساساً مدعاة للسرور.

- ما هو رأي المعلّم آمبرودجو؟

- يقول المعلّم آمبرودجو إنّه ليس الطاعون، لكنّي أريد سماع رأي سير ليوناردو أيضاً. إنّي لا أخاف ممّا أعرفه. لكن ما لا أعرف هو الذي أخشاه يا غالياتسو. عندما أرى أمرين يحدثان الواحد بعد الآخر، فإنّي لا أستطيع إلّا أن أتساءل ما إذا كان الثاني قد حدث بسبب الأوّل.

- الثاني؟ وما هو الأوّل؟

- الأوّل هو أنّني اكتشفت أنّ هذا الرجل الذي كان قليل الأدب بحيث جاء ليموت في فناء بيتي، كان قد طلب أن يمثل أمامي ليس أبعد من البارحة.

- هل أنت متأكّد؟

- طلبت من بوتّا أن يدقّق في السجلّات. ثمّ مدّ لودوفيكو ورقة بلون مصفرّ، مكتوبة بخطّ دقيق وصغير جدّاً كالذي يكتب به شخص بخيل جدّاً، هذا ما فكّر به غالياتسو سانسيفيرينو. إنّ الورق مرتفع الثمن، لكنّ هذه مبالغة. - رامبالدو كيتي، رسّام وطبّاع. جاء ليراني، ومات في اليوم التالي.

- وهل هذا سبب يثير قلقك؟ اسمعني يا لودوفيكو. كم عدد الأشخاص الذين يطلبون المثول في جلساتكم كلّ أسبوع؟

- كثيرون، عدّة عشرات من الأشخاص.

- وكم عدد الذين يموتون كلّ أسبوع هنا في ميلانو؟

- نعم، الحقّ معك يا غالياتسو. ومع ذلك... آه، ها هو. تفضّل، تعال أيّها المعلّم آمبرودجو.

عبر آمبرودجو دا روزاتِه الغرفة بكبرياء وبسحنة جنائزيّة أكثر من العادة. كان يبدو أنّه تجسيد للفأل السيئ.

- تحت إمرتك يا صاحب السيادة.

- أخبرني إذاً أيّها المعلّم آمبرودجو، ما هي توقّعات النجوم؟

- إنّه مرض يا صاحب السيادة. لا يترك موقع عطارد مجالاً للشكّ. هناك تهديد واضح للمدينة، لكن ليس نتيجة عداوات أو عنف، بل هو قادم من داخل المدينة بالذات.

- مرض؟ وما هو نوع هذا المرض؟

- لا تنبئ النجوم عن هذا الأمر يا صاحب السيادة.

فقال غالياتسو بوجه تغمره الشكوك: - حسناً، يبدو لي أنّ النجوم تعرف أشياء كثيرة بالفعل، رغم أنّها موجودة هناك في الأعلى.

تدخّل هنا لودوفيكو وقال بلهجة المصالحة: - أيّها الكابتن، إنّ المعلّم آمبرودجو يقوم بما يعرف حقّ المعرفة.

فأجاب غالياتسو: - أي أنّه يحكي ترّهات. لو كنت مكانك...

فأجاب لودوفيكو بهدوء لكن بعد أن وضع مسافة بينه وبين الثاني: - أنا في مكاني يا غالياتسو. لكن أنت الذي لست سيّد أقوالك.

تلا ذلك لحظات قليلة من الحيرة المفهومة، فوضع لودوفيكو يديه على مسند المقعد بينما بقي غالياتسو يحدّق بشكل ثابت بنقطة على الحائط، تجنّباً لتلاقي نظراته بنظرات حميه ونظرات المنجّم.

- أشكرك أيّها المعلّم آمبرودجو على نبوءاتك القيّمة. بوسعك الانصراف. غالياتسو، أسرع رجاء لمعرفة وضع الميّت. لا ضرورة لأن أطلب منكما أيّها السيّدان عدم التحدّث بهذا الأمر ولا فيما بينكما، إلّا بحضوري.

- حتماً، بكلّ تأكيد. لن نتكلّم بهذا مع أيّ مخلوق.

- حسناً، فالوقت الآن هو وقت عمل وليس وقت كلام.

- ماذا تظنّ أنّك فاعل؟

نظر مساعدا الدوق كومين الميدانيّين بعضهما إلى بعض قبل أن ينبسا ببنت شفة.

- علينا في البداية أن نرى الرجل الذي يجب أن نهتمّ بأمره - قال واحد من الاثنين، القصير بينهما. كان اسمه روبينوت، وكان رجلاً بديناً صغير القدّ، وكان يعتمر طاقيّة من صوف يغطّي بها رأسه الأجرب، ولم يبق في فمه إلّا ستّ أو سبع أسنان رغم أنّه صغير في العمر الذي يتراوح

تقديراً بين الخمس والعشرين والخمسين سنة على وجه الدقّة. وأردف:
- لكن لا أعتقد أنّ هناك مشاكل، إذا فهمت من خلال وصفك فهو رجل ذو جسم عاديّ ومجبول على الشرود.

- وإذا كانت هناك مشاكل! هاك قد وقعنا! قال الثاني، وهو فتى أسمر لكنّ بشرته فاتحة اللون وعينيه بزرقة السماء، ويظهر التصميم على تعابير وجهه فيبدو أنّه يعرف ماذا يفعل عندما يطلب منه ذلك وخلال وقت مناسب. لكنّ جوفريه ماتّينيت ليس صقراً، وإن كان على عكس رفيقه في المغامرة، أي طويل القامة، نحيل القدّ، قويّ الشكيمة ومتناسباً في المظهر. وفي كلّ الأحوال فقد كان أحمق جدّاً هو أيضاً.

- هاك قد وقعنا! لا، يا عزيزي. إذا حدثت مشاكل فعليكما أن تنصرفا وتبتعدا بعيداً. قال كومين وهو ينظر إلى الفتى نظرة جادّة. - تذكّرا أنّه يجب ألّا تلمس شعرة واحدة من شعر سير ليوناردو. وعليكما أن تحصلا على النتيجة بكلّ ما يمكن من حصافة وحكمة.

فقال روبينوت: - ثق بي سيّدي كومين، إنّي قادر على نزع طاقيّة الدوقة من على رأسها من غير أن يلاحظ أحد شيئاً. فما بالك بمفكّرة أو دفتر. لكن يجب أن يكون صاحبهما شارد الذهن، أو منهمكاً في عمل آخر يستغرق انتباهه. يمكن لنا أن نعمل هذا المساء خلال العشاء. أخبرني، هل ليوناردو هذا نهمٌ يحبّ الطعام؟

- لا، على الإطلاق، إنّه لا يأكل اللحوم ورجل يشتهر بتحفّظه.

- فهمت. هل يعهد بنفسه للشراب؟ أي هل يزداد كأساً بكلّ سرور وأكثر ممّا ينبغي؟

- لا أظن ذلك. عليكما أن تنتبها أيضاً أنّ النادل هو من يصبّ النبيذ خلال حفلات العشاء الرسميّة، وليس بوسعكما أن تصبّا لليوناردو على هواكما.

بدا أنّ روبينوت قد أخذ بالتفكير قليلاً: - هذا سيّئ. وهل من عروض

خلال العشاء؟ بهلوانات، ألعاب، شعوذة؟ يمكن له أن يؤخذ بها خلال متابعته لها؟

- ممكن، لكنّه صعب. ذلك أنّ إخراج مثل هذه التسالي يعهد به إليه على ما أعلم. بل إنّه اعتاد أن يتجوّل بين الموائد ليرفّه عن الضيوف المميّزين بنكاته. إنّه رجل في غاية اللطف. لا بل أظنّ أنّه ألطف رجل في ميلانو كلّها.

- فقال روبينوت: - «تأتي فينوس حين لا يأتي باخوس»، ألا يمكن لك إحضار مومس لا يعرفها من خارج القلعة؟

هزّ دوق كومين رأسه وقال: - لا يمكنني كما أنّ الأمر لن ينفع في شيء، لا يمكنني لأنّ إيل مورو لا يسمح بحضور مآدب السفراء إلّا لنساء من قصره. ولا ينفع في شيء لأنّ سير ليوناردو له ذوق على ذوق مدينة البندقيّة، كما أنّ النساء لا تغرينه. وربّما لا حتّى الرجال، على ما يقال.

- حسناً أيّها الدوق، عليك إذن بحمله على الكلام. عندما يقترب منك، عليك أن تحاول أن تجعله يتحدّث، وأن تعطيه الحقّ حتّى عندما يقول أكبر الحماقات في هذا العالم.

فقال بيرون دو باش وهو ينظر إلى السقف: - من الصعب أن يتفوّه سير ليوناردو بحماقات.

- هذا أفضل. حاول إذاً أن تثيره بأيّ طريقة أيّها الدوق. وهنا ابتسم روبينوت فظهر مقيتاً كما لم يكن من قبل. وهذا ما يحدث عندما يكون المرء قد فقد عشرين سناً من بين اثنتين وثلاثين. ثمّ أردف: - ينسى الناس العالم كلّه عندما يتحدّثون، وهنا يمكن قلع ضرس شخص من غير أن ينتبه لذلك، من شدّة تركيزه على الثرثرة بأموره. ينطبق هذا على كلّ الرجال، كلّهم. وإذا كان هذا الإنسان رجلاً فلابدّ إذاً من وجود طريقة للنيل منه. حتّى لو كان اسمه ليوناردو دافنشي.

- ليوناردو دافنشي؟

- قال الحارس الواقف أمام باب القاعة وهو يبتعد قليلاً عن الباب: «إنّه ما زال في الداخل أيّها الكابتن». دخل غالياتسو من دون أن ينبس ببنت شفة فرأى ليوناردو واقفاً قرب الطاولة، بوجه عابس.

- احترامي سير ليوناردو. هل انتهيت من فحص الجثّة؟

أجاب ليوناردو بالعبوس نفسه، وإن كان من النادر أن يرى قاتم الوجه بهذه الطريقة: - نعم، في هذه اللحظة بالذات، تحت أمرك يا صاحب السيادة.

نظر غالياتسو سانسيفيرينو حوله. كانت الجثّة مسجّاة على الطاولة مقطّعة الأوصال، والقفص الصدريّ مفتوحاً بينما الأعضاء موزّعة في الأنحاء، كأنّها ملابس سحبت على عجل من الدرج. كان منظراً لابدّ أن يدوخ المرء لمرآه أيّاً كان، وفي الواقع فقد كان سالاي المسكين شاحب الوجه ومضطرباً.

- إذاً يا جاكوميتّو، ألا ترى أنّ البشر ليسوا جميلين في الداخل، أليس كذلك؟

فأجاب الفتى وهو يمرّ قربه بانحناءة سريعة: - لا يا صاحب السيادة، أيّها السيّد غالياتسو.

نظر غالياتسو إلى الفتى الذي كان يضع الأدوات في مكانها، وكان أشدّ شحوباً من الميّت، وقال له: - لا تتقيّأ عليّ، هذه وصيّة، فثيابي جديدة. وغد صغير. انقضت سنتان أو ثلاث منذ أن سرق محفظته وفيها حوالي نصف لير، لكنّ غالياتسو سانسيفيرينو ليس من النوع الذي ينسى شيئاً ما بسهولة، في الخير والشرّ. وإذا كان ذلك الوغد الصغير لطيفاً، فإنّه قد صنّف في جانب الشرّ. - بماذا تخبرني إذاً يا سير ليوناردو؟ ما هو المرض الذي قتل هذا المسكين البائس؟

أجاب ليوناردو وهو ينظّف يديه بخرقة: - ماذا بوسعي أن أقول أيّها الكابتن؟ لم يكن من الواضح كيف تمكّن من ذلك، فسالاي كان ملوّثاً

بالدماء وغير ذلك من رأسه إلى أخمص قدميه، بينما بقي ليوناردو نظيفاً ناصعاً كما دخل. – هل تسألني ما هو المرض؟ إنّه مرض يصعب بالفعل أخذ الحيطة منه أيّها الكابتن.

– هل هو *ذلك*؟

فأجاب ليوناردو وهو يلقي بالخرقة على الطاولة قرب الجثّة: – بل هو أسوأ أيّها الكابتن. إنّه شرّ البشر.

– اسمع، هذا الرجل المسكين، مات قتلاً.

– قتلاً؟ قال غالياتسو مندهشاً.

– قتلاً. بل خنقاً على وجه الدقّة. مات بسبب نقص الهواء في الرئة.

– اسمح لي يا سير ليوناردو أن أقول إنّ هذا مستحيل. لقد رأيت مرّات كثيرة معالم رجل مخنوق، ولم تكن أبداً صافية كما هو الحال هنا. – لكنّ غالياتسو لم يذكر أنّه سبق أن قام هو نفسه بخنق سيّدين على الأقلّ، فلم يكن هذا مناسباً في تلك الآونة – لا اللسان ولا العينين ولا الوجه...

– العفو، لكن ربّما لم أكن واضحاً بما فيه الكفاية. فأنا لم أقل مات بعصر الحلق، ولا خنقاً بكلتا اليدين، بل مات مكتوم الأنفاس.

– حتماً يا سير ليوناردو. لكن حتّى في هذه الحال، إذا أدخلوا شيئاً ما في فم المسكين، فلابدّ أن تتأثّر العينان، و...

– لا، لا. لا شيء من هذا أبداً. لا يوجد أثر لقماش بين الأسنان كما لم يفتح فمه بالقوّة ولا توجد كدمات ملوّنة. أستميحك العذر أيّها الكابتن، لكن لابد أنّ شيئاً مختلفاً قد حدث.

– شيء مختلف، وما هو حبّاً بالله.

– آه. هل تسألني أيّ شيء؟ هاك الجواب، أي أنّه ليس من السهل تفسير الأمر.

أظنّ أنّه من المناسب أن نذهب معاً إلى صاحب السيادة.

من مكتب جاكومو تروتّي

إلى إيركولِه دي إيست، دوق فيرّارا، فيرِّه
سيّدي عظيم التبجيل والوقار

تمّ في هذه الليلة إقامة حفل عشاء فخم بكامل الأبهة، وذلك للترحيب بسفارة الفرنسيّين، ودوق كومين والسيّد بيرون دي باش. وقد قدّمت كمّيّات كبيرة من الطعام والنبيذ تثير السرور لمجرّد رؤيتها، وفي الواقع فقد جاء عدد كبير من الناس إلى القلعة لمشاهدة المأدبة والإعجاب بها.

وضع جاكومو تروتّي القلم ودلّك يده بحكّها على ظاهر فخذه. كان الوقت في أواخر تشرين الأوّل، وكان البرد قد بدأ يشتدّ في تلك الساعة، لذلك فإنّ خلع القفاز من أجل الكتابة كان في حدّ ذاته نوعاً من العذاب.

كان سفير فيرّارا يحب الاستيقاظ باكراً في الصباح ليكتب إلى سيّده بذهن صاف، وبهدوء بعيداً عن الأحداث التي جرت في اليوم السابق والتي عليه أن يخبره عنها. كانت رسالة هادئة وغير رسميّة يجب أن يرسلها مع حصان البريد الصباحيّ في حوالي الساعة الثالثة. لذلك فقد عنون الرسالة بمصطلح فيرِّه الذي يعني تحميل وليس بمصطلح آخر يعني الإسراع.

قام بعض الفتية بتقديم ألعاب بين الطبق والآخر بالكرة والقفز والوثب وقد أثار القزم كاتروتسو الكثير من الضحك الإراديّ وغير الإراديّ لأنه وثب خلال اللعب على طاولة أحد الفرنسيّين فتحرّك هذا بعنف ممّا أدّى إلى سقوط كاتروتسو عن الطاولة ووقوعه على الأرض بين الضحك ونكات الضيوف.

كان دوق دي كومين جالساً إلى جانب ليوناردو ابن سير بييرو وكان الاثنان يتحدّثان فيما بينهما بأمور عامّة وخاصّة، لكن بأمور المال بشكل

أساسيّ، وأظنّ أنّ كومين كان يريد أن يعرف كم كان ليوناردو يكسب ومتى يتناول المال، وأعتقد أيضاً أنّ أسئلته كانت لمعرفة أحوال صاحب السيادة لودوفيكو وكيف سيعدّ العدّة للحرب.

وضع سفير فيرّارا ريشة الأوزّ مرّة أخرى، ونهض عن المكتب وذهب نحو النافذة ورفع ستارتها.

في الخارج كان الفجر يداعب العتمة ليبعدها بلونه الورديّ ويصبغها بزرقة الصباح، لا تصدّه إلّا بضعة غيوم متفرّقة غير ذات شأن.

لكنّ جاكومو تروتّي لم يتمكّن من معرفة كيف يمكن للبعض أن يتنبّؤوا بالطقس من خلال مراقبة السماء. كأن يقولوا: «غداً ستمطر»، «سيعود الصحو بعد يومين أو ثلاثة»، «هذا جوّ ثلج». خاصّة أنّ الغيوم والسماء والرياح كانت جميعها مجرّد تفاصيل خرساء بالنسبة إلى تروتّي ولها آليّات ذات عواقب غير أكيدة بل وخادعة وحتميّة.

لكنّ تروتّي كان يحسن قراءة الناس. فهم نواياهم من خلال حركاتهم. من خلال أقوالهم وكيف يقولونها. لا سيّما مدى توافق هذين السلوكين، إذا اتّفقا بعضهما مع بعض وكانا مناسبين للسياق.

وهكذا فإنّ تروتّي كان على استعداد لأن يراهن برأسه على أنّ ذين الفرنسيّيْن جاءا ليطلبا قرضاً. ومن هنا ذلك الثناء المتكرر، والمديح المفتعل، وذلك الإطراء الذي بدا أنّه ترك وراءه ملابس إيل مورو مليئة ببقع دهنيّة كبيرة. من ناحية أخرى لم يكن سرّاً أنّ لودوفيكو كان يصل إلى ما يريده بواسطة أمواله عندما لا يستطيع بلوغ ذلك بسلطانه. أمّا بقيّة الأمور، مثل الهموم والتحضيرات وأحاديث المساعدين الميدانيّين، فكلّها حجج. لابدّ أنّهما جاءا بحثاً عن المال، والباقي كلام. لكنّ الوقت لم يحن لفقدان التوازن أمام إركولِه، أو وضعه في حالة تأهّب فيما يتعلّق بالوضع الماليّ لصهره وابنته المعبودة. لكنّه سيكون أشدّ دقّة في الغد إذا وجد أنّ الحقّ معه.

في حفل العشاء هذا، كان سير ليوناردو غاضباً، ربّما لأنّ الأسئلة بدأت تزعجه، أو ربّما لأنّ أحد أتباع كومين أراق زجاجة نبيذ صغيرة على ثوبه المفضّل، وفعل ما هو أسوأ من ذلك عندما حاول أن يساعده في تنظيف ثوبه، لدرجة أنني سمعت سير ليوناردو الذي اعتاد أن يكون لطيفاً وهو يوجّه إليه بعض الشتائم التي أعتقد أنّها تستخدم في منطقة توسكانا والتي ترسل السامع إلى أماكن معيّنة يمنعني الأدب واحترامي لسيادتك أن أكرّرها هنا.

وبدا لي على أيّ حال أنّ لودوفيكو أيضاً كان بارداً مع ليوناردو، وإذا كنت أجهل سبب ذلك، فإنّي أظنّ أنّه يتعلّق بالقصّة المعروفة عن الحصان البرونزيّ الشهير، وهذا ما أدّى إلى فساد العلاقة بين الاثنين.

نظر جاكومو تروتّي من جديد إلى السماء. لربّما كانت الغيوم قد تحرّكت. لربّما أمطرت، ربّما بعد قليل، أو ربّما لن تمطر. على أيّ حال لن يكون بوسعه فعل أيّ شيء في هذا الصدد. أمّا بين البشر فيمكن له، هو تروتّي، أن يتدخّل ويعمل. يمكن له أن يشعر، وأن يسمع، وأن يفهم وأن ينتظر وأن يتدخّل بالعمل. أو بالأحرى أن يفسح المجال للعمل. يكفي أن يقول كلمة هنا، وأن يشير بإشارة هناك، وأن يصمت في اللحظة المناسبة. إنّه نوع من التشحيم الاجتماعيّ، هكذا كان يرى الأمور جاكومو تروتّي. ليس إناء من فخّار بين أوانٍ من حديد، حيث يمكن له أن يسحق، بل زيت موجود بين جزأين من آلة، من مسنّنات فيها، من إحدى تلك الرافعات التي كان سير ليوناردو يعرف أن يصمّمها على أروع ما يكون. وبما أنّه سائل فإنّه لن يتعرّض للتحطيم، بل إنّه يسهّل على جزأين قويّين ومتينين من الآلة أن يعملا للهدف نفسه، رغم أنّهما يعملان بطرق مختلفة.

هذا مثل المال. فالمال بالنسبة إلى جاكومو تروتّي كان دائماً نوعاً من زيت التشحيم. علاجاً مناسباً لتحقيق التوازن بين المتقايضين. فأنا عندي شيء يساوي عشرة وأنت عندك شيء يساوي ستّة، أعطني أربعة دراهم

ثمّ نتّفق على المقايضة. لهذا السبب نجد أنّ المال يفيد. أو هكذا رآه، هو تروتّي، على الدوام. وعندما ينفد المال فإنّ الآلة تتعطّل. ولربّما كان هذا هو سبب البرودة التي أصابت علاقة لودوفيكو بليوناردو دافنشي.

ولكن قد يكون هناك سبب آخر لهذا الأمر المؤسف. التأكّد من وجود جثة رجل هو الرسّام رامبالدو كيتي، وقد عثر عليها في القلعة، ويقال إنّ كيتي مات بسبب لعنة إلهية. أثار الأمر الكثير من الحزن لدى لودوفيكو الذي، كما تعلم سيادتك، يميل إلى التطيّر ويرى نبوءات الشرّ في كلّ مكان. على أيّ حال فإنّ الوضع في القلعة ليس على ما يرام، لذلك فإنّ وليمة العشاء التي كانت مترعة بالنبيذ كانت فقيرة بالسرور، بل إنّها انتهت قبل الوقت المحدّد.

رأيت بعد العشاء أنّ لودوفيكو يقوم بملاطفة بياتريشِه بالعناق ومظاهر مودّة أخرى، ثمّ ذهبت ابنتك المبجّلة إلى غرفة في قلعة روكّيتّا عن طيب خاطر. لم أر في المأدبة السيدة انكونتيسة بيرغاميني أي تشيشيليا غالّيراني. القلعة واسعة ومحروسة بشكل جيّد ولم تكن هناك لأجتمع بآمِرها ولا أن أرى ما حولها.

فليفهم من يريد أن يفهم. أمّا أنا فلم أفهم بعد يا إركولِه الغالي ما إذا كانت ابنتك مخدوعة وجرت عليها الخيانة، لكن على ثقة أنّه إذا كان إيل مورو يريد أن يخدعها فهو سيفعل، رغماً عن أنفي، وأنف ابنتك وأنفك أيضاً، يا إركولِه دوق فيرّارا،

مكتبة
t.me/soramnqraa

دائماً تحت رعايتكم
ميديولانو، عشرين تشرين الأوّل 1493
خادمك جاكومو تروتّي

ستّة

- ما أجمل أن ألقاك يا سير ليوناردو.

- أنا المسرور أيّتها الكونتيسة تشيشيليا. أشكرك على قبولك استقبالي بهذه السرعة.

كانت تشيشيليا تسير تحت الرواق واقتربت من ليوناردو بما يكفي للتحقّق من أنّ وجهه كان مقطّباً. في أنحاء الرواق الداخليّ لقصر كارمانيولا الهادئ والساكن، كان كلّ شيء على عكس الحال في ساحة بورتا جوفيا.

أخذت تشيشيليا غالّيراني يدي ليوناردو الباردتين الصلبتين بين يديها الدافئتين المرنتين، وقالت له: - العفو، لكن أرجو ألّا يكون هناك أسباب خطيرة وراء هذه الزيارة. كنت بانتظارك في الغد لسماع الموسيقى. فما هو السبب الذي جاء بك إلى هنا بهذه السرعة؟

- أفضل أن نتحدّث بهذا في مكان منعزل يا كونتيسة.

فسألت تيرسيلّا إحدى وصيفات تشيشيليا، وهي أجملهنّ لكن أشدّهن مشاكسة: - هل حدث أمر ما في القلعة؟

- لا تضايقي سير ليوناردو يا تيرسيلّا...

- عن ذلك الرجل الذي وجدوه ميّتاً في ساحة السلاح، أليس كذلك؟ هل صحيح أنّه مات بسبب غضب من الله؟

- من أخبرك بهذا يا تيرسيلّا؟

فأجابت المرافقة وهي تهزّ كتفيها: - هذا ما يعرفه الجميع، بل لا يجري حديث الآن في بروليتّو إلّا عن هذا الأمر، كما جاء الراهب جواكّينو على ذكره في موعظته. وقد شوهد المعلّم آمبرودجو وهو يجتاز القلعة بسرعة كبيرة، يسير وهو يكمل ارتداء ثيابه.

فقالت تشيشيليا وهي تتضاحك: - هل ترى يا سير ليوناردو، كنت أقول لك دائماً إنّ القلعة لا يمكن لها أن تحتفظ بسرّ. هناك كثيرون يتجوّلون فيها، أشخاص عديدون يتناوشون. عندما كنت أسكن في القلعة كان يجوب في أنحاء ساحة السلاح قرد ضخم بزيّ المسلّحين.

فقال ليوناردو: - هذا ما زال موجوداً، لكنّ صاحب السيادة يقول إنّه أشدّ انضباطاً من نصف خدمه، وإذا حكمت على الأمر من خلال ما أسمعه فعليّ أن أقول إنّ لديه ما يبرّر هذا القول.

- تفضّل إذاً. سأذهب يا تيرسيلّا أنا وسير ليوناردو إلى الصالة الزرقاء. لا تزعجينا لأيّ سبب مهما كان. - كما تشائين أيّتها السيدة الكونتيسة.

قالت تشيشليا وهي تتضاحك: - حسناً يا سير ليوناردو، هل مات أحد في القلعة بأعمال إلهيّة؟

تهالك ليوناردو على مقعد من الخشب والقماش غير مريح على الإطلاق كان يفضّله لأسباب غير معروفة على الأرائك الجلديّة الوثيرة المنتشرة في أنحاء الصالة، ثمّ قال: - وكيف ذلك؟ ما أسهل القول إنّ الغضب الإلهيّ هو دائماً وراء الأمور التي لا يفهمها البعض. كانوا يفعلون هذا قبل قرون عندما يرون الكسوف. ثمّ فهمنا أنّ بوسعنا التنبّؤ بحركات النجوم. وبما أنّنا لم نكن وقتها نفهم شيئاً ولا نتنبّأ بشيء إلّا بحركات النجوم، فقد غلبت علينا القناعة أنّ بوسعنا أن نستطلع أقدار البشر من حركات النجوم. هذا يشبه قليلاً تلك النكتة حيث يبحث رجل داخل بركة ماء في زقاق، على ضوء شعلة مغروزة في الجدار. عمّ تبحث أيّها الرجل الطيّب؟ فيجيب إنّي أبحث عن دوقيّة ضيّعتُها. وهل ضيّعتها هنا في داخل هذه البركة؟ فيجيب لا، لقد سقطت منّي هناك في بركة وسط

الزقاق. فلماذا تبحث عنها هنا إذاً؟ فيجيب الرجل وهو يشير إلى الشعلة: لأنّه يوجد هنا ضوء.

وضعت تشيشيليا يدها على رقبتها وضحكت ضحكة مدروسة، ثمّ نظرت إلى ليوناردو في لفتة خبيثة.

- هل لديك شيء ربّما ضدّ فلكيّ الدوق.

فأجاب ليوناردو: - إنّه حمار مُسْرَج لا يصلح إلّا للتفوّه بعبارات منمّقة طنّانة. وأخشى أنّي ارتكبت خطأ فظّاً.

- أخبرني إذاً. أخبرني عن هذا الميّت. بل وقبل كلّ شيء ما هو سبب موته؟

- قتلاً، يا صاحب السيادة.

- قتلاً؟

- خنقاً، على وجه الدقّة.

نظر لودوفيكو إلى غالياتسو الذي بادله النظرة بنظرة فارغة من المعاني.

- لكن ليس عليه معالم رجل مخنوق.

- لا بالتأكيد، لأنّه تمّ خنق الرجل بواسطة ضغطٍ آليّ.

- فسّر لنا الأمر يا سير ليوناردو.

- أنت تعرف يا صاحب السيادة أنّ الرجل يتنفّس بإدخال الهواء إلى صدره بطريقة آليّة، أي عن طريق توسيع الصدر وزيادة حجمه. وهنا وضع ليوناردو يديه على صدره وأخذ نفساً عميقاً، وهو يظهر براحتي يديه حركة أضلاعه. إنّ طبيعة حركة الماء والهواء متشابهة، فكلاهما يميل إلى ملء أيّ حاوية يوضعان فيها، لكن هناك فرقاً بين الهواء والماء، فبينما يمكن ضغط الهواء وسحقه وإنقاص حجمه، فإنّ ذلك لا يمكن مع الماء. يمكن لنا مثلاً أن ننفخ قليلاً في مثانة خنزير، وأن نربطها بخيوط ونثنيها بين يدينا إلى أن تصبح صغيرة جداً وتبدأ في مقاومة ضغطنا، بحيث لا يمكن أن

نتعدّى هذا الحدّ. لكنّ هذا لن يكون ممكناً إذا كانت المثانة مليئة بالماء. لذلك وكما أنّ الهواء يمكن سحقه، كذلك يمكن ضغط جسم مليء بالهواء. لكن إذا كان في الجسم ثقب فإنّ الهواء يهرب منه ولا يعود أبداً.

بعد لحظة من التفكير عاد لودوفيكو لينظر إلى ليوناردو.

- لا أعتقد أنّك فسّرت لنا الكثير وبما فيه الكفاية يا سير ليوناردو.

- أعتقد أنّ صدر هذا المسكين البائس قد وضع قسراً داخل مشدّ أو صدّارة ضغطت على القفص بشكل أخرج منه كلّ الهواء الذي كان في جسمه، ولم يسمح له بتوسيعه والتنفّس ثانية.

- ما الذي قادك إلى هذا الاستنتاج؟

- تيّسر لي عند تشريح الجسد رؤية أنّ هناك كسوراً في أضلاع وشرائح الصدر. ليس في العظام، بل في المفاصل الطريّة التي تربط الشرائح مع عمود الظهر، وكذلك في العظام التي تحمي القلب. كما لو أنّ شيئاً ضغط عليه من كلّ جانب.

كان لودوفيكو قد جمع يديه ورفعهما أمام فمه وهو يفرك يداً بيد. بعد لحظات رفع عينيه من جديد.

- وهل يمكن أن يموت الإنسان بسبب هذا؟

- نعم. كما يمكن يا صاحب السيادة أن يموت بسبب الغرق أو بأيّ سبب يمنع الهواء.

- ما رأيك أيّها المعلّم آمبرودجو؟

رفع آمبرودجو دا روزاتِه ذقنه بصورة تكاد لا ترى وأشار بيده إلى قبّة السقف.

- تشير النجوم إلى موت بسبب المرض يا سير ليوناردو، كما أنّ موقع عطارد لا يدع مجالاً للشكّ.

هنا أجاب ليوناردو وهو يباعد بين يديه: - أشعر بالسرور من أجلك أيّها المعلّم آمبرودجو لأنّك تعرف أن تقرأ كثيراً من الأمور في النجوم، أمّا أنا فالنجوم لا تكاد تدلّني إلّا على جهة الشمال.

أجاب آمبرودجو بصوت وقور: - إنّ ملاحظاتكم تتعلّق بالجسم، هذا الشيء البائس الفاني. أمّا ملاحظاتي فهي عن النجوم، وهي أوّل وأوضح تعبير عن الخالد الأبديّ. فأرجو أنّك لا تريد أن تقارن بين ما تراه في الجسم مع ما تراه في النجوم.

- سامحني أيّها المعلّم آمبرودجو، لكنّك قمت أنت أيضاً بمراقبة الجسم لترى فيما إذا كان يحمل علامات مرض أو عنف.

- للحصول على فكرة أولى عمّا حدث، فإنّ أوّل شيء يجب القيام به هو وجود الجسم. لكنّ التأكّد وربط الماضي بالمستقبل يتطلّب اعتبار النجوم. فالنجوم لا تكذب أبداً.

لو كان آمبرودجو دا روزاتِه وليوناردو جالسين على انفراد في مأدبة عشاء، فلابدّ أنّ ليوناردو كان سيبدأ بمناقشة اشتقاق الأصل الغريب لفعل *considerare* (يعتبر)، الذي فكّر أنّ بوسعه أن يترجم معناه باللاتينيّة التي لا يعر ف منها إلّا القليل بتعبير *cum sideribus* (معاً مع النجوم). لكن بما أنّهما لم يكونا في المقهى أو البار، بل في حضرة زعيم ميلانو، وبما أنّ ذلك المشجب المسرّج بالأرجوانيّ يعتقد أنّ بوسعه إزاحة علومه إلى المكانة الثانية، فإنّ ليوناردو استاء حقّاً من الأمر. خاصّة أنّ ليوناردو ابن السير بييرو كان يغذّي احتراماً خاصّاً للعلوم يفوق احترامه لنفسه.

كان ليوناردو قد التفت نحو لودوفيكو وعليه تعابير من عليه أن يسمع أنّ القمر مصنوع من الجبن، لذلك فقد قال: - فهمت. ذلك كما قال ذلك الراهب الدومينيكاني لأخيك صاحب السيادة إنّه ولد تحت تأثير النجوم، فتنبّأ له بفتح شبه جزيرة بَلْبُونَس اليونانيّة، وآسيا، وأفريقيا وكلّ بحرنا أي البحر المتوسّط. ماذا كان اسمه؟ هل كان آنيو دا فيتيربو؟

من المعروف أنّ ليوناردو كان عبقريّاً. ولهذا فقد استغرق قليلاً من الوقت فقط، أي جزءاً من مليار الوقت الذي يستغرقه كوكب المشتري ليدور حول الشمس، وذلك ليدرك في الحال أنّه قال هراء مثيراً.

فتذكير لودوفيكو إيل مورو بأمر أخيه غالياتسو ماريّا عندما صدّق

الأبراج ونبوءةَ راهبٍ فلكيّ أحمق أخبره أنّه سيفتح العالم، لم تكن الخطوة الصحيحة التي يجب القيام بها. خاصّة أنّ غالياتسو ماريّا نفسه قد مات طعناً بعد ذلك بثلاث سنين في ميلانو بالذات التي لم يفارقها قط.

– إذا كنت تريد تخليد ذكرى عائلتي على الوجه الصحيح، فيجب عليك الإسراع بإنهاء العمل في النصب الذي قمت بتكليفك بصنعه منذ سنوات، ذلك بدلاً من التشكيك بكلام المعلّم آمبرودجو.

هزت تشيشيليا رأسها بطريقة مدروسة وقالت: – لم يصدّقوك إذاً؟ – يا ليوناردويَ المسكين، لقد قلت الشيء الصحيح في الوقت الخطأ. متى ستتعلّم أنّ لودوفيكو لا يحبّ بعض الكلام؟

– أظنّ أنّي لن أفلح أبداً في هذا، أيّتها الكونتيسة تشيشيليا. لهذا السبب جئت إليك في طلب المساعدة.

– ولماذا لا يعهد بقيادة القوّات إلى أبي؟ مع أنّ إيركولِه هو الرجل الأكثر شجاعة وإقداماً تحت جبال الألب كلّها، بل وربمّا فوقها أيضاً، على ما بلغني من أخبار. فليس بين عساكر صاحب الجلالة المسيحيّة الكبرى الملك شارلز محارب قدير إلّا دوق أورليانز...

– إنّي أتجرّأ على تقديم نصيحة لك يا سيّدتي عسى أن تخفضي صوتك عندما تتكلّمين بمواضيع السياسة الخارجيّة.

توقّفت بياتريشِه دي إيست فجأة عن الكلام، وظهر عليها انزعاج غامض المعالم. إنّ تروتّي هو بالطبع سفير أبيها في ميلانو، وهو رجل ذو خبرة وحكمة، لكنّه لم يكن لبياتريشِه أن تقدّر شيئاً من هذا. فهي لا ترى أمامها إلّا رجلاً عجوزاً أصلع، يتأثّر بالبرد ومزعجاً، يقول للجميع إنّهم على حقّ، لكنّه لا يفعل في النهاية إلّا ما في رأسه.

– في نهاية الأمر إنّما أنا هنا في قصري.

ففكّر تروتّي في قرارة نفسه: إنّه ليس تماماً قصرك يا حلوتي. فلو كنت السيّدة لسكنت في الجناح الكبير، شرقاً، وليس هنا في الروكّيتّا، في هذه الغريفة المليئة بكلّ خيرات الله إلّا الضوء، فهو لا يصلها، وكذلك الدفء لأنّ البرد فيها قاس.

- بل إنّ هذا ما يثير قلقي بالفعل يا سيدّتي. نحن في قلعة جوفيو، وهنا الجدران لها آذان.

- قلت إذاً إنك ستقابل زوجي بعد قليل من الوقت. فلماذا لا تطلب منه مباشرة بتعيين أبي قائداً أعلى؟

نظر جاكومو تروتّي إلى الفتاة نظرة من يعرف أنّه قادر على محادثة شخص أذكى منه.

- إنّك تعرفين يا سيدّتي حقّ المعرفة أنّه يجب في قضايا مثل هذه المحافظة على التوازن بين القوى المتصارعة، بحيث تأتي النتيجة كما يريد صاحب السيادة المبجّل زوجك الدوق.

انتظر جاكومو تروتّي وقتاً يمكن أن نعتبره اليوم عشر الثانية، لكن لم يكن أحد يحلم وقتها بإمكانيّة قياسه.

لو كانت بياتريشِه ذكيّة بالمقدار الذي حاول تروتّي أن يجعلها تظنّ أنّه فيها، لما دعته الحاجة إلى كلّ هذه التفسيرات.

فإيل مورو لم يكن يهتمّ بغزو نابولي مقدار اهتمامه بإبعاد دوق أورليانز عن النبلاء المزعجين ما يكفي من الوقت. لأنّ البدء بالغزو والاستمرار فيه يتطلّبان من الملك شارلز الثامن أن يستعين بشكل مستمرّ بهمّة دوق أورليانز، لأنّه لا يمكن له وحده أن يحرّك إصبعاً من مكانه، فما بالكم بكسب حرب كاملة.

لذلك فعندما ينهمك دوق أورليانز في عبور إيطاليا من أجل غزو نابولي، فمن المؤكّد أنّه لن يكون قادراً على شنّ حرب على لودوفيكو إيل مورو ليتمكّن بعدها من المطالبة بمنصب زعيم ميلانو.

يكفي أن تستمرّ الحرب مدّةً يتمكّن خلالها نزع الاعتراف به دوقاً على ميلانو من قبل ماسّيميليانو الأوّل ثمّ من قبل الشعب.

سبق أن قلنا إنّ والد بياتريشِه هو إركولِه الأوّل دي إيست، وليس سيّداً صغيراً أيّاً كان. كان رجلاً خاض المعارك وانتصر فيها انتصاراً فعليّاً. وكان قبل كلّ شيء ممّن تعلّموا استراتيجيّات الحرب وتقنياتها في نابولي بالذات، لهذا فإنّ وضع رجل قدير وذكيّ وشجاع مقابل دوق أورليانز، وهو عدوّ يعرفه إركولِه حقّ المعرفة، كان لابدّ أن يؤدّي إلى تقصير مدّة الحرب، وهذا يعني بالنسبة إلى تطلّعات إيل مورو ضرب ساقيه بفأسه.

وبما أنّ بياتريشِه تصنّعت أنّها تواصل التفكير فقد استأنف تروتّي حديثه.

- لا يمكن إيقاف النهر خلال فيضانه، لكن يمكن تحويل مجراه إلى القناة التي نريدها. فعندما يحطّم صاحب السيادة المبجّل سدود جبال الألب، فإنّ النهر الفرنسيّ سيجتاح نابولي. لكنّ توجيه المياه لتتدفّق في الجهة التي نريدها يتطلّب منّا تشييد حدود وضفاف وليس تعيين رعاة.

- يبدو أنّك شاعريّ يا سير تروتّي، تبدو كأنّك سير ليوناردو تقريباً.

التزم تروتّي الصمت وبقي جامداً لا يتحرّك. فمن الأمور التي امتاز بها والتي جعلت منه سفيراً ناجحاً، أنّه كان يعرف الوقت المناسب لعدم تعريض نفسه.

واصلت تبسّمها وقالت: - لا يعجبني سير ليوناردو، فهو دائماً هادئ وسعيد مثل...

- مثل من يا سيّدتي؟

- مثل من يعرف أنّ الأمور ستسير على ما يرام حتّى عندما تسير بعكس ذلك. فهل يمكن الوثوق به حسب رأيك أيّها السفير؟

- لست منغمساً مثلك يا سيّدتي في حياة القصر. وأنا لا أرى سير ليوناردو إلّا في أيّام الخميس عندما... وهنا نفخت بياتريشِه دي إيست والتفتت عنه.

- حتماً، عندما تذهبون لسماع الموسيقى والتحدّث بأشياء غير مفهومة في بيت عاهرة ميلانو. من يدري ماذا سترتدي في الغد. ثلاثة أثواب بعضها فوق بعض، حتماً، فهي نحيلة بشكل ستبدو فيها كهيكل عظميّ إن لم تفعل.

- أستطيع أن أؤكّد لك أنّ السيّدة غالّيراني لم تكن ترتدي أيّ ثوب أو حليّ جديدة خلال المرّات الأخيرة التي شاهدتها فيها...

- وهل هي قصيرة النظر بحيث ترتديها بحضوركم يا سير جاكومو؟ إنّها عاهرة لكنّها ليست حمقاء، تلك المومس. افتح عينيك أيّها السفير، إنّي لا أرجوك بل آمرك.

- ما هي إذاً أوامرك يا صاحب السيادة؟

التفت لودوفيكو ناحية غالياتسو، فهو يعلم أنّ هذا يحمل رأساً مناسباً وأنّ رأيه سيؤخذ بالحسبان، وإن لم يكن بمقدار رأي فلكيّ الدوق.

- وأنت ما هو رأيك أيها الكابتن؟

أومأ غالياتسو سانسيفيرينو برأسه، كما لو ليظهر قبوله بهذا الاعتبار.

- إذا كان المعلّم آمبرودجو على حقّ يا صاحب السيادة فإنّ هذا المسكين مات إذاً بسبب المرض. وإذا كان الأمر كذلك، فإنّ كلّ الأشخاص الذين يقطنون حول بيت كيتي قد تعرّضوا إذاً للرياح نفسها. وسيكون من المناسب الذهاب إلى مرسمه وإغلاقه وقفل الأبواب والنوافذ وتسميرها وتفريغ البيوت حوله على سبيل الاحتياط.

- أمّا إذا كان هذا الساحر قد قال حماقة فإنّ رامبالدو كيتي قد قتل ولابدّ كما قال سير ليوناردو. وسيكون من المناسب عندها الذهاب إلى بيته وتفتيش كلّ ما فيه وذلك لنعرف هويّته ومن كان يرافق ولماذا أراد شخص ما لا أن يقتله فحسب بل أن يرميه وسط ساحة القصر.

- هل تعتقد هذا مناسباً أيّها المعلّم آمبرودجو؟

– أوافق على رأي الكابتن سانسيفيرينو يا صاحب السيادة.

– حسناً إذاً. أرسل في طلب كابتن العدالة واطلب منه معرفة عنوان هذا البائس رامبالدو كيتي وأن يغلق بيته. لكن لا تحرّكوا الناس الموجودين حول البيت، فهذا لا يفيد الآن إلّا بإثارة اضطرابهم من غير سبب فعليّ.

– أودّ لو تسمح لي يا صاحب السيادة أن أرافق كابتن العدالة.

وهذا يعني بلغة العصر: لو تعرف كم يخيفني هذا المرض الذي كان هذا الأحمق على قناعة أنّه قضى على أحاسيس هذا الرجل البائس. جذر الصفر.

– من المؤكّد أنّه مسموح لك. اذهب وليحمِك الله. ماذا لدينا الآن أيّها الأمين؟

– السيد السفير جاكومو تروتّي، مبعوث إركولِه دوق فيرّارا.

– حسناً أيّها السادة اتركونا، وأدخلوا السيد السفير تروتّي.

– إنّك تدرك أنّه عليّ كسفير وليس لمصلحتي فحسب بل بحسب تعليمات سيّدي أن أوّجه إليك أسئلة غير سارّة.

بقي جاكومو تروتّي واقفاً على قدميه أمام لودوفيكو إيل مورو الذي كان جالساً على مقعد عمله. ومع ذلك فإنّ إيل مورو هو الذي كان في وضع غير مريح في تلك اللحظة. فسؤال تروتّي لم يكن من تلك الأسئلة التي يمكن أن تدور هنا وهناك.

– هل يمكن أن أسألك كيف عرفت بذلك يا سير جاكومو؟

من أولى قواعد السياسيّ الحصيف أن يجيب على السؤال بطرح سؤال آخر.

– بدأت الأقاويل تدور يا صاحب السيادة في جميع أنحاء ميلانو، بل إنّ الراهب جواكّينو دا برينّو تكلّم بها في الساعة الثالثة خلال موعظته هذا الصباح.

- أوَ الراهب جواكّينو؟

كان لا ينقصنا إلّا هذا، فكّر لودوفيكو وهو يحاول أن يخفي غضبه. لكنّ تروتّي لاحظ ذلك بكلّ تأكيد.

- وماذا قال الراهب جواكّينو على وجه التحديد؟

هل تكلّم بأمر ربّما أجبرني على إرساله إلى السجن؟ وهكذا يتعلّم أن يتدخّل في شؤون السيّد، أي زعيم ميلانو، وليس سيّد الأكوان الذي في السماء.

- قال إنّ الغضب الإلهيّ قد حلّ بهذه المدينة، وإنّ هذه الميتة هي من فعل القدير ومن تدبيره، كما حدث للورينزو دي ميديشي في فلورنسا. وإنّ روث الشيطان، أي المال، قد استحوذ على هذه المدينة، وإنّ السيّد سيطرد التجّار من المعبد، وعلى رأسهم زعيمهم.

- أي أنا بحسب الراهب جواكّينو؟

- لا أسمح لنفسي أبداً أن أفترض هذا. إذاً فهي صحيحة هذه الأخبار المشؤومة؟

كان جاكومو تروتّي سياسيّاً ناجحاً أيضاً.

- للأسف، فهو كذلك. هناك رجل، رسّام مسكين، وجدوه وقد فقد الحياة في ساحة السلاح، البارحة خلال صلاة التسابيح. وقد قال المعلّم آمبرودجو إنّه على قناعة أنّ الموت حدث لأسباب طبيعيّة، لكنّه يجهلها. أمّا السير ليوناردو فيؤكّد أن الرجل قد قتل. وكما يمكنك أن تفهم فإنّ الفرضيّتين تثيران قلقي أكثر بكثير من الغضب الإلهيّ.

ولا يرى لودوفيكو من المناسب أن يذكر أنّ الميّت كان قد طلب المثول بين يديه قبل يوم من موته. إذ إنّ العثور على ميّت في فناء البيت يكفي ليكون سبباً في إثارة القلق.

- أفهم هذا حقّاً يا صاحب السيادة.

- أعرف أنّك رجل ذكيّ مثابر يا سير جاكومو. لذلك أريد أن آخذ رأيك.

– أنا تحت تصرّفك يا صاحب السيادة.

– رأيت البارحة خلال مأدبة العشاء سير ليوناردو وهو يثرثر مع سفيري فرنسا ورأيت في لحظة معيّنة أنّ غضبه قد ثار، وهذا أمر نادر بالنسبة إلى سير ليوناردو. فهل تعرف بماذا كانوا يتكلّمون وماذا حدث؟

– لم يحدث شيء خطير يا صاحب السيادة. إذ إنّ أحد الخدم المرافقين للسيّد كومين أراق كميّة كبيرة من النبيذ على ثياب سير ليوناردو، وبطريقة غريبة بالفعل، بدت مقصودة أكثر ممّا هي بسبب العجالة. أمّا الحديث فكان يدور حتّى تلك اللحظة حول المال.

– المال؟

– يبدو أنّ الفرنسيّين مهتمّون جدّاً بمقدار دخل سير ليوناردو وكيف تكافئه يا صاحب السيادة.

– آه.

– إذا سمحت لي يا صاحب السعادة...

باعد لودوفيكو بين يديه في حركة تنمّ عن ترحيب وهياج.

– لا بل سأكون ممتنّاً لك أيّها السفير. وأنت تعرف كم أكنّ لآرائك من الاحترام.

أغلق جاكومو عينيه في انحناءة خفيفة. وقال بعد أن صفّى حنجرته:

– إنّ الشتاء يقترب وليس هذا أفضل وقت لشنّ حرب واجتياز جبال الألب. أظنّ أنّ السادة الفرنسيّين جاؤوا الآن أساساً ليقرعوا أبواب صناديقك يا صاحب السيادة. لذلك فإنّ أسئلتهم تلك تهدف على ما أعتقد لمعرفة كم يمكن لك يا صاحب السيادة أن تسحب من خزينتك لتقرضه للفرنسيّين من أجل الحرب.

ابتسم لودوفيكو. فكلّما فتح سفير فيرّارا فمه كان يقول أشياء معقولة. وفي هذه الحال، كان لودوفيكو يعرف هذا حقّ المعرفة، فجاكومو تروتّي على حقّ بالفعل.

– أنا أيضاً أرى الأمر كما ترونه يا سير جاكومو. لكن هناك إمكانيّة أخرى، وأودّ أن أتأكّد من أنّي لست مخطئاً.

– إذا فهمت الموضوع كما يجب فإنّك يا صاحب السيادة تحتاج إلى خدماتي للانتهاء من هذا الأمر...

– هذا بالضبط يا سير جاكومو – وهنا برز لودوفيكو بصدره وبرأسه من المقعد، فقصّر المسافة بينه وبين السفير – أريد أن أعهد إليك بمهمّة، ليس لمصلحتي فقط وإنّما لمصلحتك أيضاً.

– عليك أن ترى أنت كيف ذلك. لقد عهد إليك بمهمة، ولم تنجح حتّى الآن إلّا بجلب مزيد من السخرية على نفسك.

– معك حقّ، كلّ الحقّ أيّها الدوق.

– لا أعرف ماذا أفعل بهذا الحقّ! – وضرب دوق كومين الطاولة بيده، وقد يكون قد آذى نفسه بالفعل، لكنّه لم يظهر الأمر أمام الآخرين.

– أنا بحاجة إلى تلك المفكّرة يا روبينوت.

كان روبينوت واقفاً على قدميه منحني الرأس أمام الدوق، وقد قام برفع طاقيّته عن رأسه ليقدمّ احترامه ثمّ عاد ووضعها مباشرة في علامة على الطاعة («غطّ هذا الرأس الأجرب الذي يثير القرف» – كلمات الدوق حرفيّاً). كان خلفه من هو الآن ممتنّ هذه المرّة لكونه لا يتكلّم ولا يُحسب له حساب، كان ماتّينيه يستمع وليس لديه أيّ نيّة ليفتح فمه.

– حتماً، بكلّ تأكيد. كما سبق أن أخبرتك يا صاحب السيادة فنحن نتقدّم محاولة إثر محاولة. الآن يمكننا استبعاد القيام بأعمال بارعة في مكان مأهول، وسيتعيّن علينا المضي في الظلام.

فوافقه بيرون دو باش الرأي وهو يتضاحك: – قد يكون هذا المطلوب يا روبينوت، خاصّة أنّه من الصعب أن يسمح لك ليوناردو بالاقتراب منه ثانية عندما يراك أمامه. لكن كيف جاء في ذهنك أن تستعمل الأرنب؟

- قيل لي إنّ الأرانب الحيّة تستخدم في المآدب الأنيقة لتنظيف الأيدي، وعندما رأيت الأرانب في صالة العشاء، ورأيت ضيوفاً آخرين يفعلون ذلك، اعتقدت بالتالي أنّ بإمكاني استخدام أرنب لتشتيت انتباه ليوناردو. اعتقدت أنّه يمكن لذلك أن...

- ظننت أنّ بوسعك أن تفرك أرنباً حيّاً بملابس سير ليوناردو لتنظيفها من النبيذ، لقد رأيتُ ذلك. كما رآه كذلك آخرون كثر. - وهنا لم يكن من الواضح ما إذا كان الدوق دي كومين قد غضب أكثر لأنّه لم يحصل على المفكّرة أو بسبب ذلك السلوك غير اللائق. - انتبه يا كومين فالأرانب يمكن مداعبتها لتنظيف الأصابع من الدهون، ولا يمكن استعمالها كخرقة للتنظيف. يا مريم العذراء! هذا يشبه تنظيف الأسنان بشوكة الطعام. انقلع الآن عنّي وفكّر بطرق أخرى أفضل من هذه.

- بالإذن منك يا صاحب السيادة...

خرج اللصّان الصغيران وهما يغلقان الباب بعناية. فالتفت بيرون دي باش نحو الدبلوماسيّ.

- إنّك توافق إذاً بلا جدال أنّه علينا أن نضع أيدينا على تلك المفكّرة.

أومأ الدوق برأسه قبل أن يبدأ الكلام، إذ كان منهمكاً في النفخ في يده.

- من دون أدنى شكّ. خاصّة أنّي تأكّدت البارحة أنّه لا يمكن على الإطلاق إفساد سير ليوناردو بأيّ طريقة كانت. فهو يعمل لمصلحة إيل مورو، نقطة وكفى.

فعقّب السيد دو باش: - أو لربما كان يعلم أنّه لا يمكن لنا رغم كلّ الوعود التي قطعناها أن ندفع له كما يدفع له لودوفيكو، على كلّ فهذا يقودنا إلى هدفنا الأساسيّ، أي أن نتقدّم إلى لودوفيكو بطلبنا. إنّنا بحاجة إلى ثلاثين ألف دوقيّة، أجل نحن بحاجة سريعة إليها.

سبعة

حصان. ما أجمله ذلك الحصان. يبدو كأنّه حصان غالياتسو من فصيلة صقلّيّة. لكنّ ذلك أجمل. سوقه نحيلة جدّاً، لكنّ العضلات بارزة وواضحة. فالعضلات هي التي تعطي انطباعاً عن الحركة. العضلة المشدودة، المتقلّصة تعطي القوة للحافر. والنِسب. فإذا صنعت قائمة الحصان طويلة كما هي، فإنّ التمثال سيظهر كأنّه ثابت، فتذكّر أنّه يجب صنعها أطول بقليل من الواقع. أمّا القائمة الخلفيّة فأقصر، متقلّصة، لأنّها تدفع إلى الأمام. والقائمة الأماميّة أطول، لأنّها تنطلق. لكنّ ذلك رسم فقط. والعضلات فنّ. يجب تنعيم هذا الحصان، ويجب أن تظهر العضلات بوضوح. سأجرّب اليوم وبر الأرانب مع بياض البيض. أوه.

– هل كلّ شيء على ما يرام يا سير؟ العفو، كنت شارداً في أفكاري... آه، هل هذا هو أنت أيّها السفير؟ ما هذه المفاجأة! أرجو ألّا تكون قد أصبت بأذى.

فأكّد جاكومو تروتّي: – على الإطلاق يا سير ليوناردو. ذلك بعد أن اصطدم بليوناردو دافنشي عندما كان يعبر الشارع وهو مستغرق في أفكاره، وكاد يقع على الأرض لولا معجزة أنقذته. على كلّ فهو رجل في السبعين من عمره، وإن كان لا يبدي ذلك، بل إنّه قادر على مقارعة رجل قويّ في الأربعين من عمره. – وأنت، هل أنت بخير؟

– على أحسن ما يرام. بل إنّه عليّ أن أعتذر، إنّك تعرف، يحدث أحياناً أن يتشتّت الذهن، فلا أنتبه إلى موضع قدمي. من حسن الحظّ أنّي

اصطدمت بك وليس ببعض الشخصيّات التي تجوب في كلّ الطرقات. وقد حدث لي مرّة أن صدمتني عربة، والأدهى أنّي تعرّضت لشتائم امرأة كانت تسوقها. ولا تعرف مقدار شعوري بالخجل.

وضع تروتّي يده على ذراع ليوناردو مطمْئِناً: - لا تفكّر بالأمر، فهذا يحدث لي أيضاً، وأكثر ممّا يجب بالنسبة إلى رجل في عمري. إلى أين أنت ذاهب، بالتوفيق؟

- إلى مكان ليس ببعيد عن هذا المكان، قرب سوق الحيوانات.

- أنا ذاهب أيضاً في الطريق نفسها. هل لي أن أرافقك إذا سمحت.

فابتسم ليوناردو وقال: بكلّ سرور، لربّما ننتبه أكثر إذا سرنا معاً.

فابتسم تروتّي أيضاً، في سرّه. فلقد تمّ حلّ المشكلة الأولى الكامنة في الالتقاء بليوناردو بطريقة تبدو عرضيّة. وكان لودوفيكو قد طلب منه هذا بصورة واضحة عندما قال له: افعل ذلك بطريقة لا يظنّ فيها أنّه مقصود.

- هل عليك أن تشتري بعض الحيوانات؟

- لا، على العكس. أجاب ليوناردو الذي ظهر أنّه استغرق من جديد في أفكاره، فذلك الإنسان كان مجبولاً على شرود الذهن بطريقة تثير القلق. - أنا ذاهب إلى صديق قديم أظنّ أن أتدبّر منه أشياء تلزمني، على ألّا أدفع ثمنها غالياً، لأنّها أشياء مرتفعة الثمن في العادة.

- إيه، إنّ الأشياء مرتفعة الثمن حقّاً، على الدوام. ولا نحصل على المال إلّا بأقلّ ممّا يلزم للعيش في ميلانو. عندما كنت أعيش في فيرّارا كنت أنفق في أسبوع ما أنفقه هنا في يوم واحد.

وبما أنّ تروتّي هو الذي يقول هذا فالأمر سيبدو بلا مقاصد خفيّة. إذ كان من المعروف أنّه لا يوجد إلّا قليل من المنافسين لسفير فيرّارا في البخل، بما في ذلك زوج غالّيراني. لكنّ الحقيقة هي أنّ تروتّي كان يحاول أن يلقي الطعم.

كنت أريد أن أعرف ما إذا كان ليوناردو قابلاً للإفساد. هذا ما قاله

تروتّي بكلّ وضوح إلى لودوفيكو إيل مورو. فلديّ شكّ لا بل إنّي على ثقة أنّ الفرنسيّين يريدون الحصول على تصاميمه، ولأسباب كثيرة يمكن لليوناردو أن يتذمّر من المال الذي لا يحصل عليه منّي كما من غيري. يمكن لهم أن يشتروا له أو يمكن لهم أن يشتروه. لذلك فأريد أن أعرف منك إذا كان هذا ممكناً. فاذهب، واسأل، واستجوب. بحصافة لكن بدقّة وعلم، كما تعرف أن تفعل.

وهذا ما كان يفعله جاكومو تروتّي بالفعل.

فقال ليوناردو: - لن يكون المال هو المشكلة، أي لن يكون مشكلة فيما لو كان معي منه ما يكفي.

فعقّب تروتّي: - يبدو أنّه لا أحد معه ما يكفي. بل حتّى السيّدان الفرنسيّان اللذان جاءا بالأمس لا يفعلان سوى التذمّر في هذا الصدد.

فأجاب ليوناردو وهو يهزّ رأسه: - لا تكلّمني عنهما. فنصف عشاء الأمس انقضى ونحن نتكلّم عن النقود وعن مقدار دخلي. - وهنا تضاحك ليوناردو - فأجبتهما أنّي أكسب ما يكفي إن لم أكن مضطرّاً لأن أنفق المال باستمرار كي اشتري ثياباً جديدة لأستبدل تلك التي وسّخها النبيذ بسبب عدم حرص بعض الناس.

فرك ليوناردو مقدّمة ثوبه بحركة وسوسة، يرى تروتّي أنّه يفعلها في كثير من الأحيان، كأنّه يخشى دائماً أن يكون قد علقت بعض الأوساخ بثوبه.

- ما أكثر ما يعطى المال من أهميّة يا سير جاكومو. كما أنّ الكثيرين على قناعة أنّ له قيمة في حدّ ذاته فيخبّئونه في بيوتهم، ويتملّون منظره كما لو أنّه لوحة فنّيّة أو حليّ. لكن المال ليس جوهراً، ليس له جسم في حدّ ذاته.

في هذه الأثناء وصلا إلى ساحة قرب مخازن كنيسة الدوّمو الكبيرة حيث يقام سوق الحيوانات. كان هناك حيوانات من كلّ نوع، من الدجاج

إلى البقر، مروراً بالأرانب والطيور، بل مع عيّنات كثيرة من أنواع ليست للبيع، مثل الذباب. أبطأ ليوناردو خطاه وهو يتلفّت حوله، بينما تمكّن تروتّي الطيّب الذي بدأت تثقل أنفاسه، من إدخال الهواء مرّة أخرى إلى أنبوب الأرغن، أي إلى صدره.

- إذاً ما هو المال بالنسبة إليك؟

- سؤال جيّد. انظر يا سير جاكومو أنا رجل بعيد عن الآداب[17]، لذلك فإنّي غالباً ما أجد نفسي خلال التفسيرات والشروح وقد غرقت في أحاديث دوّامة لولبيّة. وسأضرب مثالاً إذا سمحت لي.

انعطف ليوناردو قليلاً وهو يقول هذا عن طريقه الأولى وسار نحو بائع طيور يضع بضاعته في أقفاص معلّقة على أعمدة تشبه عقارب الموازين، وتنحني تحت وطأة تلك الطيور وأقفاصها على وجه التحديد.

- تحيّاتي لك أيّها الرجل الطيّب.

فتوقّف الرجل وهو يجيب بصوت يشبه أصوات بضاعته: - في خدمتك أيّها السيّد. مارشيلّو العصافيري يقف في خدمتك. عمّ تبحث؟ عندي ببّغاوات خضراء وصفراء، أو إذا كنت مغرماً بالموسيقى فعندي عنادل تغنّي بأفضل من أيّ أداة موسيقى.

فقال ليوناردو بلهجة صدق: - ما أجمل هذا. هل ترى يا سير جاكومو، هل يبدو لك من العدل وضع مخلوقات الطبيعة هذه في القفص وهي

17- كان ليوناردو يعتبر رجلًا بلا آداب، ذلك كما عرّف نفسه هو بالذات. في ذلك الوقت، كان هذا التعريف يشير كقاعدة عامة إلى أولئك الذين لا يعرفون اللغة اللاتينية. لكنّ التعبير كان له بالنسبة إلى الرجل العبقريّ دافنشي معانٍ أكثر تعقيداً. فهو لم يكن يهتمّ بالثقافة الفكرية النظرية كغاية في حد ذاتها، وهو يرى أنّ معرفة اللغة اللاتينية ليست ضرورية، وله رأي سلبي عن الأدباء، لأنهم حسب قوله يستغلّون فنون الآخرين وإبداعاتهم. وفي فلسفة ليوناردو لا تعني الكلمة شيئًا إذا لم تكن مرتبطة بالخبرة. كما أنّ التباهي بالمعرفة الأدبية يعني التفاخر بأشياء لا تمتّ بأيّ صلة إلى المتباهي، لأنّ آخرين هم الذين أبدعوها. وقد يقال إنّ تفكير ليوناردو هذا نابع عن كونه لم يتابع الدراسات الكلاسيكية النظاميّة. (م) عن موقع artfiller.it

عاجزة؟ لمجرّد أن نستطيع نحن أناس المدينة أن نتمتّع بغنائها؟ أخبرني أيّها الرجل الطيّب كم تريد ثمناً لذيْنِ الزوجين من العنادل؟

– خمسة دراهم لهذه يا سير. لكنّه مال مصروف في المكان الصحيح. إنّ أصواتها تشبه أصوات الملائكة.

فقال ليوناردو وهو يضع يده على محفظته: – لا شكّ في هذا يا عزيزي، ها هي.

فقال الرجل وهو يفكّ القفص عن عموده، وفيه الطيران، ثمّ يقدّمه إلى ليوناردو: – وهاك هما إليك. من المناسب أن تصنع لهما قفصاً أكبر إذا كنت تريد وضعهما في بيتك.

– لا تقلق أيّها السيّد، لن تكون هناك حاجة.

بعد أن فتح القفص مدّ إصبعه إلى واحد من الطيرين وعندما تسلّقها الطير سحب ليوناردو يده ورفعها كأنّه مربّي صقور خبير يحاول ترويض أحد الصقور. وفي الحال انطلق الطائر وهو يصفّق بجناحيه ويدور حول الواقفين قبل أن يتوارى خلف البيوت في لحظات قليلة.

التفت جاكومو تروتّي نحو ليوناردو الذي رفع رأسه ليتابع تحليق الطائر بنوع من المشاركة والحبور. عندما وجد الطائر الثاني أنّ القفص بقي في هذه الأثناء مفتوحاً حلّق هو الآخر وطار من غير أن ينتبه أحد إليه.

– ما أروع هذا، أليس حقّاً؟ كنت دائماً أحلم بتكريس نفسي لدراسة تحليق الطيور. ليتني أتمكّن يوماً من الالتزام بهذا الأمر، ربّما بعد أن أنتهي من صنع هذا الحصان البرونزيّ المبارك. هل ترى يا سير جاكومو؟

– أجل، لقد رأيت. لقد أنفقت خمسة دراهم على لا شيء.

– على لا شيء؟ اعذرني يا عزيزي، لقد أعدت الحريّة إلى عندليبين، وتمكّنت من مراقبة ودراسة كلّ ما نجم عن ذلك. سعادتهما، سعادتي، ودهشتك. في هذه الحالات التي تميل الأفكار فيها نحو الأمل تمكّنت من تحويل الفكر إلى طيران، وكأنّي إله قدير، هل يبدو لك هذا لا شيئاً؟

فأومأ تروتّي برأسه، متأمّلاً.

– أفهمك يا سير ليوناردو. إنّك تفكّر بالطريقة التي أفكّر بها. المال هو سفير، هو سائل، إنّه وسيلة لجلب ما يريده المرء. أستميحك عذراً، لكن لا يمكنك الآن أن تقول لي إنّه لا أهميّة عندك لكميّة المال. لأنّك أنت أيضاً كلّما زادت كميّة أموالك زادت إمكانيّات تحقيق ما يجعلك سعيداً.

– أعتقد يا عزيزي تروتّي الطيّب أنّي لم أفسّر وجهة نظري كما يجب، فأنا وذلك العصافيريّ الشاطر عقدنا في البداية صفقة، أعطيته بموجبها خمس قطع معدنيّة وأعطاني مقابلها عندليبين. وكلانا كان موافقاً على معنى تلك القطع المعدنيّة الصغيرة. اعتبر أنّ المال هو لغة، وهو فعّال ليس لأنّ له طبيعة خاصّة، بل لأنّنا جميعاً نحن البشر متّفقون على إعطائه سلطة موحّدة. إنّها لغة أقوى من عباراتنا ومن كلماتنا.

– طبعاً، لأنّ الجميع يفهمون تلك اللغة.

– على العكس، بل لأنّها رمز سرّيّ.

– رمز سرّيّ؟

– حتماً. فكّر يا سير جاكومو. حاول أن تصيب بالسهم رجلاً في قلبه، أو قرداً: سيحدث الشيء نفسه. أي أنّ الرجل سيموت كما سيموت القرد. جرّب الآن أن تقدّم له طعاماً، قطعة فاكهة: سيأكلها الرجل كما سيأكلها القرد. لكن حاول أن تضع دوقيّة في يد القرد وأنت تظنّ أن تأخذ مقابلها قطعة الفاكهة نفسها التي وضعتها سابقاً في قائمتها.

– لابدّ أنّه سيشلّ يدي.

– من المؤكّد تقريباً. ومع ذلك، فإنّه لو فهم معنى ما قدّمته له، لاشترى مئة قطعة من الفواكه بتلك الدوقيّة.

وهنا توقّف ليوناردو والتفت نحو تروتّي.

– المال هو مثل اللغة، رمز سرّيّ يمكن للبشر أن يتوافقوا من خلاله، بينما هو أمر غير مفهوم بالنسبة إلى أيّ كائن غير بشريّ.

- تقول إذاً إنّه مثل اللغة الطبيعيّة.

- بل هو أقوى، لأنّه أشدّ سرّيّة. يمكن لك أن تروّض كلباً مستعيناً باللغة. يمكن أن تقول له اربض، أرضاً، أو غير ذلك. لكن حاول أن تعطيه دوقيّة، وأخبرني إن لم يبلعها. - وهنا التفت ليوناردو بحزم نحو شارع آرمورواري، بخطى مسترخية كمن وصل إلى حيث يريد. - وبفضل هذا أصبحنا نحن البشر أقوى الكائنات الحيّة الموجودة، وتمكنّا من السيطرة على جميع حيوانات الخليقة. من أسود، وخنازير وقرود، وكلاب... - وهنا ابتسم ليوناردو -... والخيل. ثمّ إنّ الخيول تتفوّق علينا. كفانا الآن تفكيراً. لقد وصلت، يا سير جاكومو.

نظر جاكومو تروتّي حوله.

كانت ميلانو في الحقبة التي يجري عنها الحديث بين المدن الصناعيّة بامتياز. كانت تصنع كلّ شيء. مثل الأقمشة، وخاصّة الديباج المجعّد، المنسوج بخيوط ذهبية راقية، فضلاً عن أنواع أخرى من النسيج مثل حرير لومبارديّا وصوف كوتسوولدز، الذي كان يزيد جماله عندما يتمّ صنعه في منطقة آبروتسو مع محافظته على خصائص الدفء والنعومة.

ثمّ الفساتين، من ملابس الخدم المتواضعة إلى العباءات وثياب سيّدات القصر، إلى أرقى أزياء كلّ دوق ودوقة، من التي يصمّمها أشهر الفنّانين، بمن فيهم ليوناردو بالذات، الذي صمّم فساتين بياتريشِه التي ارتدتها خلال حفلة باراديسو الشهيرة.

ثمّ الأثاث، من قطع تركيبيّة وقابلة للتحويل، مثل المكاتب التي يمكن تحويلها إلى طاولات للطعام، والتي كانت تحفر في أخشابها عبارات مثل *«لا تضع فوقي أشياء ثقيلة جدّاً»*.

لكنّ الدروع قبل كلّ شيء. دروع وأسلحة من كل نوع وشكل ولكلّ استخدام، وليس للاستخدامات الحربيّة بالضرورة، لا بل ليس لها على الإطلاق. فالأسلحة والدروع كانت في تلك الحقبة تعتبر في الواقع من شؤون الموضة الرفيعة، وليس الحرب فقط، لذلك كان من الطبيعي

رؤية من يرتديها وهو يتجوّل في مركز المدينة. كانوا يتزيّنون بشيء ولد لأهداف مختلفة من أجل إظهار الثراء وادّعاء كفاءة متفوّقة على الريادة والشجاعة، أي كقيادة سيّارة رياضيّة اليوم في منطقة تمنع فيها السرعة.

والنتيجة أنّه ازدهرت في منطقة محدّدة من المدينة أنشطة حرفيّة سرعان ما تمكّنت وبفضل التصميم والأذواق الرفيعة من فرض علامة صنع في إيطاليا المميّزة الأنيقة حتّى في بعض مجالات السلاح الأبيض. ويوجد اليوم في هذه المنطقة بالذات ما يسمّى شارع الدروع سكوداري، الذي بقي مملكة حصريّة لباعة الأسلحة الفاخرة.

كان ليوناردو رائداً في عالم الأناقة المميّزة، وكان رأيه يؤخذ في الحسبان، لكنّه لا يرى كيف يمكن لشخص مثل تروتّي أن يرتدي الدرع.

– وهل تريد أن تشتري لي درعاً يا سير ليوناردو؟

– أوه، كلّا بكل تأكيد يا سير جاكومو. جئت إلى هذا المكان لأني أريد التحدّث مع حرفيّ خبير بالمعادن. هل أنت مشغول؟

– على العكس، فإنّ مرافقتك مدعاة لسروري.

– فلنذهب إذن. تفضّل. – فدخل ليوناردو عبر باب مظلم يفضي إلى رواق صغير تخرج من حجيراته نفحات حمضيّة حارّة وضربات مطارق تهوي على الحديد. أطلّ ليوناردو على أوّل حجرة.

– أبحث عن المعلّم أنتونيو.

كان هناك فتى مغطّى بالسواد والعرق واقفاً خلف السندان، فرك عينيه ليرى من هو هذا الزائر. وبعد أن تعرّف إليه أسند المطرقة وخرج إلى الرواق من غير أن ينبس ببنت شفة.

بعد لحظات خرج من حجرة في وسط الرواق رجل ضخم رأى تروتّي أنّه شبيه بخزانة تتّسع لملابس أربعة فصول. كان يرتدي ثياباً خضراء وذهبيّة الألوان وتوجّه نحو ليوناردو وقد رسم على وجهه ابتسامة عريضة.

– هذا شرف عظيم لي يا سير ليوناردو! ما هو سبب تشريفي بزيارتك؟

– إنّك أنت من تشرّفني بهذا الاستقبال أيّها المعلّم أنتونيو. وبعد أن التفت نحو مرافقه قال: – هذا جاكومو تروتّي، سفير إركولِه دوق فيرّارا. وهذا المعلّم أنتونيو ميسّاليا.

فأومأ جاكومو تروتّي بانحناءة.

أنتونيو ميسّاليا لا غيره.

يقال إنّ صنّاع الدروع في ميلانو قد فرضوا أنفسهم في أنحاء أوروبّا. ويقال إنّ هذا لم يكن بفضل ذوقهم الرفيع فحسب، بل بسبب الحلول التقنيّة الفعّالة التي كانوا يقدّمونها بسبب تفوّقهم في المنافسات من قديم الزمان. فحتّى في ذلك الوقت كان هناك ماركات وعلامات تجاريّة كان كلّ صانع دروع يضعها بشكل ظاهر مطبوعة على الحديد. وكان من أفخر العلامات على الإطلاق علامة ميسّياليا الفاخرة المميّزة.

استعرض أزياء ميسّاليا ملوك فرنسا، الإمبراطور ماسّيمِلِيانو هاسبورغ، وملوك نابولي من آل أراغونا، وغيرهم كثير ممّن لم يكن لديهم ممالك يحمونها ولا معارك يخوضونها بل مجرّد أموال ينفقونها. وأن نسمع حينها قولاً مثل «أقدّم لك أنتونيو ميسّاليا» كأن نسمع اليوم من يقول «أقدّم لك جورجو آرماني».

من هنا فقد قال تروتّي: – هذا من دواعي تشريفي وسروري. لم أكن أعرف أنّكما صديقان.

– لقد شرّفني سير ليوناردو بصداقته يا صاحب السعادة بعيد وصوله إلى ميلانو، قال ميسّاليا وهو يبتسم مظهراً حلقة رائعة من أسنان سوداء وسط لحيته البيضاء. – بل أشعر أنّ تسميته لي بالمعلّم كأنّها استهزاء بي. فإذا كان من معلّم هنا فإنّه هو بالذات.

– أنت كريم جدّاً أيّها المعلّم أنتونيو، أجاب ليوناردو بنصف ابتسامة كما لو أنّه يريد أن يفهم الآخرين أنّه موافق لكن لا يريد تأكيد ذلك. – لقد علّمني المعلّم أنتونيو أشياء كثيرة حول المعادن وحول شغلها وطرْقِها. كما صنعنا معاً درع غالياتسو سانسيفيرينو.

- إنّه درع أصيل من ذهب، لم ير مثيل له. لقد صمّمته أنت وأنا صنعته، قال أنتونيو ميسّاليا وهو يضحك ضحكة من نجا من مأزق - كما كان هناك لحسن الحظّ من دفع ثمنه.

- ومن عمل فيه أكثر من الثاني؟ سألهما تروتّي وهو ينظر حواليه.

- آه، كان الأمر سهلاً بالنسبة إليّ، فالشغل بالذهب هو حلمي مقارنة بالحديد. لكنّ تنصيب فارس على الصهوة وهو يرتدي كلّ ذلك الوزن ليس بالأمر السهل. إنّه درع ثقيل، أثقل ممّا لو صنع من حديد أو برونز ولهما الوزن نفسه تقريباً.

رفع تروتّي إصبعه كما لو أنّه في المدرسة.

- عفواً يا سير أنتونيو، بما أنّه ليست لديّ فرص عديدة لأوّجه أسئلة إليك، فهل لك بالإجابة على أمر مازال يثير فضولي؟

- أرجو أن أتمكّن من إرضائك يا صاحب السعادة.

- كنت دائما أسمع أنّه لا يمكن صنع مدافع من حديد لاستخدامها في الحرب، لأنّها ستكون ثقيلة جداً بحيث يصعب تحريكها ونقلها. لكنّك أخبرتني للتوّ أنّ الحديد والبرونز لهما نفس الوزن تقريباً. لا أفهم إذاً كيف يمكن التوفيق بين هذين الرأيين.

رفع ميسّاليا يداً تشبه لوحة التقطيع، في الشكل والحجم، وقال: - انظر يا صاحب السعادة، هناك ثلاثة خيارات.

وهنا وضع ميسّاليا بين إصبعيه إبهامه الضخم.

- يمكن أوّلاً صنع مدفع من البرونز بسماكة بوصة، ونقله بالأحصنة واستعماله في الحرب.

ثمّ أمسك ميسّاليا بالسبّابة.

- يمكن ثانياً صنع مدفع من حديد بسماكة بوصة ونقله بالعناء نفسه من غير أن يمكن استعماله في الحرب، لأنّه سينفجر أمامك عند أوّل طلقة.

ثمّ ضغط ميسّاليا على الوسطى.

– يمكن ثالثاً صنع مدفع من الحديد بسماكة بوصتين واستعماله في الحرب، لكنّ نقله إلى الميدان يكلّف الكثير. وهو سيكون أثقل من مدفع برونزي بالأبعاد نفسها. كما أنّ البرونز ينصهر ويصبح سائلاً بسهولة أكبر. فهو يتحمّل نصف الحرارة أو ما شابه ذلك. البرونز هو معدن عظيم، لكن لا يمكن استعماله في الدروع. لأنّ طرقه أمر صعب. وهو يصلح للمدافع أو التماثيل، هل هذا صحيح أيّها المعلّم ليوناردو؟

لم يغيّر ليوناردو شيئاً من عاداته عندما استغرق في التفكير من جديد، فقطّب جبينه وخفض بصره. وله في هذا ما يبرّره لأنّ الأمور التي كان يتحدّث عنها ميسّاليا يعرفها هو حقّ المعرفة. لكنّه عاد وانتبه بعد مضيّ ثانيتين بينما بدأت تجاعيد جبهته تنفرج.

– كلامك صحيح وقلت الحقّ أيّها المعلّم أنتونيو. لا بل إنّي جئت الآن في هذا الصدد. أنت تعلم أنّي أقوم بتجارب صغيرة لصهر نصب الحصان الضخم الذي سيقام تخليداً لذكرى صاحب السيادة الدوق المتوفّى، وأنا بحاجة إلى كميّة قليلة من النحاس لأصهرها مع البرونز. ثلاث أو أربع صفائح على الأكثر.

– كما تشاء أيّها المعلّم ليوناردو. هل تحتاج أيضاً إلى القصدير من أجل اللّحام؟

– لا، فلديّ منه ما يكفي لعمليّتي صهر أو ثلاثة. لكنّ عليّ أيّها المعلّم أنتونيو أن أطلب منك هذا النحاس بالدين. فأنا لا أملك الآن المال اللازم لدفع الثمن، لكنّي أنتظر تسديد رصيدي من لوحات الأخويّة، و...

بينما كان تروتّي يبتعد بضع خطوات من أجل تخفيف الحرج، رفع ميسّاليا يديه وحجب في ظلّهما هكتاراً من الرواق خلفه.

– من فضلك أيّها المعلّم ليوناردو. لك هذا وأكثر. يكفي ألّا تعدني أن تدفع مقابل هذا رصاصاً. وهنا أطلق ميسّاليا ضحكة ما لبث أن كتمها عندما رأى أنّ ليوناردو قد أصبح بلون النبيذ. – كنت أمزح بالطبع أيّها المعلّم ليوناردو. سأرسل حالاً في جلب النحاس. إنّ الذين يسدّدون

بعسر هم آخرون، أمّا أنت فعد إليّ متى شئت وكيفما شئت، فأنت مرحّب بك على الدوام.

أهلاً بك يا غالياتسو. هل ذهبت إلى بيت المسكين رامبالدو كيتّي؟

كان لودوفيكو إيل مورو جالساً على سريره وهو يلعب الورق مع بياتريشِه التي بدا أنّها تربح، هذا إذا حكمنا من خلال كومة الدراهم الفضّيّة الصغيرة التي كانت في حضنها. وإذا حكمنا من خلال وجه صاحب السيادة فربحها لم يكن فقط بسبب الحظّ و/ أو مهارة زوجته.

– حسب رغبتك يا صاحب السيادة. ثمّ رفع غالياتسو ذقنه، وكان من المستحيل عدم ملاحظة أنّ عينيه تبرقان. كان هذا أوضح من الصندوق الخشبيّ الذي كان يحمله بين يديه، والذي بدا أنّه يزن كثيراً. – لقد أغلقنا الأبواب والنوافذ وسمّرناها، كما كوّمنا الثياب والأغطية التي وجدناها في البيت في عربة هنا في الخارج.

لفّ لودوفيكو أوراقه ببطء، بينما أخفتها بياتريشِه بطريقة صاعقة وأسرعت لتدخلها بين الأوراق الي كانت في يدها. وقال: – حسناً، اعملوا الآن على إحراقها بالحطب والفحم والأعشاب العطريّة والبخور. فقد قال المعلّم آمبرودجو إنّ هذه المواد مهمّة من أجل استبعاد العدوى لتتطاير مع الدخان ولا تتمكن من الانتقال مع الرياح.

– وهكذا سنفعل. لكنّي أظنّ أنّك تريد أن تسمع ماذا وجدنا أيضاً غير ذلك، وكيف وجدناه.

– أنا أتابعك أيّها الكابتن.

– كان بيت رامبالادو كيتي بيتاً فقيراً جدّاً. فقيراً مثل ملابس صاحبه ومثل حاجيّاته القليلة. لكنّ هذه الأشياء القليلة كانت مبعثرة بفوضى ومتناثرة بشكل يستحيل معه التفكير أنّه بوسع أحد أن يعيش في بيت دعارة كهذا، إذا كان من المسموح لي استعمال مثل هذا التعبير الخليع بوجود السيّدات.

كانت هذه إشارة متّفق عليها بين غالياتسو ولودوفيكو. فعندما يستعمل غالياتسو عبارة غير ملائمة ويعتذر بعد ذلك، فهذا يعني أنّه يريد أن يبقى وحيداً مع إيل مورو. - أمن أجل كلمة بسيطة يا عزيزي غالياتسو. على كلّ فمن الأفضل ألّا تسمع أذناكِ أحاديث مسيئة يا زوجتي الحبيبة.

ومع أنّه قال ذلك بكلمات لطيفة، وبلهجة لطيفة، فقد كان لا يحدث إلّا نادراً أن يطلب إيل مورو تركه وحيداً، لذلك فعندما يفعل كان لابدّ من إطاعته بسرعة. لذلك فسرعان ما خرجت بياتريشِه دي إيست وهي تبتسم وتوجّهت على الأرجح نحو طفلها لمدة أربع أو خمس دقائق في رعايته اليوميّة. لكن ليس قبل أن تجمع بيد لفّافة القطع الفضّيّة الصغيرة التي كانت منثورة بين ثنايا تنّورتها.

- أخبرني إذا يا غالياتسو، يبدو أنّكم لم تكونوا أوّل من دخل إلى بيت هذا البائس.

- لا، فالبيت قد قلب من أوّله إلى آخره، إذا أمكن الكلام عن أوّل وآخر بالنسبة لزوجين من الغرف الممسوخة. لم نكن أوّل من دخل، لكنّنا كنّا الأكثر حظّاً.

تناول غالياتسو الصندوق الخشبيّ الذي كان يحمله ووضعه على الأرض أمام لودوفيكو.

- من دخل إلى البيت لم يبحث فيه جيّداً. كان هناك قرب السرير سندان، أو أرومة من خشب. كانت الأرومة مجوّفة، لكنّها مملوءة بالكامل حتّى لا يشعر أحد بأصوات تدّل على التجويف.

- وكيف حدث وأن لاحظت ذلك؟

- تساءلت ماذا يفعل شخص رسّام بسندان في بيته؟ شخص فقير بالفعل في غرفة صغيرة كتلك الغرفة، فلماذا عليه أن يحتفظ بشيء كبير الحجم؟ - فتح غالياتسو الصندوق وهو يتحدّث وسحب منه شيئاً يشبه الأداة الحديديّة الطويلة التي تستعمل لتسهيل انتعال الحذاء. فما هي فائدة هذا بالنسبة إليه. هل تعرف ما هذا؟

– لا، لا أعرف. إنّه يذكّرني بشيء ما، لكن لا أعرف ما هو على وجه الدقّة.

– ربّما توضّح لك الأمر إذا عرضت عليك هذا أيضاً – قال غالياتسو وهو يسحب من الصندوق قضيبين صغيرين من الفضّة.

حوّل لودوفيكو نظره نحو هذا الشيء وصاح: – ماريّا، أيّتها العذراء المقدّسة. قناة من حديد لصهر المعادن. كان كيتي مُزوّراً.

أكّد غالياتسو سانسيفيرينو ذلك – هذا على ما يبدو. كان السندان يحمل علامات دائريّة مختلفة، كما لو أنّهم ضربوا عليه قطع عملة. كما كان يحتوي الصندوق على شفرات وكمّاشات وصفيحة نحاس وبوتقة صغيرة.

– هل هناك دراهم أيضاً في الأرومة؟

– لا توجد قطع معدنيّة بل دراهم. وكنت أرغب أن أتحدّث معك بهذا.

– هل ترى يا كيتي...قال لودوفيكو، بينما انحنى غالياتسو من جديد على الصندوق لينبش داخله. – يمكن بالفعل، يمكن أن يكون هذا البائس قد قتله واحد من بين جماعاته المشبوهة. يبدو أنّ السير ليوناردو هو المحقّ في نهاية الأمر.

– هزّ غالياتسو رأسه بعدما أمسك بما كان يبحث عنه.

– لحظة من الصبر يا لودوفيكو، وسنتكلّم بعدها عن ليوناردو أيضاً.

– وهكذا فقد وصلنا يا سير ليوناردو. لكنّي أريد أن أطلب منك معروفاً إذا أمكن.

فأجاب ليوناردو وهو يدفع باب البيت: – قل لي رجاء يا سير جاكومو. هذا بيتي والغرف المتواضعة هي تحت تصرّفك.

– أشكرك يا ليوناردو، لكن اسمع، إنّي أشعر بحاجة ماسّة للانفراد بنفسي، وكنت أتساءل ما إذا...

– أرجوك يا سير جاكومو، قال ليوناردو وهو يشير بيده نحو الدرج. – يمكنك أن تستعمل غرفتي على راحتك. ستجد ما يلزمك في صندوق في الأسفل قرب مضجعي. مساء الخير يا كاترينا.

– إنّي في المطبخ يا ليوناردو. سمعها تروتّي تقول وهو يتوجّه نحو الدرج.

بعد أن فتح الباب نظر تروتّي حوله. وبقي ينظر حواليه وهو يفتح الصندوق الذي كلّمه ليوناردو عنه، ثمّ سحب منه مستعملة ثقيلة من النحاس.

كان جاكومو تروتّي يناهز السبعين من العمر، وأن يطلب استخدام المستعملة في بيت أناس آخرين لم يكن إلّا حجّة ليتمكّن من مراقبة ما حوله على هواه. استخدمها بكلّ الانتباه الذي على رجل في السبعين أن يمارسه في هذه الحال ليتمكّن من التنسيق بأفضل الطرق بين ضعف بصره والبروستات المتضخّمة جدّاً، لكنّ تروتّي بقي يراقب ما حوله.

كانت الغرفة غرفة عاديّة، مثل غرفة أيّ شخص، إذا استثنينا الأوراق الكثيرة المتناثرة في كلّ مكان ووفق نظام لا يسمّى نظاماً إلّا في رأس صاحبها. ثمّ لا مشجب، ولا أوان زجاجيّة، ولا أدوات معدنية كالتي يستعملها الكيميائيّون، فكلّ هذه يمكن أن تكون في المكتب، ولا يوجد هنا إلّا بعض الملاحظات المكتوبة. لذلك فمن الصعب تكوين فكرة دقيقة، ومن المستحيل البدء بالنظر في الأوراق خاصّة أنّها مكتوبة من اليمين إلى اليسار، ولا يمكن فهمها إذا كان ليس لدى المرء ما يكفي من الوقت. ولم يكن عند تروتّي الوقت اللازم. قد تكون البروستات ذريعة، لكن لا يمكن لشخص أن يمضي ربع ساعة وحده في غرفة ليست له.

أعاد المستعملة إلى مكانها بعد أن أفرغها من النافذة وهو يطلق تحذيرات مؤدّبة لكن بصوت مرتفع. ثمّ صلّح تروتّي هندامه وخرج من الغرفة ليعود إلى الطابق الأرضيّ.

– أشكرك إذاً يا سير ليوناردو على هذه الصحبة... بدأ لكنّه ما لبث

أن قطع حديثه عندما دخل إلى المطبخ ورأى كاترينا التي كانت جالسة إلى الطاولة وأمامها وعاء فاصولياء كانت تفصّصها وعليها علائم التعب والتأفّف. عندما رأت تروتّي وضعت الوعاء ووقفت على قدميها وهي تنفض القشور عن تنّورتها.

– العفو يا سير، لكنّ ابني اضطرّ للخروج بسرعة. فقد جاء خادم من القلعة ومعه أمر بأخذه إلى صاحب السيادة لودوفيكو سفورتسا. ويستميحك عذراً لأنّه لم يلق عليك تحيّاته.

أرجوك، أجاب تروتّي وهو يباعد بين يديه ليخفّف من شأن المشكلة.

– أنا الذي يجب أن أشكرك، وأن أشكر ابنك على إعطائي شيئاً من وقته الثمين.

– إيه، الوقت. ليس لدى ليوناردو ما يكفي من الوقت. لذلك فهو يقطّعه، ويبحث عنه، بكلّ الأشكال. ينام ساعة ونصف الساعة، ويبقى مستيقظاً أربع ساعات. وتراه يجري وراء ألف شيء.

– أوَ يعمل في الليل إذاً؟

– وكيف. ثمّ كأنّ العمل في المنزل أمر سيئ، يبعد عنه النوم فحسب. لا، فهو يخرج أيضاً.

– يخرج؟ في الليل؟

– أجل يا سيّدي، وأنت تعلم يا سيّدي أنّي امرأة كبيرة في السنّ، أستيقظ في الليل ولا يعود إليّ النوم أبداً. وقد وجدت بالفعل أنّه لم يكن في المنزل خلال الليل لثلاث مرّات، ولم يرجع قبل الصباح مباشرة. وقد قلت له إنّ التجوّل في المدينة أمر خطير خلال الليل، لكن لا شيء. يقول: إذا طلب هذا منّي صاحب السيادة لودوفيكو، فعليّ أن أستجيب.

– لودوفيكو؟ وماذا عليه أن يفعل في الليل من أجل صاحب السيادة؟

– هل تعرف أنت شيئاً من هذا؟ أنا كذلك لا أعرف. – ثمّ فركت كاترينا يديها بالمئزر وألقت نظرة سريعة على الطاولة وعلى كوم الفاصولياء الذي

يشبه الهرم والذي ما زال عليها أن تفصّصه. - أمّا الآن فأستميحك العذر يا سيدّي، عليّ أن أعود إلى أشغالي. هناك الكثير من العمل ولا يوجد مخلوق يمدّ لي يد العون. لا بل إذا صدف أن رأيت هنا في الخارج فتى في الشارع يرتدي سترة بيضاء وسروالاً أبيض وأزرق فنادِ عليه وأرسله إليّ هنا.

- وصل السير ليوناردو دافنشي يا صاحب السيادة.

- دعه يدخل، يا آمر القلعة، أدخله.

أدخل آمر القلعة ليوناردو إلى قاعة سكارليوني وكان بانتظاره ثلاثة أشخاص. لودوفيكو إيل مورو، غالياتسر سانسيفيرينو، الماركيز ستانغا.

عندما رأى ليوناردو هذا الأخير شعر بقلبه ينفرج. فالماركيز ستانغا هو شخص جادّ جدّاً رغم اسمه المضحك[18]، وهو مشرف على ماليّة القصر، أو أنّه الموظّف المسؤول عن الإنفاق. أو هو من يفكّ المرء من حبل المشنقة كما كانوا يقولون في تلك الأنحاء. ووجوده في القاعة يعني شيئاً واحداً. أنّ لودوفيكو قد تسلّم الدراهم مباشرة من الأخويّة وأنّه إلى سبيله لوضع حدّ لمتاعبه الماليّة.

- ها هو، ها هو، تعال يا سير ليوناردو. لدينا أخبار عظيمة جديدة تخصّك. أمّا أنت يا ستانغا فبوسعك أن تغادرنا، فقد انتهينا اليوم من الحديث.

- كما ترغب يا صاحب السيادة. أجاب الرجل بإيماءة من رأسه وأخذ يبتعد ليترك ليوناردو في صحبة إيل مورو وغالياتسو لكنّه أصبح أشدّ عزلة من ذي قبل.

- لدينا إذاً يا سير ليوناردو أمور عظيمة جديدة كما سبق أن أخبرتك. تعال، تقدّم. ماذا تحمل في ذلك الكيس؟

18- كلمة ستانغا تعني بالإيطاليّة عصاة أو ضربة. (م)

- صفائح من نحاس يا صاحب السيادة، من أجل إجراء تجارب مصغّرة حول صهر الحصان. وقد أهداني إيّاها المعلّم الطيّب أنتونيو ميسّاليا، بكرم منه كبير.

أودّ بهذا أن أثير انتباهك سيدّي المحترم أنّه سبق لك أن وعدتني بدفعة من المال، بينما أرى الآن ستانغا قد صرف. أريد أن أعرف لماذا استدعيتني إلى هذا المكان. لأنّك أنت الذي استدعيتني بعد أن قضيت نهاراً أسود. لقد فكّرت به من غير أن أبوح. فهناك صفائح نحاس بالدين ثمّ ميسّاليا. يضعني في أزمة بسبب البرونز والرصاص. وعندما استدعيتني، قلت حسناً سيدفع لي. لكنّك صرفت ستانغا. فلماذا أنا هنا إذاً؟

- حسناً، حسناً، شغّيل عظيم هذا الليوناردو. يفعل أمراً ويفكّر بعشرة. قد أدفع من حين لآخر مقابل أفكارك هذه.

من حين لآخر، لكن ليس الآن، فهذا لن يعجبك.

- كما أسلفت فإنّ هناك أموراً عظيمة جديدة. فلقد زار الكابتن غالياتسو أمكنة الميّت وأفرغها، أي غرف البائس رامبالدو كيتي. وجدوا هناك فوضى كبيرة، بلبلة مخيفة. كما لو أنّ أحداً جاء قبل ذلك وفتّش في أغراض كيتي.

- اسمح لي يا صاحب السيادة أنّ هذا يعني اعتماد فرضيّتي القائلة إنّ كيتي قد مات قتلاً. وهل وجدوا أشياء مهمّة؟

- الكثير يا سير ليوناردو، الكثير. أو بالأحرى فإنّ من بحث لم يجد شيئاً. أمّا غالياتسو الشاطر فقد وجد هذه الأشياء التي أخفيت ببراعة داخل أرومة. هل تعرف ما هي؟

- مِبْرد، قوالب عملة معدنيّة، معجون طينيّ، كمّاشات، براغٍ. قناة لصهر المعادن، أدوات صنع مجوهرات أو تزييف عملة.

- صحيح يا ليوناردو. هل أنت بخير، يبدو لي أنّك شاحب الوجه.

- أنا بخير يا صاحب السيادة، لكنّي أمضيت يوماً صعباً.

– ولم ينته الأمر يا سير ليوناردو. هناك شيئان آخران أريد أن أعرضهما عليك.

أخذ لودوفيكو بعض الأوراق من بين يديّ غالياتسو وفتح إحداها. كانت عبارة عن صفحة من أوراق فلورنسا الشديدة النعومة، مكتوبة بخطّ منتظم ودقيق.

سنة 1493 يوم 24 حزيران في فلورنسا

ألف فلورين[19]

ادفعوا مباشرة حسب الأصول إلى سير رامبالدو كيتي ألف فلورين، بدوقيّات ألف وخمس وعشرين لكلّ فلورين عن طريق آتشيريّتو بورتيناري وشركاه هنا في ميلانو. وليحفظكم المسيح.

وتحمل الورقة توقيعاً، توقيعاً يعرفه ليوناردو. لكن لم يكن التوقيع هو المهمّ، بل كانت تلك الرسالة.

عندما يستلم موظّف البنك رسالة اعتماد، فعليه أن يدفع المبلغ المذكور فيها عدّاً ونقداً. وبدهيّ أنّ كلّ مدير بنك لديه عيّنة من كتابات كلّ واحد من زملائه في الفروع الأخرى. وإذا تكلّمنا عن بنك ميديشي أو عن بنوك متعاملة معه، فنحن نتكلّم عن فروع له منتشرة في أنحاء أوروبّا، من روما إلى لندن مروراً بمدينة بروج البلجيكيّة.

كانت رسائل الاعتماد هي محور الأعمال في القارّة، وهي تضع حاملها في أمان من اللصوص خلال سفره في رحلات صعبة فلا يضطرّ

19– فيورينو أو الفلورين fiorino هي عملة ذهبية عيار 24 قيراطاً حوالي 3.537 غرامات صكّت لأول مرة عام 1252 في فلورنسا. اشتقّ الاسم من زهرة الزنبق المرسومة على وجه العملة. بفضل القوة المصرفية المتنامية لفلورنسا أصبح الفلورين في القرن الثالث عشر وحتى عصر النهضة عملة التبادل المفضلة في أوروبا، أي مثل اليورو الآن.

إلى حمل عربة من المال معه. فهو يودع المال في فلورنسا ويأخذ الرسالة ويذهب إلى لندن حيث يسحب ما ودع بسعر الصرف القائم. فهو وإن خسر شيئاً من المال فإنّه يكون قد ربح ربحاً عظيماً في الأمان.

نظر ليوناردو إلى الورقة بشيء من الرهبة.

- لا أفهم.

- ولا أنا. هذه رسالة اعتماد بألف دوقيّة في يد فقير كان يعمل رسّاماً. لكنّنا الآن اثنان لا يفهمان. أمّا هذه الوثيقة الثانية التي سأعرضها عليك، فإنّك ستفهمها أكثر ممّا أفهمها.

وعرض لودوفيكو على ليوناردو ورقة أخرى. ورقة فيها رسمان مختلطان ببعض الأرقام ومغطّاة بخطوط دقيقة لا يفهم منها في الحقيقة شيء على الإطلاق.

طبعاً. فهي مكتوبة من اليمين إلى اليسار.

ثمانية

كان رامبالدو كيتي فتى يعمل في مرسم. جاء إليّ بتوصية من زبون صديق عزيز هو جوفانّي بورتيناري الذي طلب منّي أن أقبله في بيتي ومرسمي، وهذا ما فعلته.

كان لودوفيكو يسمع وهو جامد في مكانه، وقد ضمّ يديه الواحدة فوق الأخرى وجمعهما أمام فمه، وكأنّه يريد أن يظهر أنّه ما دام ليوناردو يتكلّم فهو سيبقى عينين وأذنين وما وراءها ولا غير ذلك.

– كان رامبالدو شخصاً جيّداً وذا موهبة، تعلّم بسرعة وكان نشيطاً ومهذّباً. وكنت مسروراً منه، بل إنّه سرعان ما بدأ يساعدني في أعمالي.

تنهّد ليوناردو ببطء وهو ينظر إلى الأرض. لم تكن هناك حاجة لأن يرفع رأسه ويتأكّد أن لودوفيكو ما زال موجوداً وأنّه لم يغيّر جلسته.

– بعد ذلك، قبل سنتين تقريباً، أرسل المعلّم أنتونيو ميسّاليا في طلبي. قال لي إنّه وجد في صندوق ماله دراهم مزيّفة. دوقيّات من رصاص مطليّة بطبقة رقيقة من الذهب، ومقلّدة على وجه الكمال، تخدع إلى أن توضع على ميزان هيدروستاتيكيّ. وقال إنّه يشكّ ببعض زبائنه. وطلب منّي أن أضع علامة على الدراهم التي أعطيها لمن يعمل عندي.

جلس غالياتسو إلى جانب لودوفيكو، وبدا أنّه يتابع الاثنين على التوالي، فكان ينظر إلى لودوفيكو عندما كان ليوناردو يتكلّم، ثمّ يلتفت بنظره إلى ليوناردو عندما كان هذا يتوقّف عن الكلام ليستعيد أنفاسه ويستجمع أفكاره.

بعد شهر طلبني المعلّم أنتونيو. وكنت قد أعطيت في ذلك الصباح أربع دوقيّات إلى رامبالدو كيتي بعد أن وضعت عليها علامة. لكنّ الدوقيّات التي رأيت أنّه يسلّمها بيده في الساعة الخامسة كانت خالية من تلك العلامة. كانت هذه واقعة لا يمكن تجاهلها.

باعد ليوناردو بين يديه. ولم يحرّك لودوفيكو عضلة. قد لا يصدّق كيف يمكن لكائن جامد بهذه الطريقة أن يكون حيّاً بكلّ وضوح.

- بعد أن قدّمت اعتذاري للمعلّم أنتونيو، قدت كيتي إلى البيت وطلبت منه أن يشرح لي العمليّة التي استعملها. لن أطيل الحديث، لكنّ هذا ما تجدونه مكتوباً بالضبط في الورقة التي عرضتها عليّ قبل قليل. وفيها وصف العمليّة التي استعملها ليضع الذهب فوق الرصاص. فيها وصف للعمليّة وللأزمان المطلوبة التي لابدّ من تطبقيها وإلّا فإنّ النتيجة ستكون سيّئة. وهي الطرق نفسها التي فكّرنا فيها في البداية أنا والمعلّم أنتونيو من أجل تصنيع درع الكابتن سانسيفيرينو المبجّل من معادن خفيفة نعطيها مظهر الذهب.

وهنا أخذ ليوناردو نفساً عميقاً.

- إنّك تفهم يا صاحب السيادة المبجّل حيرتي وحرجي. إذ إنّي أنا الذي علّمت ذلك الوغد هذه الفنون، ثمّ وجدت أنّها تستعمل لصنع دراهم مزيّفة تساق لأعزّ زميل عليّ في ميلانو كلّها. شعرت بشيء كثير من العار والاشمئزاز بسبب فعلته، حتّى إنّي لم أوبّخه، بل أسرعت بطرده من البيت وكتبت إلى أصدقائي القلائل من الخبراء بفنون المعادن مثل سانغالّو وفرانشيسكو دي جورجو والبالّايولو، وحذّرتهم كي لا يفتحوا الباب لذلك البائس إذا حدث أن طرقه، وإلّا فإنّهم سيدخلون البوار إلى بيوتهم...

أرخى لودوفيكو يديه وأبعدهما عن وجهه بينما التزم ليوناردو الصمت.

ثمّ قال لودوفيكو بلهجة حادّة: - كان عليك أن تبلغني عنه وأن تعلم المجلس السرّيّ.

– كنت ستقضي عليه بالموت يا صاحب السيادة.

– كنت سأقوم بواجبي كزعيم يقوم بشؤون هذه المدينة. كنت سأحول دون سيلان دراهم مزيّفة وسأمنع أيّ فرد يحاول أن يجرّب تقليد أفعاله مرّة أخرى. كنت سأفعل ما ينبغي فعله. لكنّك أنت يا ليوناردو هو الذي لم يفعل ما ينبغي فعله.

وقف لودوفيكو على قدميه وهيمن على القاعة وعلى الموجودين، زعيم في الشكل وفي المضمون.

– أنت الذي كان عليك أن تقوم بواجبك كمواطن. إنّ المدينة، يا ليوناردو، لا تحميها فقط مناعة أسوارها التي تحيط بها، لكن هي تقوم أيضاً على الثقة بين سكّانها ومن يعمل فيها. إنّ لهذه الرسالة أهميّتها يا ليوناردو لأنّي أثق بمن أصدرها، وأنا متأكّد أنّه قادر على تشريف الطلب. إنّنا قادرون بفضل هذه الثقة على المتاجرة في جميع أنحاء أوروبّا، فنبيع حريرنا في بروج وأسلحتنا في باريس وأصوافنا في فرانكفورت. أمّا إذا كنت لا أثق بمن كتبها فهذه الورقة ستكون مجرّد ورقة قمامة.

بينما كان ليوناردو وغالياتسو يستمعان أخذ لودوفيكو يتجوّل حول القاعة وهو مستمرّ في الكلام.

– إنّ مدينة أهلها شرفاء هي مدينة مثاليّة للعيش فيها، لكنّ هناك أمراً وهو أنّ الناس ليسوا شرفاء. أعطوني مئة مواطن واسألوني إذا كان معظمهم رجالاً طيّبين وسأجيبكم نعم. لأنّ تسعين منهم أو ربّما أكثر لن يكونوا سيّئين. لكن يكفي واحد فقط ليفسد المئة يا ليوناردو، ذلك كما يكفي رمي ملعقة من البراز في برميل نبيذ لإفساده وجعله غير صالح للشرب. وإنّه من واجبي كزعيم أن أحفظ أمان واطمئنان أولئك التسعة والتسعين، وألّا أقلق لمصير ذلك المخطئ. بهذا فقط نحافظ على الثقة. والآن أخبرني ياليوناردو هل عرفت رامبالدو كيتي عندما رأيته أمامك جثّة هامدة؟

– أجل، يا صاحب السيادة.

- وهل قرّرت بعد أن عرفته أن تفحص رفات جثّته كي تحدّد سبب موته؟

- أجل، يا صاحب السيادة.

- وهل فكّرت بإخباري عاجلاً أو آجلاً أنّك كنت تعرف الميّت؟

- لست متأكّداً يا صاحب السيادة.

- ولماذا؟

- كنت أخشى أن تسيء فهم علاقتي مع البائس، أنه يمكن لك أن تفكّر أنّي كنت وبقيت شريكه وزميلاً له في الأعمال البغيضة التي اعتاد عليها.

- وهذا ما يمكن لي أن أظنّه الآن أيضاً. لا بل الآن أكثر من السابق. يمكن لي أن أظنّ أنّك كنت في السابق وحتّى وقت قليل مضى تضرب العملة الزائفة بالتعاون مع فتى مرسمك، وأنّك بعد ذهابه وجدت نفسك بحاجة إلى المال. فأخبرني الآن يا ليوناردو، لماذا عليّ أن أثق بك؟

- لبعض الأسباب التي سأقصّها عليك يا صاحب السيادة إن تكرّمت عليّ وتحلّيت بالصبر حتّى تسمعها منّي.

كانت اللهجة، أكثر من أيّ شيء آخر، هي ما فاجأ غالياتسو. لم يحوّل الكابتن منذ بداية خطاب لودوفيكو أنظاره عن ليوناردو، وقد رأى أنّه كلّما تقدّم زعيم ميلانو في حديثه، ازداد هذا صفاء ولم ينتقص شيئاً من صفائه. كما بدأ يتحدّث الآن باحترام وبهدوء، مثل شخص لا يعرف فقط أنّه على حقّ، بل وأنّه قادر أيضاً على إحقاق حقّه، وهذان أمران لا يتوافقان على الدوام.

- قل لي إذاً. إنّي أستمع إليك.

- هناك في المكان الأوّل الرسائل التي أرسلتها إلى رفاقي القليلين في الفنّ الذين حدّثتك عنهم قبل قليل. وهم حرفيّون ومهندسون محترمون وأشخاص من أصحاب الضمائر الحيّة، وأنا على ثقة أنّهم احتفظوا برسائلي تلك، كما احتفظت أنا برسائلهم.

- حسناً، ثمّ ماذا.

- ثانياً سبق لي أن قلت لك، بل وأصررت في القول إنّ رامبالدو كيتي قد مات قتلاً، وإنّه لم يمت بسبب مرض أو حقد إلهيّ ضدّه، على ما قاله آخرون. وسأكون قصير النظر حقّاً يا صاحب السيادة لو أنّي أوقعت نفسي في فخّ نصبته أنا بالذات وبيديّ.

ـ فليكن، لك هذا. هل هناك شيء آخر تريد أن تقوله لي؟

- هناك أمران. الأوّل هو أنّي أثق بعدلك، فكما أظهرت عدّة مرّات وخاصّة في حادثة الألمانيّين في كابياغو.

في نهاية أيّار كان هناك ألمانيّان يسكنان في كابياغو قرب بحيرة كومو، هما ياكوب دي بريسّيرار ويوس كرينج، وقد اعتقلا مع خادمهما بتهمة تزوير العملة. وقد تمّ تفتيش بيتهما ومصادرة كلّ ما فيه ثمّ تسجيل كلّ شيء. وقام إيل مورو بعد ذلك بتفحّص السجلّ وتبيّن له بمعونة ليوناردو أنّ الاثنين كانا يعملان بالكيمياء وليسا مزيّفي عملة. كما لم يكونا كيميائيّين ساذجيْن بحيث يحاولان الحصول على الذهب بمزج الرصاص بالبول، كما كان يقال في كثير من الأحيان، بدلاً من استعمال ثاني كبريتيد الزنك الذي أصبح، كما يعرف الجميع الآن، الوسيلة الواعدة لاستخلاص الذهب. كان الاثنان يملكان مخبراً متقدّماً وكميّة كبيرة من الموادّ، لكن لم يكن لديهما لا مسكوكات ولا موادّ ولا أشياء تساعد على التزوير. وهكذا فقد تمّ إطلاق سراح الاثنين في الحادي عشر من حزيران بأمر وقّعه إيل مورو شخصيّاً، وذلك بعد أحد عشر يوماً من السجن ومن غير أن يتعرّضا لأيّ تعذيب. ولم يكن مثل هذا ليحدث في أماكن كثيرة في نهاية القرن الخامس عشر.

- والثاني؟

- الأمر الثاني يا صاحب السيادة أنّ لديّ براهين تثبت أنّ كيتي لم يكن مزيّف عملة فحسب، وأنّ رسالة الاعتماد التي عرضتَها عليّ قبل قليل هي مزيّفة.

– أنت ترى يا صاحب السيادة أنّ الرسالة موقّعة من قِبل بينشو سيرّيستوري، شريك آتشيرّيتو بورتيناري، وهو صديق عزيز من فلورنسا. كما أنّ الرسالة مؤرّخة بشكل واضح في اليوم الرابع والعشرين من شهر حزيران من عامنا هذا.

– أرى ذلك. لكن ماذا يعني؟

– انظر يا صاحب السيادة، إنّ الرابع والعشرين من شهر حزيران هو يوم عيد القدّيس يوحنّا المعمدان في فلورنسا. ولا أحد يعمل في ذلك اليوم خلال عيد القدّيس راعي المدينة. وبما أنّي أعرف بينشو سيرّيستوري حقّ المعرفة فأنا على ثقة أنّه لن يترك بيته وقبل كلّ شيء لن يتنازل عن المائدة العامرة المجهّزة للاحتفال بعيد القدّيس يوحنّا من أجل أن يذهب إلى البنك.

– هل كنت تعرفه؟

– تماماً يا صاحب السيادة. ولقد مات بينشو سيرّيستوري في فلورنسا في الأوّل من تمّوز من هذا العام. وهذا ما أخبرتْني به، بين قصص أخرى أتت بها من فلورنسا، أمّي كاترينا التي جاءت لتقيم معي بعد ذلك بفترة قصيرة.

جمع لودوفيكو يديه حول وجهه، وبدأ يفرك ذقنه بأطراف السبّابتين إلى الأعلى وإلى الأسفل. وقد تكون هذه حركة قد لا تتوافق كثيراً مع هيبة الدوق، لكنّها كانت في تلك اللحظة أكثر من ضروريّة. لأنّ لودوفيكو كان يفكّر.

إنّ دفع رسالة الاعتماد يتطلّب أن تكون هذه متطابقة مع فحوى وتوقيع العيّنة التي يحتفظ بها كلّ مدير بنك. وإذا قام كيتي بتزييف تلك الرسالة فهذا يعني أنّه كان يملك عيّنة الرسالة الحقيقيّة. لكن أين أمكن له أن يحصل على تلك العيّنة؟

وأين كانت قبل كلّ شيء تلك العيّنة؟

– كنت تعرف إذاً حقّ المعرفة بينشو سيرّيستوري هذا

– سبق أن أخبرتك أنّا كنّا نستضيف بعضنا بعضاً في فلورنسا.

- وهل عندك فكرة عمّن كان يدير له أعماله هنا في ميلانو؟

- هناك العديدون يا صاحب السيادة ممّن أتذكّرهم. لكن لا أستطيع تأكيد أنّهم هم كلّهم.

واصل إيل مورو فرك ذقنه بأنامله. هناك رسالة اعتماد زائفة. والأصليّة غير موجودة. والرجل الذي يبدو أنّه دبّرها قتل بتلك الطريقة الغريبة وألقي به وسط قلعتي. في مركز المدينة. يجب عليّ إذاً أن أسبر أعماق هذه القضيّة.

- حضّر يا سير ليوناردو قائمة بأسماء أهل ميلانو الذين تعرف أنّهم كانوا يتاجرون مع صديقك سيّريستوري.

- كما تريد يا صاحب السيادة. هل يمكن لي إذاً أن أرجو الحصول على عفوك وثقتك يا صاحب السيادة؟

- يمكنك أن تكون يا سير ليوناردو دائماً على يقين من عفوي، من عفوي المسيحيّ. أمّا عن الثقة فلنر إذا كنت ستعرف كيف ستتمكّن من استحقاقها. وتذكّر أنّ هناك بيننا اتّفاقات واضحة ودقيقة ما زالت تنتظر برهاناً عليها من مهاراتك.

تحرّكت نظرات إيل مورو بطريقة لا يمكن وصفها لكنّها كانت واضحة عندما حطّت على وجه ليوناردو.

ولا أتكلّم فقط عن حصان البرونز، على ما قالته تلك النظرات.

أعرف ذلك حقّ المعرفة، أجابت عينان في الجهة المقابلة له.

- يجب عليّ يا غالياتسو أن أسبر أعماق هذه القضيّة. لا أفهم ما الذي يحدث، لكنّه لا يعجبني.

- أنا أيضاً لا أفهم شيئاً يا لودوفيكو. واسمع، فأنا لم أفهم كما يجب لماذا قام البعض بإلقاء تلك الجثّة وسط الساحة، كما يرمى قطّ مات في البيت. لا أفهم لماذا فعل ذلك وماذا ينتظر من ورائه.

- أنت يا غالياتسو تتساءل عن السبب، لأنّك تفكّر كما يفكّر العساكر.

أمّا أنا فإنّي حاكم ولذلك فإنّي أسأل: من الذي فعل هذا؟ أتساءل من يمكن له أن يفعل، ولا أدري بمن أثق ومتى أثق.

بقي غالياتسو ولودوفيكو بمفردهما في القاعة الكبيرة، بانتظار مجيء أعضاء المجلس السرّيّ وبدء جلسات الاستماع لذلك اليوم. والقادمون لن يكونوا من المتسوّلين - الذين يريدون التحدّث إلى إيل مورو - بل أشخاص تمّ استدعاؤهم. أشخاص يريد إيل مورو أن يتحدّث إليهم بأمان وبحضور الشهود.

- عليك هذا بالضرورة يا لودوفيكو. إذا كنت تفكّر بليوناردو، فليس لسلوكه معنى لو كان عنده أمر يخفيه. من ناحية أخرى إمّا أن تعتمد عليه أو لا تعتمد عليه.

- يبدو لي أنّك واثق جدّاً.

هزّ غالياتسو رأسه بمقدار ميلّيمتر، وهو ينظر إلى بعيد.

- كما قلت لي يا لودوفيكو، إنّي أفكّر تفكير العسكر. إذا طلبت منّي أن أتناول قذيفة المدفع تلك وأن أرميها على العدوّ المنشور، فبماذا يمكن لي أن أجيب؟

- ستقول عنّي إنّي مجنون. وستذهب لتبحث عن مدفع.

- لكنّ المدفع يمكن أن ينفجر في وجهي.

فابتسم لودوفيكو.

- لا يمكن أن تربح المعركة من غير مدفع. واصل غالياتسو حديثه وهو ينظر إلى بعيد.

- كما لا يمكن لك أن تفهم شيئاً من هذا الأمر من غير ليوناردو. والمسافة بين ميلانو وفلورنسا كبيرة بحيث لا يمكن لك أن تقطعها وحدك ومن دون أن تكون بين يديك المعلومات التي يملكها هو أساساً.

- والتي يمكن أن تكون زائفة أو غير كاملة.

- لودوفيكو، كما أنّي محارب فأنت سياسيّ. أنا أعرف كيف أدير

الحرب، وأنت تعرف أن تعتمد على الأشخاص المناسبين. فافعل ذلك وواصل أفعالك. لكنّه ليس من المناسب أن تعتمد على ليوناردو في بعض الأشياء السرّيّة وأن لا تعتمد عليه في أشياء أخرى.

- عمّ تتكلّم؟

- لست ابن البارحة يا لودوفيكو. فلديك أنت وليوناردو شيء ما مخفيّ تدبّرانه معاً. إنّي أفهم بسرعة عندما يتكلّم اثنان بشيء ما يجب أن لا يفهمه الشخص الثالث.

- هل تثق بي يا غالياتسو؟

- بكلّ تأكيد يا لودوفيكو.

- حسناً، عليك أن تواصل ذلك. فهذا الشيء لا علاقة له البتّة بك. - وهنا سحب لودوفيكو نفَساً أطلق معه ثاني أكسيد الكربون من صدره، وليس التوتّر. - حسناً، أدخلوا المستشارين والمدعوّ الأوّل. من لدينا الآن؟

فأعلن آمر القلعة بصوت ثابت: - رئيس مجموعة فقراء يسوع الأب ديوداتو دا سيّينا والراهب جواكّينو دا برينّو من المجموعة نفسها.

فقال لودوفيكو وهو ما يزال جالساً على مقعده: - تعال، تعال أيّها الأب. أرجوك أيّها الأخ جواكّينو، تقدّما. إنّي مشتاق للتعرّف إلى الواعظ الجيزويتي الذي تتحدّث عنه كلّ ميلانو.

- كان بوسعك أن تأتي إلى القدّاس يا صاحب السيادة إذا كنت تشعر بهذا الفضول.

من بين الصفات العديدة التي كان يمكن أن يتحلّى بها الأخ جواكّينو دا برينّو، لم يكن اللطف هو بالضبط أوّل ما يظهره. ولا حتّى الجمال. كان رجلاً صغيراً مثل كثير غيره، بشعره الرهبانيّ المجزوز الذي يتدرّج نحو صلع بدأ ينتشر في رأسه، يعوّض عنه حاجبان كثيفان ومتخشّبان ووبر كثيف يبرز من الأذنين.

عندما سمع الأب ديوداتو هذا الكلام التفت نحو لودوفيكو ونظر إليه نظرة كلب إلى سيّدته بعد أن حطّم لها مزهريّة أصليّة من نوع مينغ.

- عليك يا صاحب السيادة أن تغفر تهوّر الأخ جواكّينو. فهو ينحدر من سهولنا الحراجيّة المنتشرة في وادي كامونيكا، وهو ليس معتاداً على التحدّث مع السادة.

- لكنّه يعرف بالمقابل التحدّث إلى العامّة، على ما قيل لي.

فقال الراهب من غير أن يبتسم: - أطلب المعذرة منك يا صاحب السيادة إذا كنت قد أسأت التعبير وتكلّمت بخشونة. أنا لست إلّا جيزويتيّاً مسكيناً، خادماً للربّ، ولست معتاداً على بهاء قصرك الفخم.

فأجاب لودوفيكو مبتسماً: - يسعدني أن أرى أنّك تجمع التواضع مع الكبرياء الذي تستحقّه - وسأكون أكثر سعادة إذا عرفت رأيك في الطريقة التي تدار بها حكومة هذه المدينة.

نظر الراهب جواكّينو إلى الأب ديوداتو.

فحذّره رئيسه كأنّه يقول حذار ممّا تقول. فهذا فخّ نصبه لك بقبلة على الرقبة.

- ليست لديّ شجاعة يا صاحب السعادة...

- كي تقول ذلك أمامي؟ لكنّي لا أفهم السبب. فأنت تقول مثله أمام رعيّة الدوق جان غالياتسو وهو تحت وصايتي، وأمام الغرباء الذين يأتون إلى ميلانو التي أنا زعيمها.

تدخّل هنا الأب ديوداتو وقال: - إنّ الراهب جواكّينو هو رجل مشهور بمواعظه العنيفة، لكنّ قلبه شريف نظيف. وهو لا يقول أشياء تخالف الكتابات المقدّسة وأعتقد أنّ هذا هو أهمّ ما يهمّك كما برهنت على ذلك برهاناً مسيحيّاً عندما عفوت وبرّأت ساحة الراهب جوليانو دا مودجا.

لم يكن الأب ديوداتو دا سيّينا عبثاً رئيساً لأقوى مجموعة دينيّة في أوروبّا. وهكذا فكما حذّر قبل قليل الراهبَ تابعه، فهو يحذّر الآن

لودوفيكو. بأدب واحترام لكن وبنفوذ. إنّك يا عزيزي إيل مورو وإن تكن زعيم ميلانو فإنّي أقول لك بوضوح وبعينين متواضعتين ومتوسّلتين إنّك لست شيئاً بالنسبة إلى الكنيسة.

- من كلّ بدّ أيّها الأب. أنا لست كهنوتيّاً مثل أخي آسكانيو، لكنّي أعرف أنا أيضاً الكتابات المقدّسة. يبدو لي أنّه مكتوب في أحد الأناجيل المقدّسة «أعطوا ما لقيصر لقيصر». فإذا كان هذا مكتوباً في الإنجيل المقدّس، فهذه إشارة يجب أن يحترمها كلّ مسيحيّ، ألا ترون ذلك؟

وبهذا كان إيل مورو واضحاً. أنا لست رجل كنيسة، لكنّ أخي ويا للصدفة هو كذلك. أي أنّه قادر بالفعل على أن يطلب تدخّل سلطة روما إذا شعر أو إذا أخبرته أنّك تعظ بأمور ليست مشمولة بالكتاب المقدّس أيّها الصديق العزيز صاحب أذنين ذواتي وبرٍ من شَعرٍ كثيف.

أجاب جواكّينو بصوت عميق: - أنا أحترم الكتابات المقدّسة لكن ليس كلّ شيء مكتوب في الكتابات المقدّسة يا صاحب السيادة. لذلك فإنّ الشعب لا يفهم ما ليس مكتوباً فيها حتّى يقال له معناها. فلم يكن مكتوباً في الكتابات المقدّسة أنّ غضب الله سيحلّ بميلانو، ومع ذلك فقد حدث هذا.

- وهذا ما كنت بصدد أن أسأله. لماذا حدث هذا الأمر. قالوا لي إنّك قلت إنّه حدث بسبب سوء الحكم. حسناً، بما أنّ الحكومة مؤلّفة من أشخاص، فأنا أنتظر منك أن تشير إلي بأسماء أولئك الأشخاص. بأسمائهم وألقابهم، هذا ما يلزمني كي أتمكّن من محاسبتهم.

اضطرب الراهب ونظر إلى رئيسه. فبدا أنّ وجه الأب ديوداتو يقول له: إنس أنّك يسوعيّ وكن بينيديتّيّاً لبعض الوقت.

ابتسم لودوفيكو وقال له: - إنّك في المكان المناسب. هذا هو المجلس السرّيّ الذي يرعى أمور الدولة، وهؤلاء هم مستشاريّ. ليس هناك ما تخشاه.

بدا أنّ نظرات الراهب تقول إنّه لا يوجد اتّساق فعليّ بين العبارة الأولى والثانية.

- ليس باستطاعتي يا صاحب السيادة أن أذكر أيّ اسم، لكنّ بوسعي الإشارة إلى السلوك العامّ السائد في هذه المدينة حيث أصبح المال سبباً وهدفاً لكلّ عمل ولكلّ اهتمام. وما أعظ به أنا...

- اترك مواعظك لغير هذا المكان. هذا مجلس حكومة، وأنا أطلب منك أسماء الذين يسيئون الحكم في هذه المدينة، حتّى أتمكّن من محاسبتهم. فهل باستطاعتك أن تشير إليّ ببعض هذه الأسماء؟

حاول الأب ديوداتو أن يتدخّل: - كما قال لك الأخ جواكّينو يا صاحب السيادة...

لكنّ لودوفيكو واصل حديثه وهو ينظر إلى الراهب من غير أن يعتبر شيئاً ممّا قاله رئيسه: - نعم أم لا؟

- ليس باستطاعتي يا صاحب السيادة.

فقال لودوفيكو وهو يفتح ما بين يديه بطريقة المتفهّم الرحيم: - أعتذر إذاً لأنّي دعوتك، فهدرنا كلانا الوقت. كن طيّباً يا آمر القلعة ورافق الأب ديوداتو والأخ جواكّينو إلى الباب. لمن الدور الآن؟

- فيليب دوق كومين والسيّد بيرون دي باش يا صاحب السيادة.

- تفضّل، تفضّل يا صاحب السيادة. العفو يا سيّد دي باش. أرجو أن يكون كلّ شيء على ما يرام وأن تكون القلعة قد نالت إعجابكما.

- إن ضيافتك يا صاحب السيادة هي أفضل ممّا كنّا نأمل. كما نشكرك على دعوتك لنا إلى جلسة الاستماع هذه، خاصّة أنّه لدينا نحن بالذات أسئلة يجب أن نطرحها على مجلس سيادتك.

- إذاً لن أضيّع وقتكما الثمين يا صاحب السعادة ويا سيّد دي باش. لقد دعوتكما بشأن وضع جيش صاحب الجلالة المسيحيّة الملك شارلز الثامن، كما هو الآن. فأرجو إعلامي بمستجدّات الوضع.

– الوضع يا صاحب السيادة في غاية الروعة. عندنا عشرة آلاف رجل مسلّحين وتحت إمرة صاحب السيادة دوق أورليانز. كما أنّ أسطول سيادته يعدّ الآن ثلاثين سفينة مسلّحة وثلاثين سفينة شراعيّة كبيرة جاهزة جميعها للإبحار إلى نابولي.

– هذا من دواعي سروري. وإذا أضفنا المدافع التي اشتهر بها جيشكم، فيبدو لي أنّ استعدادكم رائع وبوسعنا إذاً أن نبدأ.

– بوسعنا أن نبدأ عندما يصبح لدينا الشيء الأخير الذي ما زال ينقصنا، يا صاحب السيادة. أي وسيلة نقل المدافع إلى ما وراء جبال الألب.

وواصل بيرون دي باش حديثه: – لقد عمل صاحب الجلالة المسيحيّة على تسليح السفن ممّا أجبره على إلزام صناديق الدولة بل وحتّى احتياطيّ عائلته.

هنا يجب أن يعذرنا القارئ غير المطّلع على اشتقاق الكلام. لأنّه لابدّ هنا من تحديد أنّ كلمة «إلزام» لم تكن تعني «الاستغلال إلى أقصى حدّ» بل وعلى وجه الدقّة «الانتقال إلى الرهن». والواقع أنّ شارلز الثامن قد رهن أملاكه الشخصيّة مثل البيوت والقلاع وغير ذلك من الأملاك الثابتة، وليست كلّها من أملاكه الشخصيّة تماماً، وذلك ليضمن المال اللازم للحملة وبفائدة غير معقولة تصل إلى اثنين وسبعين بالمئة في السنة، أي 72% إذا كنتم تفضّلون الأرقام على الكلمات، ومهما يكن فإنّها تبقى كثيرة. لذلك لم يكن النبلاء الفرنسيّون قادرين على معرفة كيف يمكن للملك تشارلز أن يقوم بتلك الحرب، لكنّهم كانوا يرجون أن يديرها بشكل أفضل ممّا يدير أمواله.

– أفهم هذا أيّها الدوق. لذلك فإنّكم قد تكونون بحاجة إلى دعم منّي.

– أجل، يا صاحب السيادة.

– فهمت. بالنظر إلى تقديرات أعداد المدفعيّة والمشاة، والخيل الموجودة وتلك الضروريّة، ووسائل الحركة الفعّالة، التي أخبرني عنها

بيلجيوسو... – وهنا تصنّع إيل مورو أنّه يقوم بحسابات ذهنيّة معقّدة...– يلزمكم إذاً حوالي بضع عشرات الآلاف من الدوقيّات.

شعر دوق كومين أنّ معدته تضحك وتصبح خفيفة، فهو يعرف إيل مورو وعرف أنّ شروعه بالعدّ يعني موافقته.

– المبلغ اللازم لنا يا صاحب السيادة هو ثلاثون ألف دوقيّة.

أومأ إيل مورو برأسه ببطء، وكأنّه سرّ لأنّ الرقم يتطابق مع الرقم الذي كان قد خمّنه وافترضه.

– أرسلوا في طلب الخازن أيّها السيّد آمر القلعة. سأحاول أيّها السادة تلبية مطالب حليفنا الثمين.

على ضوء الشموع

سيّدي المبجّل الذي لا أستطيع أن أنادي سيّداً إلّا ه.

اليوم بعد أن تكلّمت مع المعلّم أنتونيو قمت بتجربة حصان صغير بالنحاس والقصدير. وضعت الحيوان على جانبه، لأنّ قلّة العمق ومياه الأرض تحول دون وضعه بشكل مستقيم سواء كان واقفاً أو مقلوباً.

كنت حتّى الآن أؤمن إيمانًا راسخًا أنّ المسألة الرئيسيّة في صهر الحصان وإقامته هي القوّة التي يضغط بها المعدنُ المنصهر، ذلك حسب وصف أرخميدس، بأنّ أيّ جسم يوضع في سائل يتلقّى قوّة دفع مساوية لوزن السائل الذي يحرّكه. لكنّ قوة الضغط هذه لا تتحرّك إلى الأعلى فقط، بل على جميع الجوانب، لأنّ السائل بطبيعته يحاول أن يأخذ الشكل الأنسب له، وإذا تمّ دفعه إلى أعلى من المستوى اللازم فإنّه سيعمل على النزول مرّة أخرى، ليعود إلى أسفل وبعودته إلى الأسفل يقوم بالضغط. مثل قارب يوضع في حوض، فإنّه يستند إلى الماء، فيرتفع ماء الحوض إلى أعلى، ثمّ يحاول العودة إلى أسفل، وللقيام بذلك فإنّه يضغط أيضاً على جدران الحوض وكذلك على أسفل القارب.

فإذا كان هذا السائل معدناً منصهراً، أي أثقل بكثير من الماء، وقوّة دفعه أكبر على شكل الحصان الموجود داخل المعدن المنصهر، فإنّ له قوّة قادرة على تحطيم القشرة الخارجيّة التي تعطيه شكله.

بعد أن وضعت الحصان أردت أن أبرّده في الماء المثلّج. لكن بما أنّ سالاي كان قد كسر الوعاء الكبير، وأنّ قطّة صغيرة كانت نائمة في

الوعاء الأصغر ولم أرغب بإزعاجها، فقد اضطررت إلى سكب الماء على الحصان مباشرةً من الإبريق، معتبراً أنّ غليان الماء سيعمل على تبخير ما في الداخل من غير أن يبلّل الأرض. وحاولت كي يتدفّق الماء بشكل أفضل، أن أبلّل الحصان عن طريق سكب الماء عليه وهو مستلق، بالطريقة التي سأفعلها على النصب التذكاريّ بأبعاده الحقيقية.

اختبرته بعد أن برد بالمطرقة لأعرف ما إذا كان سيعطي صوتاً أصمّ أو صوتاً صافياً واضحاً، وفيما إذا كانت هناك أعراض شقوق أو تصدّع، ثمّ وجدت أنّ الصوت الصادر عن طرق الرأس يختلف عن ذلك الصادر عن طرق الذيل. ولكي أفهم الأمر بشكل أفضل قمت بالضرب لفترة أطول، ثمّ ضربت ضربة شديدة بحيث انشقّ الحصان إلى قسمين، على التمام في منتصف الخطّ الفاصل بين اليمين واليسار. عندما حملت القسمين في يدي شعرت أنّ القسم الأيسر يبدو أخفّ من القسم الأيمن، استبعاداً لأن تكون الأبعاد متعاكسة أو يكون الجانب الأيمن أقلّ من جانب اليسار. غمرت القسمين بعدها في الماء لأتحقّق من قياس الحجم فتأكّدت من الأمر. ثمّ أخذت القسمين ووزنتهما على ميزان الفحص. فوجدت أنّ قسم اليمين يزيد سنتيمين من الرطل عن قسم اليسار، على الرغم من أنّ حجمه أقلّ قليلاً بنصف ظفر من الماء.

أظن أنّ ما حدث هو ما قلته، وأنّ النحاس البارد أصعب من القصدير عندما يكونان نقيّين، كما أنّه يحتاج إلى حرارة أعظم كي يذوب. سحبته مبرّداً بالماء حتى جفّ، ثمّ قمت بتبريد الجانب الأيمن بدرجة أكبر، ومع ذلك، فقد تبخّر الماء بسرعة ولم يتمكنّ تقريباً من الوصول إلى الجانب الأيسر. وهكذا فقد هرب القصدير الذي كان ممزوجاً بالنحاس من الجانب البارد وتمّ دفعه بعيداً عن النحاس. وبما أنّ النحاس أثقل من القصدير، فقد حدث أن وجد نحاس في الجانب الأيمن من الحصان أكثر ممّا في الجانب الأيسر. ولهذا السبب فهو أكثر كثافة وأثقل حتّى لو كان أصغر حجماً.

وإذا أردت أن يبقى الحصان ثابت المفاصل، رغم أنّ هذه تتحمّل ثقلاً أكبر، فتأكّد من احتوائها على كميّة من النحاس أكبر من كميّة القصدير. وحاول كذلك أن تجعلها تبرد قبل الأخرى، وعليك لهذا أن تصبّ الماء المثلّج على المفاصل كما أقول لك. أي عليك تمرير أنابيب حول الشكل وتضع الكثير منها بالقرب من المفاصل، بحيث تمرّ المياه هناك بكميّة أكبر وقبل الأماكن الأخرى.

أحيّيك وعلى أمل اللقاء، صديقك وصديقك الدائم ليوناردو

من مكتب جاكومو تروتّي

إلى إيركولِه دي إيست، دوق فيرّارا، فيرِّه

سيّدي كبير التبجيل وشديد الاحترام

أمضيت صباح اليوم في صحبة سعيدة مع سير ليوناردو دافنشي وذلك بعد أن طلب منّي صاحب السيادة سير لودوفيكو أن أحاول البحث حول سير ليوناردو المذكور أعلاه وأسئلته المتعلّقة بالمال، لأنّه يخشى جانب الفرنسيّين في هذا الصدد، قبل الحرب أو خلالها أو بعدها. وبدا لي أنّ سير لودوفيكو مهتمّ جدّاً بطريقة عمل ليوناردو، وأنّ شكوكه ليست هباءً أو على الأقل من دون سبب.

وقد أكّد أنّ ليوناردو المذكور مضطرب النفس، وهذا ما تحقّقت منه بنفسي ورأيت دليلاً واضحاً عليه. لكنّني أعتقد مع ذلك أنّ لودوفيكو لم يكن صريحاً معي بشكل كامل، وأنّه يريد وضع ليوناردو تحت رقابته. وإن كان في الحقيقة يظنّ أنّه لا يمكن أن يكون ليوناردو لا يملك مالاً، وهو ما يبدو لي عكس ذلك، وفقاً لما سأخبرك به الآن.

كان ضوء النهار لا يزال أبعد من أن يتمكّن من غزو السماء، لكنّ

جاكومو تروتّي لم ينم في تلك الليلة. فهناك أولى هجمات البرد، وهناك من جهة معيّنة أنّه بعد انقضاء الستين سنة يصبح النوم أمراً صعباً، ومن جهة أخرى أنه كان هو متوتّراً. توتّرَ لأنّه ظنّ أنّه فهم أمراً معيّناً، أمراً ذا أهميّة كبيرة. لقد فهم ذلك الأمر، وكان على ثقة من ذلك. إلّا أنّه لم يتضّح له كيف ينبغي عليه أن يتصرّف.

عندما كنت أنا وليوناردو نفسه في منزل تاجر السلاح المبجّل أنتونيو ميسّاليا، قال هذا مازحاً إنّ ليوناردو سيدفع له الثمن بالرصاص. بل قال له حرفيّاً: «يكفي ألّا تعدني أن تدفع مقابل هذا رصاصاً». هنا أصبح وجه ليوناردو أحمر مثل الجمر، لذلك سرعان ما حوّل ميسّاليا كلامه إلى منحى آخر. ويجب ألّا يغيب عن البال أنّ ميسّاليا السابق ذكره كان يعرف ليوناردو منذ فترة طويلة، وهما على معرفة ودراية بعضهما ببعض.

يعرف الجميع أنّ ليوناردو هو خبير في العديد من الفنون والعلوم، وفي عمليّات التجديد الغامضة، وهو ماهر للغاية في عمليّات صهر المعادن ونقلها، ذلك كما أنّك تعرف أنت جيداً يا صاحب السيادة.

والواقع أنّ الجميع يعرفون الأمر حقّ المعرفة. لقد قضى طيلة النهار وهو يتحدّث مع ليوناردو عن المعادن، واتّضح له أنّ ليوناردو هو خبير للغاية. بالمقابل كانت المفكّرة لا تنفصل عن ليوناردو أبداً، وهي سرّ من أسراره يحتفظ به لنفسه بطريقة مبالغ فيها، وكان يبتكر لهذا جميع أنواع الحركات، بدءاً من تمليس ردائه وتحسّس بطنه ليتحقّق من وجود المفكّرة معه.

كان من أسراره أيضاً تلك الأمور التي يعمل بها لمصلحة لودوفيكو. وإذا كانت تلك أمور غير معروفة، ومهما كان نوعها، فأعتقد أنّها أمور لا يمكن أن تجري في وضح النهار.

وقد حاولت ذلك المساء خلال حواري المسائيّ مع إيل مورو أن أسأله عنها بطريقة غير مباشرة.

وكان تروتّي قد ألقى عبارة وسط حديثه: - من المؤكّد أنّ سير

ليوناردو شخص شارد الذهن بصورة واضحة، وإنّي لأتساءل كيف يمكن له أن يسير مطمئناً في طريقه.

فأجاب إيل مورو وهو يهزّ رأسه مبتسماً: - أحرص دائماً على أن يرافقه شخص يعرف كيف يقوده، وإلّا فإنّ سير ليوناردو قادر على أن يتيه في طريقه بين المطبخ وغرفة النوم.

- وهل يرافقه هذا الشخص حتّى عندما يخرج خلال الليل؟

فأجاب لودوفيكو بينما كانت تعتصر عيناه: - لا أعتقد أنّ سير ليوناردو يخرج خلال الليل، لا بل إنّي أرجو ألّا يفعل هذا من أجل مصلحته.

كان لودوفيكو إيل مورو قادراً على الكذب، وكان يفعل هذا بشكل طبيعيّ كلّيّة.

لكنّ جاكومو تروتّي كان ثعلباً مخضرماً.

لابدّ أن هذين، ليوناردو ولودوفيكو، كانا يخطّطان معاً لشيء ما. لشيء لا ينبغي أن يعرفه أحد، ولا حتّى تروتي.

يثار الكثير من الضجيج في المدينة حول علوم ليوناردو والاعتبار الكبير الذي يحيط به لودوفيكو تلك العلوم. رغم أنّ ليوناردو بالذات يتردّد في إنهاء بعض الأعمال، باستثناء أعماله في فيدجيفانو ورسم بعض اللوحات الجميلة ممّا قام به في سنوات عديدة عمل خلالها لدى آل سفورتسا.

لكنّ سير ليوناردو كثيراً ما يشتكي من أنّ صاحب السيادة لودوفيكو لا يدفع له إلّا القليل وبطريقة غير حميدة، والسبب في أنّ لودوفيكو ضيّق في العطاء بمقدار ما هو واسع في الثناء، هو أنّ خزائن الدولة فارغة. والمهر الذي طلبه صاحب السمو الإمبراطور ماسّيميليانو كان قد ساهم في تجريد الدوقيّة من أموالها، وفقاً لأقوال ليوناردو المذكور.

ومع ذلك، فقد أتيحت لي فرصة التحدّث إلى الماركيز سير ستانغا،

الذي أخبرني بغضب شديد أنه قد أمر بتحرير رسائل بقيمة ثلاثين ألف دوقيّة ذهبيّة تعطى للملك الفرنسيّ صاحب الجلالة المسيحيّة.

وكانت السطور التي كان من المفترض أن يكتبها الآن ذات أهميّة هائلة.

ويجب أن تكون واضحة ومتوازنة، لأنّ تروتّي سيلقي في أذن الدوق إركولِه افتراضات مثيرة، وإن كانت غير مستحيلة من ناحية الوقت. على العكس. وكان من الضروريّ تقديمها في الوقت نفسه بكلّ حيطة وحذر ممكن، حتى لا يظنّ بنا الجنون. وهنا تظهر أهميّة جاكومو تروتّي، الذي اكتسب على مدى سنين طويلة سمعة طيّبة في خدمة آل إيست في مدينة فيرّارا.

وكان تروتّي قد أعطى قبل بضعة أشهر أخباراً مفادها أنّ بحّاراً مجهولاً من مدينة جنوى قام بتجهيز أربعة سفن، لأنّه على حدّ قول الزميل أنّيبالِه جينّارو، *وبما أنّ العالم دائريّ، فمن الضروريّ إذاً أن يستدير*، وهكذا فقد اكتشف جزيرة كبيرة يسكنها أشخاص شبه عراة بشرتهم بلون الزيتون. وقد انقلب الكثيرون على ظهورهم في فيرارا وقتها من شدّة الضحك، وذلك حتّى جاء يوم بدا فيه من الواضح أنّ ما قاله تروتّي كان صحيحاً.

بعد أن عاد تروتّي وأمسك بالقلم، حاول أن يكتب العبارة التي فكّر بها مرّتين على أيّ قطعة من الورق ثمّ لفّها وكوّرها، رغم أسعار الورق المرتفعة، ووضعها على لهب الشمعة. لكنّه ما لبث أن أخذ القلم من جديد وعاد إلى الرسالة، وهو على ثقة ممّا عليه أن يكتب.

إنّي أعتقد يا صاحب السيادة أنّه لن يكون من المستحيل على ليوناردو أن يكون قد وجد أو أن يجد طريقة لتحويل الرصاص إلى ذهب خالص. ولا شكّ أنّ هذا سبب قويّ يكفي لمحاولة أخذه بمثل هذا الاعتبار الكبير.

فكّر جاكومو تروتّي بحديثه مع لودوفيكو، وردّ فعله عندما أخبره أنّ

ليوناردو أنفق خمسة دراهم من أجل إطلاق تحرير عندليبين. ذلك أنّ لودوفيكو أخذ بالضحك، بدلاً من أن يغضب، وبدلاً من أن يفاجأ لأنّ الشخص الذي كان يشتكي من قلّة المال أنفق منه بهذه الطريقة الغبيّة. أجل، لقد ضحك بل وقال أشياء أكثر خطورة.

– وهل فعل هذا ثانية؟ لست أوّل شخص من يخبرني بمثل هذا الأمر. لأنّ ليوناردو يا عزيزي تروتّي مجبول على هذا.

ليوناردو يا عزيزي تروتّي مجبول على هذا. كان هذا تفسيره للأمر. لكن لا، لا بالطبع. لأنّ إمكانيّة تحويل الرصاص إلى ذهب، هو ما يفسّر الأمر بالفعل، ويفسر كثيراً من الأمور.

ماذا عن قلّة اهتمام ليوناردو في مواجهة عدم توفّر المال اللازم كما يظهر بوضوح.

ماذا عن هدوء لودوفيكو في مواجهة نفقات غير منطقيّة، وفي الموافقة على تقديم قرض بثلاثين ألف دوقيّة من غير أن يطرف له جفن، ثمّ تقديم حفيدته خطيبة إلى ماسّيمليانو من هابسبورغ، بمهر قيمته أربعمئة ألف دوقيّة.

ماذا؟ تنهّد تروتّي، ووضع قلمه.

كانت البنوك تقرض الحكّام على الدوام، لأنّ الحكّام هم من يحكم. ويمكنهم بالتالي أن يسدّدوا ديونهم: إمّا نقداً أو بمنح امتيازات، مثل عائدات الضرائب.

لهذا السبب كان أصحاب بنوك مدينة فلورنسا، قبل ما يقرب من مئة وخمسين عاماً، سعداء بتمويل ملك إنجلترا إدوارد الثالث مقابل ضمانات على إيرادات ضرائب الصوف. لكنّ الحرب التي أعطاها الملك إدوارد قوة دفع جديدة كانت حرب المئة عام، التي استمرّت حوالي مئة وعشرين سنة وأدّت بالنتيجة إلى انهيار سوق الصوف.

جال تروتّي بنظره حول غرفة مكتبه وتوقّفت عيناه على كتاب «تاريخ»

الكاتب فيلّاني، وهو الكتاب الذي درس فيه تاريخ فلورنسا، لأنّه كان يعرف أنّ التاريخ يكرّر أحياناً نفسه.

لهذا فقد أدرك مصرفيّو فلورنسا أنّهم لن يروا بعد الآن فلساً من المليون وأربعمئة ألف فلورين التي يدين لهم بها الملك. لكنّه كان هناك آخرون غيرهم في الجنوب، وفي نابولي بالتحديد، ممّن فهم الأمور قبلهم بقليل: ذلك بعد أن خشي الملك روبرتو دانجوو من ضياع مدّخراته ومدّخرات المواطنين التي كانت مستثمرة في بنوك فلورنسا مثل باردي وبييروتسي، فدعا النبلاء ورجال الدين إلى سحب ودائعهم.

النتيجة؟ الأزمة. فالمال لم يعد يسيل في فلورنسا. ولم يعد بوسع التجّار ولا الحرفيّين ولا الفلّاحين أن يبيعوا وأن يشتروا. كانت أزمة حالكة ودامية ولم تنهض منها فلورنسا إلّا بعد مئة سنة، بعد أن زاد عدد سكّانها من تسعين ألفاً إلى أربعمئة وخمسين ألف نسمة. طبعاً، لن ننسى أن الطاعون حلّ في تلك الفترة بالمدينة ولعب دوره، لكنّه حلّ بمدينة أهلها فقراء جوعى ذوو نفوس ضعيفة وأجسام أضعف.

ولكن كان هناك أيضا شيء آخر. أصبحت الأوراق المالية قابلة للتداول. وأصبحت أوراق الدين العام، التي لم تكن قابلة للتحويل حتى ذلك الحين، قابلة للتداول. وهكذا فقد بدأ الناس يبيعون ديونهم للآخرين بسعر مخفض، على أمل أن يتمكّن هؤلاء من تحصيلها. لأنّهم أضخم وأسوأ وأشدّ عنفواناً. ذلك مثل لودوفيكو إيل مورو، الذي لم يكن مصرفيّاً، بل رجل دولة، لكنّه عمل كمصرفيّ مع دول أخرى. كانت لديه هو بالذات ديون من البنوك، ومع ذلك فقد كان يقرض الأموال يمنة ويسرة.

كان إيل مورو بنكاً ودولة في الوقت نفسه. كما لو أنّ متعهّداً دفع لنفسه كي يرسم لوحة يحبّ أن يمتلكها. لكنّ تروتّي شعر أنّ هذا ليس هو الشأن.

إنّ مجابهة حرب بوجود حليف مماثل هو أمر مطمئن بالنسبة إلى الحاضر. لكنّه قد يكون خطيراً بالنسبة إلى المستقبل. وإذا كان ليس من

واجبه، وليس عليه أن يفكّر بالأمر، وهو مجرّد سفير في أواخر عمره، فإنّه على حاكم صالح أن يشعر بقلق شديد من الأمر.

أمّا هو، جاكومو تروتّي، فقد قام بواجبه، وكتب كلّ ما عليه أن يكتبه. والآن على آخرين أن يهتمّوا بالأمر. أخرون ممّن يملك السلطة، وعنده الإمكانيّة والرغبة في امتلاكها. ذلك مثلما هو دوق فيرّارا.

إلى من أوصي بنفسي دائماً إلى رعايته.
ميديولاند، 21 تشرين الأوّل 1493
خادمك جاكومو تروتّي

مكتبة
t.me/soramnqraa

تسعة

- لقد وصل سير ليوناردو أيّها الكونتيسّة.

- آه، سير ليوناردو، على الرحب. كنت أرجو أن يقوم بزيارتنا.

- أستميحك العذر، عفواً. اضطررت إلى البقاء في القلعة أكثر ممّا كنت أعتقد، ولأمور ليست مؤسفة على الإطلاق، لكنّك تعرفين أنّ صاحب السيادة لا يرغب في ترك أيّ أمر معلّق...

تشيشيليا غالّيراني، الكونتيسة بيرغاميني، أخذت ليوناردو من ذراعه وقادته نحو القاعة.

- تفضّل، ادخل، سنبدأ بعزف الموسيقى بعد ساعة أو أكثر، ليس قبل أن يصل مندوبو صاحب الجلالة المسيحيّة الكبرى، وكانوا قد أعربوا لي عن سعادتهم بحضور هذا العزف. في هذه الأثناء كنّا نشتغل ببعض الاستقبالات. أرجو أنّك تعرف ضيوفي في هذه الظهيرة؟ هذا هو الأب ديوداتو من سيّينا، رئيس مجموعة فقراء يسوع...

- تشرّفنا - قال ليوناردو وهو يومئ برأسه نحو هذا اليسوعيّ الناضج الذي بدأت تشيب لحيته وذي النظرات السمحة.

-...الأخ جواكّينو دا بريتّو من المجموعة نفسها...

- تشرّفنا. قال مرّة أخرى الفنّان/ المهندس/ المعماريّ/ العبقريّ وهو يحني رأسه نحو الراهب الصغير، ذي الشعر الأسود الحليق ووجه الأوغاد -...وسير جوسكان دي بريز.

– أوه، هذا شرف عظيم – أجاب ليوناردو وهو يبتسم بودّ أكبر متّجهاً نحو الرجل بذراعين مفتوحتين قبل أن يعانقه بحرارة. – إنّه لشرف عظيم لي أن أتعرّف إليك يا سّر جوسكان، كما أنّ في سماع عزفك راحة فعليّة للنفس. إنّك قادر على ملامسة أوتار قلب الإنسان وفكره ممّا لا يمكن لأحد غيرك.

ابتسم جوسكان دي بريز ابتسامة لطيفة كمن تعوّد أساساً على بعض المجاملات ويعرف أنّه يستحقّها. كان رجلاً أشقر نشيطاً تشبه ملامحه نوعاً ما غالياتسو سانسيفيرينو، ما لم ينظر إلى يديه الناعمتين البيضاوين اللتين تعوّدتا على القلم وأوراق سلّم الموسيقى، وليستا كيديّ ذلك المحارب صهر صاحب السيادة لودوفيكو إيل مورو الذي يشعر بالراحة قرب خطوط المشاة العساكر أكثر من خطوط الموسيقى.

– أرجوك أن تستريح يا ليوناردو. ماذا هناك يا تيرسيلّا؟

– كنت أتساءل أيّتها الكونتيسّة...إذا كنتم ستبدأون ببعض الألعاب الجماعيّة، فهل يمكنني أن أشارك فيها؟ لقد أمضيت يوماً بغيضاً، فإذا سمحت لي السيّدة الكونتيسة، وإذا لم يكن هناك إزعاج في مشاركتي...

كانت الألعاب الجماعيّة هذه من وسائل الجذب الأخّاذة في بيت غالّيراني. فمن ألعاب الكلمات إلى الأحاجي إلى الألغاز المصّورة وغيرها من الألغاز. لكنّ أنجحها كانت على الدوام تقريباً تلك التي يقدّمها ليوناردو. فألغاز مثل «ستلد الغابات أولاداً يسبّبون موتها» (أي مقابض الفؤوس)، كانت تشيشيليا هي أوّل من يفكّها – حتماً يا ترسيلّا، بكلّ تأكيد. لكنّنا لن نقوم اليوم بألعاب الكلمات أو بالألغاز، فهذا من غير المناسب بوجود شخصين من الكنيسة. لكنّ المعلّم جوسكان كان يخبرنا كيف ينوي أن يؤلّف قطعته الموسيقيّة التالية، فإذا رغبت بمرافقتنا وكان هذا لا يضايقك...

– بل ستسعدنا صحبة الوصيفة تيرسيلّا – قال الأب ديوداتو، ولا أحد على كلّ كان يجهل مقدار حبّه لصحبة الإناث. – يا للأسف سأضطرّ

لمفارقتكم بعد قليل، لكن يسعدني أن أستمع إلى ما كان المعلّم جوسكان يشرحه.

قال المؤلّف بلكنة فرنسيّة واضحة: - الأمر بسيط. لقد ألهمتني ألعاب الكلمات التي أدخلتني فيها السيّدة الكونتيسة خلال هذه الأسابيع، ففكّرت أنّه من الممكن في بعض الحالات تأليف ميلودي واستيحاء نوطاتها من اسم أحد الأشخاص. والمثال الذي جاء في فكري كان اسم إيركولِه من عائلة دي إيست، فهو يكتب باللاتينيّة *Hercules Dux Ferrariae*. فإذا جزّأنا مقاطع الكلام وأخذنا النوطة التي تحتوي على الصوت المكتوب في المقطع Ac-Ri-Ra-Les Dux Fer-Cu-Her يمكن لنا أن نكتب Re-Mi-Fa-Re-Ut-Re-Ut-Re.. وهكذا فإنّ الميلودي تحتوي على اسم الشخص الذي كتبنا له المقطع الموسيقيّ.

- وهل تعتقد أنّ شخصاً ما يمكن له أن يفهم مثل هذا الثناء المخفيّ؟

فقال جوسكان: - ليس من الضروريّ حتماً فهم ذلك من أجل تقدير المقطع الموسيقيّ. لكن عليّ أن أقول أجل بوسع الأذن المرهفة أن تفهم ذلك بكلّ تأكيد.

- وكيف حدث أن خطر على بالك اسم إركولِه دي إيست؟ فأنت في الأخير في ميلانو، ألا يمكن لك أن تفعل مثل هذا مع اسم زعيم ميلانو؟

- لكن ليس بالنتيجة نفسها. لأنّ Cus-Vi-Do-Lu ستصبح Ut-Ut-Mi-Sol وغنّى جوسكان ذلك بصوت تينوريّ جميل. - لا يوجد أيّ توتّر، ألا ترون ذلك؟ بل يوجد طموح نحو القرار، يكاد يكون بياناً تأكيديّاً.

وهنا قال الراهب جواكينو بجدّية واضحة: - لكن يمكن لك أن تحاول مع اسم زعيم ميلانو الحقيقيّ.

وهنا كتم الجمع أنفاسه للحظات.

نذكّر أنّ لودوفيكو إيل مورو لم يكن من جميع النواحي دوق ميلانو.

فالدوق الحقيقيّ كان هو الحفيد العزيز الواهن الضعيف جان غالياتسو ابن أخيه غالياتسو أُماريّا الذي خطرت له أسوأ فكرة عندما عرّض نفسه للقتل ولم يكن جان غالياتسو الصغير قد بلغ السابعة من عمره، فهو قد رفض في ذلك الحين ارتداء السترة الحديديّة لأنّها لا تنسجم مع وزرته الجديدة. ومن المعروف في ذلك الوقت، أي منذ نهاية القرن الخامس عشر، أنّهم كانوا يقومون بأعمال جنونيّة من أجل الموضة. وبهذا بقيت الإمارة بين يدي بونا دي سافويا العاجزتين، وهي الكنّة الحُشريّة المشاكسة التي لا مثيل لها إلّا القليل، والتي ظنّت أنّ بوسعها أن تحكم هي بعد موت زوجها وبالنيابة عن ابنها. وقد بذل لودوفيكو جهداً ليس بالقليل حتّى أقنع بونا بالوثوق به بدلاً من الإصغاء لنصائح مستشارها تشيكّو سيمونيتّا. كانت عمليّة الإقناع طويلة وصعبة، بل وتطلّبت في مرحلة معيّنة القضاء على سيمونيتّا وذلك للتأكّد من أنّه لن يتكلّم عندما لا يطلب منه الكلام، هذا قبل أن يتمّ اعتقال بونا بالذات وزجّها في أعلى غرفة في أعلى برج، ذلك الكائن في أبعد زاوية من زوايا القلعة، لكنّ إيل مورو ما لبث أن فرض نفسه في نهاية الأمر وعاد الاستقرار إلى ميلانو.

ومع ذلك فقد بقي شبح جان غالياتسو ماثلاً، وهو إن قلنا الحقيقة، لم يكن يهتمّ قط بأمور الحكم، وكان يجد أنّ الحياة حلوة بالفعل ما دام عمّه الكريم يقدّم له النبيذ والخيول الأصيلة. ومع ذلك فلم يكن هذا من المواضيع التي كان إيل مورو يفضّل التحدّث بها كثيراً.

لذلك فالنطق باسم جان غالياتسو في بيت غالّيريني لم يكن أمراً مناسباً على الإطلاق، فهذا أسوأ بكثير من ألعاب الكلام بحضور رجال الدين.

لذلك فقد سألت تيرسيلّا التي شعرت بالإثارة ممّا سمعته من أمور قد تسبّب الفضائح في بيت سيدّتها: - ماذا تعني بهذا أيّها الأخ جواكّينو؟

فأجاب الأخ جواكّينو: - أعني الدرهم، الذهب، الوسيلة التي أصبحت غاية، روث الشيطان الذي يتوق الجميع إلى التحافه. لأنّ زعيم ميلانو الحقيقيّ ليس إيل مورو بل الدرهم.

فقال ليوناردو بكلّ رزانة، لكن بعد دقيقة صمت: - درهم، در-هم، در-هم. لا، هذا إيقاع سيئ، خامسة متناقصة. تعطي إحساساً بالانتهاء، وليس بالبداية، بل هي بشعة مثل التعثّر بقطّة في أعلى الدرج.

ساد الصمت للحظة. ثمّ أخذت تيرسيلّا تضحك بصوت يشبه صهيل الحصان، وكانت ضحكتها صادقة بحيث انتقلت عدواها إلى كلّ الحضور كما ينتشر التصفيق في أنحاء المسرح. مكتبة سُر مَن قرأ

ضحكت تشيشيليا أيضاً على طريقتها الأنيقة والنبيلة، خاصّة أنّها شعرت بالارتياح لأنّها لم تضطرّ إلى التدخّل في الحديث بعدما أخذ ذلك المنحى.

وضحك أيضاً الأب ديوداتو، بعد أن غطّى فمه واحمرّ وجهه كمن عليه ألّا يمزح حول بعض الأمور لكنّه فعل لأنّ الجميع يفعلون ذلك.

ضحك جوسكان دو بريز بعينيه الضيّقتين وفمه المفتوح، وهو يضرب بيده على كتف ليوناردو الذي ما لبث أن ضحك هو أيضاً.

لكنّ الأخ جواكّينو لم يضحك.

- اعلم أيّها الأخ جواكّينو أنّ الفواصل الموسيقيّة تعطي الأحاسيس التي تأتي من نسبتها، وبحسب طول الحبل أو قصبة الأداة الموسيقيّة التي تنتج الصوت. ومن هنا يأتي الانسجام. فليس الصوت في حدّ ذاته هو الذي يعطي الإحساس، بل العلاقة، والتوافق في العلاقات فيما بينها.

تدخّل الأب ديوداتو بينما بدا الراهب جواكّينو إلى جانبه كأنّه قطّ على وشك الهجوم: - لو كان معك الحقّ يا سير ليوناردو فإنّ أسمى صوت سيكون صوت اسم إلهنا باللاتينيّة: Ut-us. Re-Deus. De.

- يمكن لي أن أقبل بهذه الفرضيّة لو كان اسم إلهنا هو نفسه في جميع لغات العالم. لكنّ الحركات لا توجد في اللغة الساميّة التي كلّم بها ربّنا بني البشر.

فقال الراهب جواكّينو بلهجة قاطعة: - هذا يعني أنّ الكلمة والموسيقى متباعدتان. وبهذا فإنّ الإله الذي اختار أن يستبعدنا عن الحيوانات عندما

وهبنا الكلام، والذي كلّفنا بإعطاء أسماء للمخلوقات، لم يأمرنا حتماً بعزف الموسيقى. إنّ الإنسان هو سيّد الخليقة لأنّ العليّ القدير وهبه الكلام، وليس حتماً لأنّ الإنسان قادر على عزف القيثار. كما أنّ الكلب قادر أيضاً على استخراج أصوات إذا سار فوق آلة البيانو.

- إذا كان هذا القصد، فيمكنه أن يستخرج الأصوات حتّى من حنجرته.

- تبقى تلك أصواتاً وليس كلمات.

- أو أنّها كلمات لا نفهمها. لا أيّها الأخ جواكّينو، أنا أوافق على أنّ الكلمة هي التي تسمح لنا بالسيطرة على العالم، لكن ليست هي هبة من الله وليست هي ما يميّزنا عن الحيوانات. وإذا كانت كذلك فلماذا يهبنا الله شيئاً يجعلنا قادرين على الكذب؟

وهنا فتح ليوناردو يديه كمن يقول شيئاً ما بسيطاً وحقيقيّاً.

- الحيوانات لا تكذب، بينما البشر يكذبون. وهذه هي السلطة الفعليّة لكلمتنا، وهي ما يميّزنا بالفعل عن الحيوانات. أنّنا قادرون على الكذب. أي أنّنا نستطيع قول أشياء غير موجودة، ونستطيع التكلّم بأشياء غير موجودة. أنا أستطيع أن أرسم كلباً بثماني قوائم أو رجلاً برأسين من غير أن أكون قد رأيت ذلك أو عرفت بوجوده.

واصل ليوناردو الحديث وهو يرفع سبّابته، بينما كان الراهب جواكّينو ينظر إليه كما لو أنّ الفنّان يطلب منه أن يرسم المسيح بتنّورة قصيرة.

ويقول فيلسوف كبير هو نقولاس الكوزاني الألمانيّ إنّ هذه المقدرة تجعل الإنسان يشبه الإله، بمعنى أنّه يخترع أشياء لم تكن موجودة من قبل ثمّ يعطي معنى لها. يمكن لكلّ إنسان أن يعطي في رأسه شكلاً لأشياء غير موجودة ثمّ يقنع الآخرين أنّ هذه الأشياء موجودة أو أنّها ستوجد. وفكّروا هنا مثلاً بالتنين أو بوحيد القرن.

بينما كان ليوناردو يتكلّم نهض الأخ جواكّينو على قدميه، بوجه أبشع من الوجه الذي كان يتقمّصه في العادة.

– إنّك تقول يا ليوناردو إذاً إنّ الإله وهبنا المقدرة على الكذب؟ وإنّ أكبر هبة منحها القدير للخليقة إنّما هي الكذب؟ إنّ هذا يا سير ليوناردو تجديف، وعليك أن تسحب هذه العبارات.

– لا أفكّر بهذا البتّة أيّها الأخ جواكّينو. فهل أقول شيئاً لأتراجع عنه؟ هذا مثل حفر حفرة ثمّ طمرها. لديّ بالفعل القليل من الوقت لأفعل ما يجب عليّ فعله، لذلك فإنّ تضييع الوقت بهذه الطريقة سيكون مؤسفاً، ألا ترى ذلك؟

هنا التفت الأخ جواكّينو نحو رئيسه، وذلك بازدراء ملأه حتّى أذنيه (بما فيها تلك الأوبار).

– أستميحك العذر أيّها الأب، لكنّي لا أنوي البقاء في ذات الغرفة مع سبّاب خشن.

مرّت دقيقة من صمت ثقيل، حطّمها صوت نادل أطلّ على الباب: – أيّتها السيّدة الكونتيسة... – قل يا كورسو.

– لقد وصل العازفون إلى كنيسة الدوق وكذلك السادة سفراء صاحب الجلالة المسيحيّة الكبرى، دوق كيمون والسيّد بيرون دو باش وسيّدان لا أعرف اسميهما.

– شكراً يا كورسو. أدخلهم إلى قاعة الموسيقى.

– ليوناردو، ليوناردو، متى تتعلّم أن تلزم الصمت؟

نظرت تشيشيليا غالّيراني، وأشغال التطريز ما زالت على حجرها، إلى ليوناردو وهي تهزّ رأسها. وكان ليوناردو يجلس قبالتها على كرسيّه المعتاد المصنوع من خشب وقماش، بيديه المضمومتين فوق ركبتيه المنضمّتين. وكان هناك معهما في الغرفة تيرسيلّا فقط. بينما انصرف رجلا الدين من دون أن ينبسا ببنت شفة، وقد خرج الأخ جواكّينو برأس مرفوع بينما كان الأب ديوداتو يعتذر من سيّدة البيت، أمّا جوسكان دو بريز فقد ذهب إلى القاعة لاستقبال الموسيقيّين والمندوبين الفرنسيّين، بمشروب يؤخذ على عجلة وبأدب متساويين.

- أعتذر بشدّة أيّتها الكونتيسة، لكنّي لم أكن أظنّ أبداً أنّه يمكن لهذا الجدل الفكريّ أن يُفهم على أنّه تجديف بحقّ العليّ القدير. لقد كنت مواظباً على زيارة صالونك هذا منذ شهور، وكنت أقدّر دائماً الصراحة والصفاء العميقين عند حديث ضيوفك في مواضيع الفلسفة. بل بدا لي في الواقع أنّ الأب ديوداتو لم يكن جديداً على لقاءاتك هذه.

- لا، ليس على الإطلاق. ليست هذه هي المرّة الأولى، وقد أظهر دائماً أنّه رجل عبقريّ، وكان في الوقت نفسه مدافعاً قويّاً عن الكنيسة الرومانيّة المقدّسة، من غير محاباة ولا تعنّت. ربّما كان خطأي، لكنّني كنت أشعر بالفضول لمعرفة هذا الراهب جواكّينو الذي تتحدّث عنه المدينة بأكملها. ولم أكن الوحيدة، أليس كذلك يا تيرسيلّا؟

- طبعاً لا، أيّتها السيّدة الكونتيسّة. كانت كلّ أحاديث المحفل تدور حول مواعظه. لكنّي لم أكن أظنّ أنّه بهذا الشكل...بهذا الشكل...

- أعرف ذلك، أعرف ذلك - قال ليوناردو وهو يوجّه راحة يده نحو الأعلى. - يرضي دائماً إحساسنا بالعدالة أن نرى السهام ترمى على الأشرار، طالما أنّ من يطلق عليهم أشرار هم الآخرون. لكن ذلك هو بالتحديد النوع من المسيحيّين الذين لم يقرأوا مثَلَ الإنجيل، وعندما أعمت القذاة عينه أراد أن يرى القشّة في منطقي. كما لو أنّه ليس بين أسوار ميلانو ما يكفي من الشرّ حتّى نذهب لنخترع شروراً جديدة.

- هل تشير إلى ذلك الإنسان البائس الذي صعقه الغضب الإلهيّ؟

- لا علاقة بالغضب الإلهيّ بهذا يا عزيزتي تيرسيلّا. فذلك الرجل مات خنقاً بيد البشر، ولأسباب ليس فيها على ما أعتقد شيء من النبل. كما أعتقد أنّه يمكن لهذا الأمر أن يجلب لي الخراب إذا لم أجد تفسيراً لهذا العمل.

احمرّت الفتاة احمراراً عنيفاً، بينما جفلت تشيشيليا من شدّة الدهشة - وهذا فعلٌ يجب استخدامه دائماً في وصف ردود أفعال سيّدة في رواية تاريخيّة. وخاصّة إذا كانت رواية من عصر النهضة. - هل أنت جادّ؟

- للأسف، أيّتها الكونتيسة، فالرجل الذي قتلوه كان بائساً من تلامذة مرسمي.

- أهوَ تلميذ عندك؟

- كان من تلامذتي. اسمه رامبالدو كيتي.

- رامبالدو كيتي، لا أعرفه. هل حدّثتني مرّةً عنه؟

- لكن من غير تعيين اسمه، أيّتها السيّدة الكونتيسّة.

- فهمت. لابدّ أنّه ذلك الأبله الذي دفع دراهم مزيّفة باسمك، أليس كذلك؟

- هو أيّتها الكونتيسّة، هو، ولا أحد غيره. وبالفعل، فهو كما أخبرتك، قد استمرّ بتجارته غير القويمة، بل وقام بتزوير رسالة اعتماد وجدوها في بيت متاعه. هذا هو السبب في أنّي كنت عند سيادته اليوم بعد العشاء، مع السيّد المحترم بيرغونزيو بوتا.

فقالت تيرسيلّا وهي تضيّق جفني عينيها: - وهل تسمّيه السيّد المحترم يا سير ليوناردو؟ العفو، لكنّك تبجّل أحد الكلاب المستعرة الذين يعيشون من خلال فرض الضرائب ونبش كلّ درهم يجدونه في جيوب الحرفيين...

- تيرسيلّا!...

- سامحيني أيّتها السيّدة الكونتيسة، ولكن هذا هو الاسم الذي يطلق عليه في أنحاء المدينة. كلاب مستعرة. ولو كان هؤلاء من خيرة الناس، فما احتاجوا إلى حماية المرافقين خلال تجوالهم.

- اتركينا وحدنا يا تيرسيلّا، رجاء.

- كما تأمرين أيّتها السيّدة الكونتيسّة.

نهضت تيرسيلّا بينما لمع وجهها وبدأ قلبها يخفق ثمّ اختفت من الغرفة بعد أن جمعت أطراف تنّورتها، ثمّ أغلقت الباب من غير أن تحدث أيّ ضجيج. عندها اشرأبّت تشيشيليا قليلاً بعنقها نحو ضيفها.

– اصفح عن تجرّؤ وصيفتي يا سير ليوناردو. إنّها صبيّة رائعة لكنّها تعرّضت لبعض القصص العائليّة السيّئة. ثمّ جاءتهم سنة من الفيضانات دمّرت كلّ الحصاد، فتبخّر مهرها أدراج الرياح. وقد جئت بها إلى القلعة وكلّفتها أن تعتني بالصغير شيزارِه. إمبراطوري الصغير، كما أسمّيه.

– فهمت، لكن لماذا أبعدتِها عن هذه المهمّة؟

– وكيف عرفت بالأمر؟

– إن ابنك شيزارِه أيّتها الكونتيسّة أكمل منذ قليل العامين من عمره. وطفل بهذا العمر يحتاج في كلّ دقيقة إلى مربّيته، لكنّي منذ شهور وأنا أرى أنّ الوصيفة تيرسيلّا تعتني بك وليس به.

أجل، أجل. شيزارِه سفورتسا، الابن الشرعيّ لكلّ من تشيشيليا ولودوفيكو، أكمل عامين فقط في شهر أيّار. كان يعتبر وغداً نضج قبل الأوان، حتّى إنّ أباه حاول تعيينه رئيساً لأساقفة ميلانو وهو ما زال في السادسة من عمره. أمّا هو، شيزارِه الصغير، فلم يكن يفعل، قبل بلوغه الرابعة من عمره، أكثر من تناول الكثير من الطعام، وكان على المسؤول عن رعايته أن يجري وراءه من غسق الليل إلى دلوك الشمس.

فأجابت تشيشيليا وقد احمّر وجهها قليلاً: – الحقّ معك. لكنّ تيرسيلّا، وإن كانت فتاة شاطرة، فإنّها تتغنّج نوعاً ما للرجال، كما أنّها تنحدر من عائلة من خلف أسوار المدينة وتربّت على عادات جريئة. لذلك فهي تتحدّث في كثير من الأحيان بكثير من الاستهتار، بل بطريقة غير حصيفة على الإطلاق، كما حدث وسمعت قبل قليل. لهذا فلم أشأ أن يتربّى ابني على سماع كلمات غير مؤدّبة كالتي سمعتها للتوّ، والتي أستميحك عذراً عنها من جديد.

– لا أرى لماذا يجب أن يطلب العفو عن الصراحة. فالجميع يعرفون هنا في ميلانو أنّ الإمارة قد زادت الضرائب بشكل غير متناسب، خاصّة أنّ الرسوم الجديدة التي فرضت على الملح...

هنا تنهّدت تشيشيليا كما تتنهدّ فتاة ترى خطيبها السابق من فترة الثانويّة يمرّ بصحبة زوجته ببطنها المنفوخ.

– لن تسمع منّي انتقاصاً بحقّ صاحب السيادة يا سير ليوناردو. فلنعد إلى شأنك رجاء.

– العفو أيّتها الكونتيسة. لم يكن في نيّتي...المهمّ، اعلمي أنّ المصرفيّ الذي تمّ تزوير رسالة الاعتماد عنه كان صديقاً لي من فلورنسا و...

– كان؟ لقد مات إذاً؟

– نعم أيّتها الكونتيسّة، في الصيف الماضي. ولابدّ أنّ شخصاً ما ساعد كيتي هنا في ميلانو على تزوير توقيعه وخطّه، لأنّ لديه على ما يبدو نموذجاً ورسالة اعتماد أصليّة استعملها كعيّنة. وقد حاولت بالتعاون مع بوتّا في استعراض أسماء الأشخاص الذين كان قد كتب لي أنّ له علاقة تجاريّة معهم. وقد تعرفين على الأرجح بعضاً منهم، فهم ممّن يشتغل بالأصواف مثل جوفانّي بارّاتشو أو كليمنتِه فولزيو...

– أعرف بارّاتشو حقّ المعرفة لأنّي أشتري من عنده الأغطية والمعاطف.

–...أو تجّار حليّ وأحجار كريمة، مثل كانديدو بيرتونِه، بل وحتّى بائعو السمك وموادّ لشغل البروكار والحرير، مثل كوستانتِه إن بورتا تيتشينيزِه. أي أنّنا نحاول أن نفهم ما إذا كان أحد هؤلاء قد فقد أو سرقت منه رسالة اعتماد. وسيذهب اليوم بالذات كابتن العدالة لزيارة هؤلاء ليسألهم عن أعمالهم الائتمانيّة، كما سيزور غداً بنك آتشيرّيتو بورتيناري ليدقّق في السجلّات ويرى مدى تطابقها.

– وأنت؟

– أنا سآتي معك الآن لأسمع قليلاً من الموسيقى الجيّدة أرفّه بها عن نفسي، وأنسى ما أنا فيه.

- أبداً، لا ترفيه ولا نسيان.

فقال روبينوت: - إذا لم يتشتّت ذهنه، فلابدّ من التفكير بشيء آخر. - على كلّ عليك أن تراقبه.

كانت قاعة الموسيقى قد اصطخبت من حولهم بالموسيقى الصادرة عن مغنّي كنيسة الدوق، والعازفين الأقوياء الواثقين المطمئنّين، بموجات عالية من الموسيقى الزخمة التي كان كلّ عضو يضيف إليها شيئاً من عزفه ينسجم مع عزف البقيّة لتصبّ كلّها في بحر واحد من جمال الأصوات، وذلك بفضل قيادة جوسكان الواثقة.

كان هناك وراء ذلك الفرنسيّ الذي يقود أوركسترا العازفين، وكأنّه يضغط الهواء على ما يبدو ويحركّه على هواه، أكثر من عشرين شخصاً على أشدّ الانتباه مستغرقين بصورة أقلّ أو أكثر في الاستماع. كان ليوناردو بين أولئك الأقلّ استغراقاً، وبدا واضحاً أنّه يتابع العزف بجسمه أكثر من عقله، بينما كان وغدا دوق كومين يتدارسان ذلك الهدف بصوت منخفض وعلى بعد كاف.

فقال ماتّينيه بلهجة يسودها الشكّ: - ما زلت أرى أنّ بوسعنا التصرّف بالطريقة القديمة، ضربة واحدة وها قد فعلنا!

فأجابه روبينوت وهو يتمتم بالصوت المنخفض نفسه: - اسمع أيّها اليقطينة المحشوّة بالروث، أنا الذي سأضربك ضربة واحدة أقطع لك بها ذلك الشيء المتدلّي بين ساقيك. لقد سمعت ما قاله سيّدنا كومين. يجب ألّا يصاب بأيّ أذى.

- إنّ سيّدنا كومين يحسن الكلام، لكن أريد أن أرى ماذا سيفعل لو كان في مكاننا. لكن ها هو هناك، جالس بين سيّدتين جميلتين، هل ترى تلك التي على يمينه؟

ألقى روبينوت نظرة سريعة على سيّده، وكانت تجلس على يمينه تيرسيلّا وهي تحرّك بكسل قدمها الصغيرة يمنة ويسرة.

- طبعاً، أراها.

- إنّها تكاد تعرّيني بنظراتها.

- دع عنك هذا، يجب أن نفكّر الآن بالعمل.

- إنّي أفكّر به، وهي أيضاً. لكن كما ستدوم هذه المهزلة؟

التفتت الوصيفة وكأنّها تريد أن تؤكّد كلام ماتّينيه ثمّ رمت الفتى الفرنسيّ بنظرة إيطاليّة تتكلّم بلا حاجة إلى الكلمات. وبعد لحظة معسولة عادت والتفتت نحو العازفين.

- ماذا قلت لك؟ هل رأيت؟

التفت روبينوت ورمق شريك مغامراته بنظرة شاملة. كان طويل القامة، عريض المنكبين وضيّق الورك وما زالت كلّ أسنانه في فمه لم يسقط منها شيء، تكشف ابتسامته عن صغر سنّه وتعبّر عن استهزاء وسخرية. كان بالفعل فتى جميلاً.

وقف روبينوت للحظة، ثمّ قلّب نظراته البطيئة عبر الغرفة، وهو يبتسم ببطء ابتسامة مضطربة إلى حدّ كبير.

في تلك اللحظة بالذات انتهت الموسيقى فغمرت العازفين عاصفة من التصفيق بينما انحنى جوسكان أمام جمهوره الصغير المتراصّ.

بينما كان الجميع يصفّق اقترب روبينوت من دوق كومين، وقرّب فمه من أذنه وهمس له بكلام ما. فالتفت الدوق في الحال تقريباً نحو مساعده المقرف، وابتسم ثم أومأ له ببطء برأسه. قرّب بعدها شفتيه من الفتاة وهمس في أذنها، فالتفتت الوصيفة بسرعة نحو ماتّينيه، وعندما احمرّ وجهها أسرعت وغطّته بالمروحة، من غير أن تفلح في إخفاء ابتسامتها.

في هذه الأثناء نظر دوق كومين نحوه وأومأ له برأسه عن قناعة ظاهرة، وكأنّه فخور بمساعده الثاني وبجماله.

فرك روبينوت يديه وعاد إلى جانب صديقه.

- إذاً. ما هو رأي الدوق؟ - سأشرح لك الآن.

- لا.

- إنّها الطريقة الوحيدة.

- ولا حتّى بالأحلام.

- لقد وافق الدوق أيضاً، وجد أنّها فكرة رائعة.

- يا لروعة هذه القوّة! الجميع أبطال إذا تعلّق الأمر بجلد غيرهم من الناس. لا، لا، ثمّ لا.

- اسمع، هذه أوامر الدوق. إذا عدت ومعك المفكّرة، فإنّ الدوق قد أعطاني كلمته بأنّ الوصيفة ستكون من حظّك.

- وإذا عدت من غير المفكّرة؟

- فهذا يعني أنّ سير ليوناردو قد آذانا مرّتين، أمّا الثالثة فهي للدوق. - وهنا وكز روبينوت زميله بكوعه وهو يقدّم إليه كوباً مترعاً بالنبيذ. - هيّا وقلّل من قصّ القصص، ها هو ليوناردو وحده. أخرج شيئاً من سحرك واسأله إذا كان يقبل أن ترافقه إلى بيته.

بحث ماتّينيه حوله بعينيه. على بعد أمتار منه التقى دوق كومين بنظراته فرفع حاجبه، وتوجّه بعينه نحو ليوناردو الذي كان وحده، وظهره مسنود إلى أحد الأعمدة بينما كانت نظراته توحي أنّ ما يشغل باله أهمّ ممّا يراه أمامه.

تناول ماتّينيه القدح ورفعها من غير ما حماسة إلى شفتيه، ثمّ أفرغها بشرفتين وأعادها إلى رفيقه من دون أن ينظر إليه.

- سأقتلك عندما أعود.

عشرة

- وهل تخاطر حقّاً بفقدان هذا كلّه؟

- نعم يا للأسف، سير ليوناردو، قال الأب ديوداتو، وقد خفض بصره.

- أنا لا أعرف بالضبط إذا كان هذا سيحدث، لكنّنا في يد الربّ. وسيادته.

فأومأ ليوناردو ببطء، واستمرّ في النظر إلى اللوحات الجداريّة في غرفة الطعام الكبيرة. ليس فيها أيّ شيء مميّز بالطبع، قد تعود لما ندعوه اليوم «مدرسة منطقة لومبارديا في القرن الخامس عشر» وهي صالحة لأن تكون موضوعاً لأطروحة التخرّج من الجامعة أكثر ممّا تفيد في جلب جمهور يدفع ثمن تذكرة الدخول. إنّها من صنع بِرناردينو بوتينونِه والزينالِه فضلاً عن أشغال وترميم أيد مزيِّفة كان ليوناردو قادراً على كشفها بنظرة واحدة لا يرغب البتّة بإتباعها بنظرة ثانية.

ومع هذا فقد كان الأب ديوداتو قلقاً. لا تقلقه حتماً فكرة فقدان هذه الرسومات الجداريّة، رغم أنّه قام جزئيّاً بتكليف مَن رسمها، بل أن يفقد ما يدعم تلك الرسومات، أي البناء.

وتابع الأب ديوداتو حديثه: - القانون الذي أراده صاحب السيادة يتكلّم بكلّ وضوح، فكلّ من يريد أن يوسّع ويكبّر محلّه أو منشأته يمكن له أن يستملك المباني المجاورة لمبناه إن لم تكن تشكّل أساساً جانباً من منشأة أو محلّ آخر.

- لكنّكم أنتم أيضاً تمارسون التجارة، إذا لم أخطئ - قال ليوناردو بينما كانت عيناه تواصلان النظر إلى الرسومات الجداريّة. الجديدة.

لم تكن تقنية الرسومات الجداريّة تروق لليوناردو. فهي سريعة جدّاً، وحاسمة جدّاً. لا تعطي الوقت اللازم لإعادة التفكير، للتصليح، للتظليل.

لكنّ الأب ديوداتو قلّل من أهميّة ذلك: - نحن من صغار الحرفيّين، نصنع بعض الخمور، وأصباغ الرسم كما تعلم. ولحسن الحظّ فإنّ أحد إخوتنا وهو إيليدجو دا فارّاميستا كان يشتغل بالحسابات قبل أن يدخل سلك الرهبنة وكان يسجّل كلّ النفقات خشية أن يهدر أمواله. وهو أشدّ حذراً منا جميعاً. لكنّ مجموعتنا نشأت لتجنّب كلّ أنواع التجارة داخل كنيسة روما المقدّسة. نحن صغار جدّاً من الناحية التجاريّة وأهميّتنا قليلة جدّاً كمجموعة دينيّة.

فأومأ ليوناردو برأسه، واستمرّ في النظر فيما حوله.

كان دير مجموعة فقراء يسوع المخصّص لسان جيرولامو قد أقيم في بورتا فيرشيلّينا، على طول النافيليو. وإذا أراد شخص ما البحث عنه اليوم، فعليه أن يسير في كورسو ماجنتا حتّى يعبر فيا كاردوتشي (التي كانت تسمى في الواقع سان جيرولامو)، ذلك إلى أن يصل إلى الكتلة الواقعة بين فيا ميليرو وفيا مارّادي، وهناك عليه أن يبدأ بالحفر والتنقيب. لأنّه لم يبق اليوم أيّ أثر لذلك الدير.

وأضاف الأب ديوداتو: - سيُتّخذ القرار من قبل الكاردينال أسكانيو، شقيق إيل مورو. وإذا صدر قراره ضدّنا، فإنّ ديرنا سيصبح جزءاً من مصنع الأحذية، وستبقى لنا كنيسة كبيرة حقّاً بالنسبة إلى العدد القليل من الناس الذين سيفضّلونها على كنيسة سان فرانشيسكو الكبير.

- كم هو عدد الرهبان الآن في الدير؟

- حوالي الأربعين. ليس كبيراً لكنّه ليس بالصغير. لكن لنرجع إلى شأننا يا سير ليوناردو. ما هو السبب وراء تشريفك لزيارتنا؟

أخذ ليوناردو يعبث بغطاء رأسه الورديّ الذي كان متناغماً على أحسن وجه مع ثوبه بلون السلمون وإن كان يتضارب بشدّة مع ألوان صالة الطعام.

– أردت أن أزورك أيّها الأب لأعتذر إذا كنت قد أسأت إليك وإلى الأخ جواكّينو مساء الأمس. لم يكن في نيّتي قط أن أقول أمراً تشمّ منه رائحة التجديف، كما أرجو أن تفهم.

هزّ الأب ديوداتو كتفيه.

– ليس عليك الاعتذار يا ليوناردو. فأنا في الواقع من عليه أن يتأسّف. وأن يتأسّف مرّتين. في المقام الأوّل، لأنّ ردّة فعل الأخ جواكّينو كانت غير متناسبة ولا متّسقة. ثانياً لأنّ ما كنت تقوله أثار اهتمامي بالفعل. كما أنّ الأخ جواكّينو ليس قادراً على التمييز بين المبنى والاستفزاز. ولا يوجد بالنسبة إليه درجات أو ظلال، فكلّ شيء هو أسود أو أبيض. بعكس رسوماتك. لقد تأثّرت جدّاً بالطريقة التي تجعل فيها الوجوه تبرز من بين عشرات الطبقات من مختلف الألوان.

فتح ليوناردو عينيه شيئاً ما وهو يرفع رأسه. فتلقّي المديح باستمرار قد يزعجه أحياناً – خاصّة إذا جاء المديح عوضاً عن الدراهم – لكن لا شيء يطري الفنّان كشعوره بتقدير ما يرى هو بالذات أنّه من خصوصيّاته الحقيقيّة والأصليّة.

– اعلم أيّها الأب أنّ الرسام الجيّد يجب أن يرسم شيئين، هما الإنسان ومفهوم عقله. فنحن عندما نرى الرجل، فإنّنا لا نرى أنفاً وفماً وصفّ أسنان. بل نرى النيّة، خيّرة كانت أو شرّيرة، نرى موضوعاً يركّز عليه انتباهه أو الطمأنينة التي يشعر بها في تأمّل فحوى اطمئنانه. ذلك في أعمال وحركات الرجل الذي يكوّن ذلك، سواء كانت هذه الأعمال والحركات ملموسة أو غير ذلك. لكنّ المرسوم في اللوحة لا يتحرّك، ومع هذا فعليّ أن أرسمه بطريقة يمكن لمن يراه أن يلحظ تلك الحركة وبل تلك النيّات. – وهنا ابتسم ليوناردو – وسيكون خطأً فادحاً رسم هذا كلّه بواسطة خطوط دقيقة لا تتغيّر. خاصّة أنّ الحدّ بين شيء وآخر، وبين وجه وجدار خلفه، يتغيّر موقعه عندما أغيّر موقعي، أو إذا غيّرت هذا الشيء أو ذاك، لأنّ ذلك الحدّ غير موجود. ولا يوجد إلّا في بصري، أو في ذهني.

فقال الأب ديوداتو بعد بضع دقائق من الصمت: - كان هذا بالفعل الحديث الذي فتنني. فأنت تظنّ أنّ قوّة الإنسان هي في اللغة لأنّها تتيح له وصف أشياء غير موجودة.

- إنّ جميع اللغات تأخذ قوّتها من هذا. تخيّل مقدار الجهد الذي يجب أن أبذله لبناء مشهد يمثّل عرس قانا بالفعل. - وهنا عرض ليوناردو الرسم الجداريّ الموجود أمامه الذي يدور في الواقع حول ذلك الموضوع. عليّ أن أجلب عشرات المدعوّين، والمائدة والطعام بل وأن أكون قادراً على تحويل الماء إلى نبيذ. هذا صعب عليّ وأظنّ أنّ برامانتِه[20] بذاته لن يستطيع ذلك. لكن لنتناول ريشة رسم وبضع بيضات مخفوقة وشيئاً من ألوانكم الرائعة، وها نحن هنا - عرض ليوناردو براحة يده الرسومات الجداريّة من رسم تزيناتِه - وهذا ليس بالقليل، ألا ترى ذلك؟

- حسناً أيّها السادة، لقد انتهى عملنا الآن في ميلانو، ولا حاجة بنا للبقاء هنا مزيداً من الوقت، لا حاجة رسميّة أعني. هل فهمتني يا روبينوت؟

كان دوق كومين قد سند كوعيه إلى الطاولة وهو ينقر بأنامل يده على الأنامل الأخرى، بينما كان روبينوت يسير جيئة وذهاباً قرب الطاولة، متوتّراً فاقد الصبر.

- فهمت بصورة تامّة أيّها الدوق. لكنّ ماتّينيه لم يعد كما أخبرتك إلى المسكن في هذه الليلة، وهذه علامة جيّدة.

فقال بيرون دو باش وهو ينظر إلى أعلى: - يمكن أن يكون قد قتل في

20- كان دوناتو برامانته Donato Bramante (1444-1514) من كبار المهندسين المعماريين في ذروة عصر النهضة. من أهم الأعمال التي كلّف بها إعادة تصميم كاتدرائيّة القديس بطرس (الفاتيكان) إلا إن العمل فيها لم يبلغ شوطاً بعيداً لأنّه مات قبل ذلك. (م) عن ويكيبيديا

الطريق، أو يمكن أن يكون قد محقه الغضب الإلهيّ. يبدو أنّ التجوّل في ميلانو أصبح أمراً خطيراً، إذا كان المرء من أصحاب الخطايا.

– في هذه الحال كان يجب أن تحرق هذه القلعة منذ عشرات السنين ونحن معها. العفو، أسمع قرعاً على الباب.

صمت الثلاثة. وفي الواقع فقد سمع بعد ثوان قليلة بضع دقّات على الباب، سريعة لكن كأنّها حذرة. فذهب روبينوت بخطوات طويلة نحو الباب وسأل:

– من هناك؟

– أنا، هذا أنا – أجاب صوت ماتّينيه.

– فهمت أيّها الأب، أنت الرئيس.

– بالضبط، يا سير ليوناردو. يمكنني أن أفهم أنّ سلوك الأخ جواكّينو قد أزعجك. لكنّي أؤكّد لك أنّه ليس عليك أن تخشى شيئاً من طرفه.

– أي أنّه لا ينوي أن يكتب إلى الأسقف ليتّهمني بالزندقة؟

فنظر الأب ديوداتو إلى ليوناردو نظرة طيبة وقال: – لا أستطيع أن أستبعد هذا الأمر. لكنّي أستبعد أن ترسل هذه الرسالة. إذ لا يمكن إرسال أيّ رسالة من هنا يا سير ليوناردو قبل أن أقرأها، كما لا يمكن أن تصل أيّ رسالة أيضاً إلى يديّ إخوتي من غير أن تتعرّض للمصير نفسه. فالكلمات بعدما تكتب تسافر إلى مسافات بعيدة وتدوم عبر الزمان ويمكن لها أن تسبّب أضراراً. وتكمن قوّتي، مثل أيّ قوّة أخرى، في معرفة أشياء أكثر من التي يعرفها قطيعي.

كان ليوناردو والأب ديوداتو يمشيان على طول الدير، وقد قاما بهذه الجولة حتّى الآن عدّة مرّات. وعندما وصل الرئيس إلى قاعة الطعام، توقّف ونظر إلى ليوناردو من جديد، وتحدّث بصوت قويّ بقوّة قرع حذائه.

– لقد أخطأ الأخ جواكّينو في شيء آخر أيضاً. اسمع يا ليوناردو، إنّ مجموعتي قد أسّست لتعارض كثرة المال والتجارة واستعمال رجال الكنيسة لكلام الله بشكل متواصل وتحويله إلى سلعة. لهذا فقد أخذنا اسم فقراء يسوع.

أومأ ليوناردو موافقاً. كان يعرف قصّة الكولومبيّين. يعرف قصّة تاجر مدينة سيّينا الذي آمن بعد أن قرأ عن حياة القدّيسين التي كتبها جاكوب ودا فاراجينِه، ثمّ خلع عنه كلّ ما لديه وبدأ يعيش حياة الفقر. كان هذا من سيّينا وكان إخوة المجموعة من سيّينا كذلك أو من منطقة توسكانا، لكنّ ليوناردو لم يعرف قط أيّ يسوعيّ من منطقة لومبارديا.

– يجب تجنّب المال، لكنّ زعيم ميلانو الحقيقيّ ليس المال. إنّ المال يستعمل كوسيلة من أجل السلطة، وليس من أجله بالذات، ليس هدفاً في حدّ ذاته. بدءاً من إيل مورو الذي استعمل مهر حفيدته ليتمّ إعلانه دوقاً، ومروراً بآخر سكرتير من أمناء البلديّة الذي يشتري المنصب بدفع مبلغ إلى سلفه. ليس المال بالنسبة إليهم جميعاً صيغةً شيطانيّة يعبدونها، بل هي السلطة.

تابع الرئيس حديثه وعبر باب صالة الطعام، بينما تبعه ليوناردو.

– لكنّ هذه السلطة هي سلطة عابرة فانية. وليس إلّا لله وحده القدير سلطة حقيقيّة على البشر. أمّا الإنسان، أيّ إنسان، ومهما كانت مكانته في هذا العالم، فإنّه يهزأ بالله القدير عندما يدّعي لنفسه حقوقاً ليست له، لأنّها لله وحده ومن شأنه فقط.

هنا تمتم ليوناردو بصوت منخفض: – وأنت بين هؤلاء.

– أجل وأنا بينهم. قال الرئيس وهو يراقب أيضاً ما حوله. لكنّي أنا أدرك هذا. أعرف طبيعتي الفانية، التي تحتّم أن تكون سلطتنا مجرّد وهم. إنّنا كائنات هشّة متساقطة، مثل ورقة على أبعد غصن عن جذع الشجرة.

– أجل أيّها الأب، لقد بدأت أطيل التأمّل في الأيّام الأخيرة في هذه الأمور.

فنظر إليه الأب ديوداتو بنظرة كاهن الاعتراف أكثر منها نظرة الراهب.

– لابدّ أنّك سمعت عن ذلك البائس الذي قتل وألقي بجثّته وسط القلعة، تغمّده الله برحمته؟

– أجل، اسمه كيتي، رامبالدو كيتي. كان تلميذاً عندي وقد اضطررت إلى طرده قبل عدّة أشهر. – وواصل ليوناردو النظر إلى الرسومات الجداريّة بعد أن سار بضع خطوات. – وهل عرفته أنت أيضاً؟

– لا، لا يبدو لي أبداً. لماذا تسألني؟

هزّ ليوناردو رأسه، كما لو أنّه أزاح بعض الشكوك.

– خطر على بالي أنّه كان يعيش ليس بعيداً عن هذا المكان، أي في غريفة في سان فيتّورِه. لكنّه لم يكن في الحقيقة من النوع الذي قد يأتي إلى القدّاس.

– ولا أنت يا ليوناردو، على ما قيل لي.

– لا، لم أنم أيضاً لوقت كاف – قال ماتّينيه الذي بدا كمن لم يسترح إلّا لبعض الوقت وبطريقة غير مناسبة، لذلك كانت عيناه محاطتين بهالتين عميقتين. – وصلنا في ساعة متأخّرة وكان الظلام قد غطّى حتّى الشوارع العريضة. حاولت خلال الطريق أن أفتح معه بعض الأحاديث، لكنّه كان من الواضح جدّاً أنّه مستغرق في أفكار أخرى، وأنّه لم يقبل دعوتي إلّا من باب المجاملة.

كان دوق كومين وبيرون دو باش جالسين إلى الطاولة تجاهه، بينما كان روبينوت يتمشّى حول الطاولة بخطى بطيئة لكن متوتّرة.

– وصلنا في النهاية إلى بيته، فسألته إذا كان من الممكن أن أصعد معه لأرى ماذا كان يعمل. قلت له إنّي من المعجبين بأعماله وبرسومه. فأجابني إنّه كان مرهقاً بالفعل ويريد الذهاب للنوم.

– عندها تشجّعت بكلتا يديّ وقلت له: – «إنّي هنا أيّها المعلّم لأقدّم لك جسدي، فافعل به ما تشاء».

– وهو؟

– نظر إليّ وابتسم.

– في تلك اللحظة بدأ ماتّينيه يطرح الأسئلة على نفسه. فالواقع أنّ ابتسامة ليوناردو كانت حلوة بصورة لا تصدّق، لم تكن بذيئة ولا ساخرة ولا جنسيّة، بل كانت حلوة فحسب، حلوة ومرحة، كأنّه دهش من وفرة الحظّ الذي جاءه. كانت حلوة وجميلة إلى حدّ ربّما...حسناً، لا أريد حتّى أن أفكّر بالأمر. أنا ممّن يحبّ النساء، لكنّي هنا من أجل الواجب.

– إذاً؟

– نظر إليّ وكأنّه يراني للمرّة الأولى، من أعلى رأسي إلى أخمص قدميّ. ثمّ فتح الباب. لماذا تضحك أيّها الأحمق، يا ذا الرأس الفارغ؟

– لا شيء، أبداً – قال روبينوت – تابع، أرجوك.

أخذ ماتّينيه نفساً عميقاً، ثمّ مرّر يديه على سرواله من الأمام ومن الخلف كمن ينظّفه من شيء مقرف.

– أخذني إلى غرفة، أظنّ أنّها غرفته. كان فيها مضجع وأوراق متناثرة. وضع يده على كتفي ثمّ فكّ سترتي ببطء. مرّر يديه على صدري وهو يبتسم. وفي دقائق معدودة أصبحت عارياً.

– عارياً ومتردّداً حول ما يجب عليك فعله – قال الدوق من غير أن يتمكّن من لجم ابتسامته.

– تماماً. عارياً ومتردّداً حول ما يجب عليّ فعله، بل فكرت وقلت في نفسي إمّا أن أعانقه أو ألكمه. لكنّي تركته يتصرّف. وهو...– وهو؟ ماذا فعل؟

وضع ماتّينيه يديه على الطاولة وضغط، كأنّه يريد أن يعترف بخطيئة لا يمكن تسميتها –... رسمني في لوحة.

أبعاد مثاليّة، انظر، أبعاد مثاليّة. السبع والخمس. لكنّ المركز ليس هو نفسه، هذا هو السرّ. المركز ليس هو نفسه. يجب ألّا يكون للمربّع

والدائرة المركز نفسه، وإلّا فلن يصحّ الأمر. يجب أن أكتب هذا على الفور إلى فرانشيسكو دي جورجيو.

نظر ليوناردو إلى ورقة على مكتبه. رجل مفتوح الذراعين ومضموم الساقين، واقفاً ضمن دائرة، فوقه الرجل نفسه مشرّع الذراعين ومنفرج الساقين وهو داخل دائرة. بصورة تامّة، هذا هو، هذا هو كمال الإنسان.

هذا ما يجعل الإنسان إنساناً، الأبعاد. من الكتف إلى الذراع، المسافة نفسها من الذراع إلى الرسغ. وهكذا يمكن للساعد أن ينثني وتتمكّن اليد من الوصول إلى كلّ ما يقع ضمن نطاقها، من دون مناطق عمياء لا يمكن الوصول إليها والتي يمكن أن توجد فيما لو كان الساعد أطول أو أقصر من القطعة السابقة. أبعاد. أبعاد. إنّ أبعاد الإنسان تامّة كاملة، وهذا ما يميّزه عن الكلب، أو عن الحصان. ونحن لا نستطيع من دون هذه الأبعاد. لا نستطيع أن نأخذ الأشياء. ولا نستطيع حتّى أن نقف على أقدامنا، ولا أن نحمل رؤوسنا وهي أثقل جزء من الجسم، وأبعده عن الأرض. هذا ما نفعله نحن فقط، لا تفعله الذبابة ولا يفعله الفيل...

- ليوناردو!

- أنا فوق يا كاترينا.

- انزل لتساعدني، يجب أن نجمع البيض وأنا وحدي.

- إنّي قادم، قادم.

لا يتركونني في سلام ولا لمرّة واحدة!

- أبداً، ولا مرّة واحدة.

صفعة.

- قلت ولا مرّة!

صفعة أخرى.

- أقول، ولا لمرّة واحدة. لا تستطيعون مرّة واحدة أن تفعلوا ما يطلب منكم!

كان دوق كومين واقفاً على قدميه، قرمزيّاً. كان ماتّينيه وروبينوت ثابتين مقابله، يعصف بهما غضب الدوق الذي كان يصرخ مثل مدّرب الفئة الثالثة، ويؤكّد على حديثه بضربات مرعبة على الطاولة تقوم مقام إشارات التعجّب.

بينما كان بيرون دو باش جالساً أو بالأحرى مضطجعاً على الطاولة يضحك ويضرب بقبضته هو أيضاً على الطاولة ودموعه ملء عينيه.

- وأنت كفّ عن الضحك بحقّ يسوع المقدّس!

-لا أستطيع...لكن كيف يمكن أن يكون المرء مثل البطّيخة...

صفعة. ليس على الطاولة هذه المرّة، لكن على رقبة بيرون دو باش الذي انحنى فأصبحت لثّته على الطاولة.

- كفى، كفاك ضحكاً يا أحمق! وكفاك لعباً! غداً أو بعد غد على الأكثر علينا أن نسافر من هنا. لا يوجد سبب لتمديد زيارتنا أكثر من هذا. سنثير الشكوك. لذلك فإنّي أريد أن أحصل في هذا المساء بالذات على المفكّرة. افعلا ما تشاءان لكن أحضرا لي تلك المفكّرة.

- أيّ شيء؟

- أيّ شيء.

- حتّى...

قرّب دوق دو كومين وجهه من وجه روبينوت إلى مسافة أقلّ بكثير من المسافة التي تنصّ التربية الصالحة والجماليّة على أنّه لا يمكن تجاوزها.

- اسمع يا ذا الرأس المحشيّ بالحصى، وتذكّر كلامي جيّداً. إذا لم تأتني بالمفكّرة فسأقطع رأسك. يجب أن تأتيني بالمفكّرة، وكلّ ضرر تسبّبه لليوناردو سأفعله بك، هل فهمت؟

التفت روبينوت ببطء لينظر إلى ماتّينيه.

أنت المسؤول هذه المرّة، قالت نظرات ماتّينيه.

- ليوناردو... - أوه.

- ليوناردو أليس كذلك؟

كان ليوناردو جالساً إلى طاولة المطبخ وأمامه ورقة. عندما سمع صوت أمّه للمرّة الثانية قلب الورقة بصورة غريزيّة وغطّاها بيده اليمنى. ثمّ رفعها وعاد للتأمّل بالورقة، كما أجاب والدته من دون النظر إليها.

- نعم يا كاترينا.

- لم أسألك حتّى ماذا!

عندما عاد والتفت نظر ليوناردو إلى أمّه، بينما وضع يده اليسرى على الورقة وثناها. فصدر صوت تناغم مع طقطقة النار مقابل الطاولة.

- يبدو أنّ هناك ما يقلقك يا كاترينا. أنت قلقة عليّ. وبما أنّي قلق أنا أيضاً، فهذا صحيح. هناك أسباب تدعونا إلى القلق.

فأجابت كاترينا بسرعة: - آه أيّتها الأمّ المقدّسة يا أمّ يسوع! وهل كان عليك أن تقول تلك الحماقات بالضبط أمام رجل من الكنيسة؟

- حماقات، كنيسة، أمّ، لا أفهم.

- قال الأخ جواكّينو اليوم خلال موعظته إنّه كان البارحة ضيفاً على امرأة نبيلة لسماع الموسيقى، فجاء رجل يظنّ أنّه عبقريّ كبير لكنّه مجرّد أحمق صغير وقال إنّ الله أعطى البشر اللغة كي يكذبوا فحسب، وإنّ أكبر هبات الله هو الكذب.

- اسمعي يا كاترينا...

- لقد كنت مساء البارحة تسمع الموسيقى عند الكونتيسة بيرغاميني، تلك التي تسمّيها أنت غالّيراني، محظيّة إيل مورو...

- كانت محظيّة إيل مورو...

-...وأراهن أنّك كنت أنت الذي تفوّهت بتلك الشتائم الغريبة. أو أنّي على خطأ يا ليوناردو؟

نهض ليوناردو عن مكتبه ببطء، وفي يده تلك الورقة المثنيّة.

- إنّك على خطأ يا أمّي. أخطأت أنت كما أخطأ هو. - ثمّ أمسك ليوناردو بلفافة الورق بين أصابعه ورماها في النار. - لقد استنار الأخ جواكّينو دا بريني بنور الله ربّنا إلى حدّ أنّه يعمى أحياناً ويعشى عليه فلا يرى. أنا كنت أتكلّم بالمجاز لكنّه أخذ الكلام حرفيّاً.

- كن خبيثاً، كن داهية يا ليوناردو، لكنّك قلقت أنت بالذات، وهذا جيّد. إذ يمكن لذلك الرجل أن يشتكي عليك ويضعك في ورطة مع الكنيسة المقدّسة.

- آه، حتماً، وعلى الأرجح فقد فعل ذلك.

- إذاً ماذا ستفعل من أجل الدفاع عن نفسك؟

- أنا؟ أنا لا يجب عليّ أن أفعل شيئاً يا أمّي. يمكن للأخ جواكّينو أن يثرثر بقدر ما يشاء، لكنّنا لسنا هنا في فلورنسا يا أمي، ولا في روما حيث يحرقون الرجال الذين يفكّرون وكأنّهم عيدان. نحن هنا في ميلانو، في بيت لودوفيكو إيل مورو.

- إذاً لماذا أنت قلق؟

نظر ليوناردو إلى المدفأة من غير أن يراها.

- لهذا السبب بالضبط يا أمّي. لأنّنا في بيت لودوفيكو إيل مورو.

- لا أفهمك يا ليوناردو.

ذهب ليوناردو إلى مقابل كاترينا ووضع يده على كتفها وهو يضغط عليها شيئاً ما.

- لا أعرف. وهذا أفضل. ثقي بي.

بعد أن انصرف ليوناردو بقيت كاترينا تحدّق للحظة بالباب. ثمّ عادت نظراتها نحو المدفأة حيث كان اللهب يلامس الورقة المكوّمة التي رماها ابنها في النار ولم تحترق.

لماذا كوّمها وثناها؟ هل كتب فيها أموراً غير مناسبة؟ أموراً قد تجلب إليه بعض المصائب؟ مثل تلك المرّة عندما كتب أن الشمس لا تتحرّك. أخبرها بذلك سالاي، وقال إنّه هو وماركو دودجونو قد سخرا منه مطوّلاً وسألاه ما إذا كانت الأرض إذاً هي التي تتحرّك، فابتسم ليوناردو وهزّ برأسه.

ذهبت كاترينا بالغريزة نحو المدفأة ونزعت الورقة بحركة سريعة. ثمّ عادت إلى الطاولة، فتناولتها وفتحتها ومدّتها على سطحها.

رسوم. فأر، قط، فيل. وبضعة سطور من كتابة كانت بالنسبة إليها سراً لا يسبر كنهه. لم تكن كاترينا تعرف قراءة الأشياء المكتوبة بالاتّجاه الصحيح، فكيف لها ذلك إذا كانت بالعكس.

دخل سالاي بمرح وقال لها: تحيّاتي يا كاترينا، ماذا عندك من طعام للعشاء؟ لا تقولي لي اللفت من جديد، أرجوك.

- عزيزي جاكوميتّو، هل تعرف أنت قراءة كتابة ابني؟

- بكلّ تأكيد يا كاترينا.

- هل تعرف أن تخبرني بما هو مكتوب هنا؟

انحنى سالاي على الورقة، مقطّباً بين حاجبيه، ثمّ بدأ يقرأ.

خذ اثنين لمرّتين تحصل على أربعة.

خذ ثلاثة لثلاث مرّات تحصل على تسعة.

خذ خمسة لخمس مرّات تحصل على خمسة وعشرين.

وإذا قسمت تسعة وأربعين على سبعة تحصل على سبعة.

وهذا صحيح بالنسبة إلى الدرع أو إلى قشرة،

لأنّه صحيح بالنسبة إلى عظمة أو إلى المدفع.

نظرت كاترينا إلى سالاي بشيء من الرعب. ثمّ نظرت من جديد إلى تلك الورقة وعليها صورة فأر وفيل يبدوان حقيقيّين حتّى ليستغرب المرء أن يراهما ثابتين جامدين.

- وهل تسخر منّي يا جاكوميتّو؟
- لا، أيّتها السيّدة كاترينا. مكتوب فيها ما قرأته عليك بالذات.
- وماذا يعني ذلك بحقّ الله؟
- وماذا تظنّين أنّ بوسعي أن أعرف؟

أشياء للعمل

تحدّث إلى آشيريتو المصرفيّ واسأله كيف يعرف أنّ رسالة الاعتماد مزيّفة إذا وصلت بين يديه رسالة منها.

تحدّث إلى الكابتن غالياتسيو واسأله كيف يمكن رمي جثّة وسط رواق ساحة السلاح في قلعة جيوفيو وكيف لم يتح لأحد أن يرى أحداً وهو يرميها.

تحدّث من جديد إلى المعلّم أنتونيو فابرو واسأله عن القوّة اللازمة لخنق رجل داخل الدرع. لكن اذهب وحدك هذه المرة.

إذا عرفت هذه الثلاثة، فسوف تفهم كيف حدث الأمر، ذلك أنّ الحقائق تتبع الأسباب، تماماً كما تنبت الأغصان من الجذع، ولا تنمو الشجرة من الأغصان المتفرّعة في الهواء. وكّلما زادت الحقائق التي يمكنك معرفتها، تمكّنت من معرفة الأسباب الكامنة وراءها، ولكن بما أنّ الحقائق تلتقي جميعها على نفس الشجرة فإنّك لا تحتاج إلّا لحقيقة واحدة فتدلّك هذه على البقيّة وتستطيع عندها رؤية كلّ شيء، وهكذا فإذا كانت الشجرة مخفيّة ضمن غابة كثيفة، فكلّما زاد عدد أغصانها كان ذلك أفضل للدلالة عليها.

أنا أكتب هذا لأنه من واجبي، وأنا أعرف واجباتي، ولكن الآخرين لا. إنّ من واجب الرسّام هو الرسم، وواجب الحدّاد هو التشكيل، وواجب المتعهّد هو أن يدفع للعامل عندما يقدّم العمل على أحسن صورة فنّيّة. كما أنّ واجب الرسّام هو أن يعيش ويأكل ويضمن لتلامذته نوعيّة جيّدة

من الحياة، لأنّ المرء إذا لم يأكل لا يعيش، وإذا لم يتمكّن من العيش فإنّه لن يرسم. لكنّني أتساءل لماذا أنا باق هنا في ميلانو، مع وجود أماكن أخرى كثيرة في العالم.

هذا إذا تركنا مؤقّتاً أمر الحصان جانباً.

أحد عشر

كلّ غصن يحمل الماء إذاً إلى النهر، وكلّ غصن من نبتة يتوافق مع الجذع.

فإذا رأيت نبتة تنمو وتتفرّع أغصانها ثمّ قمت بقياس قطر جذعها وقطر تفرّعات الاثنين، سترى أنّ مجموعهما يساوي قطر الجذع. وإذا أخذت أغصان شجرة من أيّ ارتفاع كان وجعلتها في حزمة، فإنّ هذه الحزمة ستكون بحجم الجذع.

وإذا التقى غصنان في نقطة ما، فإنّ تلك النقطة يجب أن تكون أضخم من الغصنين في مكان نشوئها. إذ لم تر قط أغصاناً تنمو من جذع وهي أضخم منه. والشيء نفسه يقال عن الإنسان، فإذا ضمّ أصابعه تراها بحجم راحة اليد، وإذا ضمّ ساقيه تراهما بحجم الحوض، وإذا رفع الذراعين إلى قرب الرأس ترى أنّ الذراعين والرأس هم بحجم الصدر.

نظر الرجل الجالس بقرب ليوناردو إليه بفضول، وهنا أدرك ليوناردو أنّه كان قد رفع ذراعيه ومدّهما إلى رأسه وأنّ يديه موضوعتان الواحدة فوق الأخرى كما يفعل الغواصّون على المنصّة الأولمبيّة. عندها خفض ليوناردو ذراعيه وتنهّد بعمق متظاهراً أنّه كان يعاين شدّة آلام مفاصله.

كان ينتظر من حوالي نصف ساعة. وكالعادة فقد شرد ذهنه خلال هذا الوقت الذي أمضاه في غرفة بورتا كومازينا المزيّنة ببوّابة من رخام محفور، فتحوّلت أفكاره عن المشكلة الرئيسيّة التي كان يفكّر فيها. في هذه الحالات كان ليوناردو يعيده ذهنه بالقوّة إلى تلك المشكلة. هذا

إذا انتبه إلى شروده. لأنّ ذهنه عندما يشرد كان كثيراً ما يضيع بين أفكار تتسلّط عليه بأمور واعدة تحتاج إلى التزام كبير كي ينتبه إلى أنّه قد شرد. علماً أنّ شروده حول الأغصان قد كان له سبب. فإذا التقى غصنان في نقطة ما، فإنّ تلك النقطة يجب أن تكون أضخم من كلّ من الغصنين على انفراد. وعندما اعتبر أنّ هذا الأمر أكيد...

- هل السير ليوناردو دافنشي؟

- أجل، أجاب ليوناردو دافنشي.

- من هذا الطرف. سيستقبلك سير آتشيرّيتو بنفسه.

- ما هذا الشرف يا ليوناردو. تعال، تفضّل. المعذرة على الانتظار، لكنّي هذا الصباح، أو بالأحرى منذ يومين وأنا مشغول جدّاً. بل، وأرجو أن تعذرني، فإنّي لا أستطيع تخصيص وقت طويل جدّاً لك.

- لا تقلق يا سير آتشيرّيتو. لست معتاداً على الإصرار إذا تمّ الرفض. لم آتِ لأطلب المال. لكنّ الدرهم الذي جئت أطلبه أثمن من ذلك.

وهنا جفل سير آتشيرّيتو في حركة بين القلق والانزعاج.

- ليس عن المال الرنّان أريد الكلام، لكن عن ذلك الذي له حفيف - وهنا ابتسم ليوناردو وقد سرّ في باطنه بسبب الانزعاج الواضح على جليسه. - إنّك أنت ساحر، لكن ليس بالمعنى الذي يخيف السلطات الكنسيّة ومحاكمها، بل بمعنى أنّك تحوّل الورق إلى مال وبالعكس. إذاً فأنا لا أريد منك إلّا أجوبة تتعلّق بهذا الأمر.

فأجاب آتشيرّيتو وقد تناقص هدوؤه: - إذا كان بوسعي تقديمها. لكن عليك أن تتذكّر أنّ السكوت من ذهب في موضوع القروض.

- أنا على قناعة بهذا. الذهب هو الذهب، والورق هو الورق. وتحويل الورق إلى ذهب من دون امتلاك إمكانيّة ذلك قد يخيف الكنيسة الرومانيّة المقدّسة لكنّه لابدّ أن يزعج صاحب السيادة لودوفيكو إيل مورو.

امتقع وجه آتشيرّيتو نوعاً ما. فالموت هو عقاب التزييف والتعامل بعملة مزيّفة مع العلم بمصدرها.

لكنّه ابتلع الأمر وقال: - حسناً. اسألني سؤالاً محدّداً لأجيبك بطريقة موجزة ودقيقة.

- للأسف، للأسف، إنّك متفائل يا سير آتشيرّيتو. في كثير من الأحيان نرى أنّه كلّما كان السؤال دقيقاً، كانت الإجابة أكثر صعوبة وأشدّ غموضاً. ولكن دعونا لا نستطرد. السؤال الأوّل هو: هل سبق لك أن تعاملت برسائل اعتماد مزيّفة؟

بدا أنّ آتشيرّيتو قد حبس للحظة نفَسه. وجرى نظره على الطاولة كما لو أنّ بوسعها أن تعطيه الجواب.

- ولماذا تسألني هذا السؤال؟

- لأنّ الرجل البائس الذي قتل ووضعت جثّته في ساحة السلاح، أي رامبالدو كيتي، كانت في غرفته رسالة اعتماد موقّعة من قبل بينشو سيرّيستوري. رسالة مزيّفة.

- وكيف تحكم أنّها كانت مزيّفة؟

- تمّ التوقيع عليها وتأريخها يوم الرابع والعشرين من حزيران.

التزم آتشيرّيتو بورتيناري الصمت للحظة، ثمّ انفجر في ضحكة ضخمة، هستيريّة. وكان لابدّ من مرور ثوان كثيرة قبل أن يهدأ.

- الرابع والعشرون من حزيران؟ تصوّر، تصوّر بينشو وهو يعمل في يوم سان جوفانّي. ومن هو هذا الأحمق الذي ارتكب مثل هذا الخطأ الفادح؟

أظنّ أنّه كان كيتي بالذات يا سير آتشيرّيتو.

أظلم وجه آتشيرّيتو.

- لكن ألم يكن كيتي هذا تلميذاً في مرسمك؟

– كان، لكنّي طردته منذ ردح من الزمن، عندما اكتشفت أيّ وغد هو ذلك الشخص. لكن اعذرني يا آتشيرّيتو فأنت لم تجب بعد على سؤالي.

شبك آتشيرّيتو بورتيناري يديه أمام وجهه، ثمّ نقلهما ووضعهما على بطنه واستند إلى ظهر مقعده.

– هل تسألني عمّا إذا كانت لي علاقة مع رسائل اعتماد مزيّفة؟ نعم، من الممكن. لا بل هذا أكيد.

– وماذا تفعل عندما تصلك رسالة تظنّ أنّها مزيّفة؟

– أدفعها.

– تدفعها؟

– أدفعها، بكلّ تأكيد. على ألّا يكون زيفها واضحاً بشكل فاضح كما هو الحال في المثال الذي ذكرته. وألّا يكون الرقم كبيراً جدّاً، وفي هذه الحال يجب أن أتلقّى قبل ذلك رسالة خاصّة تعلمني أنّ أحد الفروع منح السيّد فلان الفلاني قرضاً بمبلغ مثل عشرين ألف دوقيّة، ويجب في هذه الحال أن يكون لديّ ما يكفي من الوقت لتجميع المبلغ المطلوب.

– ألن يكون من الأفضل التحقّق فيما إذا كانت مزيّفة أم لا؟

– من الأفضل لي ألّا يفقد الناس ثقتهم بالنظام المصرفيّ. اسمع يا سير ليوناردو، إذا أثرت أسئلة متشعّبة حول كلّ رسالة أظنّها مزيّفة، فإنّ الناس سيمتنعون عن المجيء إلى هذا البنك ليذهبوا إلى بنوك أخرى. إنّ رسائل الاعتماد يستعملها المسافرون والغرباء الذين لا وقت لديهم للبقاء. ولا أستطيع أن أطلب منهم البقاء في ميلانو لأسبوع تقريباً، لأنّهم سيرسلونني إلى الجحيم.

– وهل يمكن أن يسحبها شخص غير صاحب العلاقة؟

– فقط إذا كان ذلك الشخص مخوّلاً من قبل صاحب العلاقة. وهذه خدمة جديدة تماماً كان بنكي من أوائل الذين قدّموها. – وهنا ابتسم آتشيرّيتو ثمّ عاد وتجهّم من جديد – انظر، هذا ما حدث معي هذا الصباح

بالذات. فقد مات أحد الزبائن، وقبل أن تبرد جثته وجدت نفسي محاطاً بورثته الذين أرادوا أن يعرفوا كم أودع لدينا من المال، وكان عليّ أن أعرف من بينهم له الحقّ في توجيه هذا السؤال لي. مات المسكين قتيلاً بينما جاء هؤلاء يقرعون الأبواب وراء المال. لكن، إذا سمحت لي فإنّي الآن...

- لكن حتماً يا سير آتشيرّيتو، حتماً. هل قلت إنّه مات قتيلاً؟

- بالسكّين، بينما كان يخرج من الحانة. لا يصدّق.

- هل كانت مشاكل في اللعب؟ أو أنثى متنازعاً عليها؟

- لا على الإطلاق. إنّه رجل كبير في السنّ، من أولئك الذين يفعلون دائماً ما يجب القيام به. يا للسيد بارّاتشو المسكين.

- هل كان هو جوفانّي بارّاتشو؟

- إنّه هو بالفعل. تاجر الصوف. هل كنت تعرفينه؟

فأجابت تشيشيليا غالّيراني وهي تنظر إلى ليوناردو بعينين غير مصدّقتين: - طبعاً، من المؤكّد أنّي أعرفه. كنّا نتكلّم عنه ظهر البارحة، وتقول لي الآن إنّه مات؟

- مات قتلاً أيّتها الكونتيسّة، طعنوه بالسكّين عندما خرج من الحانة.

- لكنّ هذا خطير جدّاً. يا لمريم أمّ يسوع المقدّسة، رجل كهذا، رجل مثله...

- رجل شريف؟

- أجل يا سير ليوناردو. رجل طيّب، كريم، شغّيل كبير. لا أستطيع تصديق أنّه يمكن لإنسان أن يتنازع معه لحدّ طعنه بالسكّين. هل جئت إلى هنا بسرعة كبيرة لتخبرني بهذا؟

- نعم، أيّتها السيّدة الكونتيسة. كما ترين، فلقد ذكر اسم جوفانّي

بارّاتشو أمس لأنّه أحد الأشخاص الذين عرفت أنّهم كانوا يتاجرون مع صديقي المصرفيّ، الذي قاموا بتزوير رسالة ائتمان باسمه... أليس كذلك؟

لم تكن دهشة ليوناردو في غير محلّها. فقد قامت تشيشيليا وأخذت ذراعه بيدها اليمنى في تواصل غير متوقّع وغير مناسب لكنّه كان ورغم كلّ شيء غير بغيض ولا مؤسف.

- رسالة اعتماد؟ اسمع يا سير ليوناردو. لقد قابلت هذا الصيف وفي أواسط شهر آب جوفانّي بارّاتشو لأطلب منه بعض الحاجيّات. تكلّمنا كالعادة لبعض الوقت وسألني ما إذا كنت قد استخدمت مرّةً رسالة اعتماد. فأجبته أنّي لم أشعر أبداً بالحاجة ولم تكن لديّ طريقة لذلك. لكن إذا كان بوسعي أن أساعده فسأكون سعيدة بمساعدته. عندها سألني ما إذا كانت إحدى تلك الرسائل تبقى صالحة حتّى لو كان من أصدرها قد مات.

لم ينبس ليوناردو ببنت شفة. وهذا لا يعني أنّه لم يكن لديه ما يقوله. لكنّ تشيشيليا لم تكن بحاجة إلى من يرشدها.

- أجبته أنّي لا أفهم في هذه الأمور، لكنّي أعرف أكثر من شخص قادر على أن يقدّم له ربّما يد العون. أخبرته باسم شخص معيّن، أعرفه أنا وتعرفه أنت. وها أنت تأتي الآن لتقول لي إنّ سير بارّاتشو قد قتل.

- أستميحك العذر أيّتها السيّدة الكونتيسّة، لديّ فكرة واضحة عن الشخص الذي أشرتِ باسمه إليه. لكنّي كنت أريد تأكيداً لشكوكي.

- إذاً فأنت أيضاً لديك اسم في ذهنك؟

- اسم محدّد وواضح أيّتها السيّدة الكونتيسّة، هل أقوله أنا أم تقولينه أنت؟

احمرّ وجه تشيشيليا ولفتت رأسها. لقد لفّها خمار من الحرج، واضح، ثقيل، شبيه بدروع المعلّم أنتونيو ميسّاليا، لكنّ خلعه أصعب من خلع دروعه.

- بهذا الشكل نبدو وكأنّنا عاشقيْن يا سير ليوناردو.

أمّا ليوناردو الذي كان يبدو في مثل لون ثوبه، انقلب فأصبح لا يتميّز عن لون قبّعته.

- أستميحك العذر أيّتها السيّدة الكونتيسّة، لم يكن في نيّتي أن أزعجك. فأنا أنسى أحياناً من أنا ومع من أتكلّم. من الأفضل إذاً أن أنطق أنا بذلك الاسم.

- آتشيرّيتو بورتيناري، مدير بنك بورتا كومازينا.

قال لودوفيكو وقد بقي جالساً: - تعال، تعال سير بورتيناري. كيف الأحوال؟

نظر آتشيرّيتو بورتيناري حوله. لم يسبق له أن شعر بالانزعاج داخل تلك القاعة، على العكس. كانت تلك مكاناً من أمكنة السلطة والحكم، لكن في ذلك اليوم حَسِب آتشيرّيتو أنّ أعضاء المجلس بل كلّ ما على الجدران من زينة كانوا يراقبونه بمزيج من الانزعاج والشكّ.

- على ما يرام يا صاحب السيادة، على ما يرام.

- وأعمالك، كيف تسير؟ أرجو أن تكون قد وجدت نفسك مسروراً في المبنى التاريخيّ، سواء من حيث الروح المعنويّة أو بالنسبة إلى زبائنك.

- لقد جئت بالفعل لأكلّمك عن هذا الأمر يا صاحب السيادة. فلقد حدث معي اليوم أمران متميّزان، لكنّهما قد لا يكونان كذلك.

- تكلّم بصورة أوضح يا بورتيناري.

- حسناً، لقد جاءتني اليوم طلبات لتحصيل كثير من رسائل الاعتماد.

- هذا أمر جيّد، أليس كذلك؟ فهذا هو فحوى عملك.

- جيّد بالطبع. لكنّ هناك أمراً آخر. إنّ في رسائل الاعتماد تلك نوعاً من الغرابة.

- بأيّ معنى هي غريبة.

- كانت كلّها موقّعة من قبل المصرفيّ نفسه. مصرفيّ من فلورنسا، بينشو سيرّيستوري.

- بينشو سيرّيستوري، كرّر لودوفيكو.

أدار الاسم في فمه وكأنّه حبّة حلوى مطعّمة باليانسون التي كثيراً ما كانت تعجب زوجته لكنّها تثير قرفه ولا يتناولها إلّا كي لا يسيء إليها.

- صدفة جميلة.

- بالفعل أيّها الكابتن. يحدث أحياناً أن تصل رسالتان من المصرفيّ نفسه في اليوم نفسه، وتفسير الأمر أنّ الشخصين يسافران معاً من مرسيليا أو من كوستانزا أو من بروغز وذلك ليتعرّضا لشيء أقلّ من الخطر، وهكذا فهما يصلان معاً.

- لكنّ الرسائل الآن هي أكثر من اثنتين على ما فهمت.

- أجل يا صاحب السيادة، وكلّها موقّعة من قبل مصرفيّ مات في منتصف الصيف. وفلورنسا بعيدة وليس من السهل التحقّق من السجلّات. خاصّة أنّ المصرفيّ الذي وقّع هذه الرسائل قد مات قبل أشهر.

- مات؟ قال لودوفيكو وقد تصنّع المفاجأة.

- مات، أجل. هل تفهم قصدي؟

- أنت تخشى أن تكون هذه الرسائل مزوّرة.

- أكثر من خشية، يا صاحب السيادة. كما أنّ هذا هو أسوأ وقت لإدارة مثل هذه المخاطر. فأنا مخنوق بكثير من سحوبات الكمبيالات والقروض. كما أنّ...

- كما أنّ...؟

- كما أنّ سير ليوناردو دافنشي جاء في الساعة الثالثة إلى مكتبي، وهو صديق لي. نعرف بعضنا بعضاً من زمن فلورنسا، كنت حينها شابّاً وكان هو طفلاً، وعندما انتقلت إلى ميلانو كان هو من أوّل زملائي...

– أنا على قناعة أنّك أنت وسير ليوناردو على معرفة وثيقة بعضكما ببعض – قال لودوفيكو بلهجة جافّة، حتّى لو كان لديه انطباع ما بأنّ آتشيريتو أخذ يضخّم الأمر نوعاً ما. فهما لا يبدوان له شخصين متناغمين. ربّما في الماضي، أمّا الآن فلا.

– إذاً في هذا اليوم بالذات جاء ليوناردو إليّ وسألني ما إذا كنت قد تعاملت خلال تجربتي كمصرفيّ مع رسائل اعتماد مزيّفة. أي أنّه يخشى أن تكون قد وضعت من قبل شخص اسمه رامبالدو كيتي الذي كان تلميذاً في مرسمه، وقال ليوناردو إنّه كان قد طرده بعد أن شهد بعض مساوئه. وإذا فهمت الأمر جيّداً فإنّ كيتي هذا هو الشخص نفسه الذي تمّ العثور على جثّته في ساحة السلاح.

– نظر لودوفيكو إلى آتشيرّيتو من رأسه إلى أخمص قدميه. حتّى ذلك اليوم كان يرى أنّ مدير فرع ميلانو لبنك ميديشي يشبه الضفدع. لكنّ الضفادع يجب ألّا يكون هناك حراشف على أجسامها.

– ليست الساحة ساحتي، بل ساحة القلعة، والقلعة هي لإمارة ميلانو – قال لودوفيكو وهو يجيل النظر فيما حوله، أمّا فيما يتعلّق بالبقيّة فلا أستطيع أن أخفي عليك أنّ ما قلته صحيح.

– حسناً يا صاحب السيادة، لقد جئت لأقول لك هذا، لقد تجمّعت على طاولتي اليوم كثير من المصادفات وشعرت بواجبي في إبلاغك بها كما حدثت.

– أشكرك يا سير بورتيناري. – أومأ لودوفيكو بإشارة فضرب خادم بأصابعه على الباب، ففتح الباب من الخارج ودخل آمر القلعة. – انتظر يا آمر القلعة قبل أن تدخل الزائر المقبل. عمت مساء يا سير بورتيناري.

– فليحفظ الله سيادتك.

بينما كان آتشيرّيتو بورتيناري يتسلّل خارجاً، ضمّ لودوفيكو يديه ورفعهما إلى وجهه وبدأ في الفرك.

كان ليوناردو من فلورنسا، وكان بينشو سيرّيستوري من فلورنسا. وكذلك كان بنك ميديشي من فلورنسا. فمن كان سهلاً عليه أن يتدبّر رسالة اعتماد من مصرفيّ من فلورنسا؟ شخص له علاقة مستمرّة مع فلورنسا مثل ليوناردو. لكن.

لكن في الوقت نفسه، ليوناردو؟ فهل نحن نتكلّم عن الشخص نفسه؟ وهل يمكن للودوفيكو أن يرتكب مثل هذا الخطأ الشنيع بحقّه؟

رفع لودوفيكو بصره فتقاطع مع نظرات غالياتسو سانسيفيرينو.

يمكن لهذا أن يكون، على حدّ تعبير نظرات غالياتسو. لا أعتقد ذلك، لكن يمكن أن يكون.

– اذهب وابحث لي عن ليوناردو أيّها الكابتن، هل هذا يضايقك؟ – ثم قال بصوت مسموع: – لقد تمّ إيقاف جلسات الاستماع لهذا اليوم يا آمر القلعة.

– لكنّه بقي شخصان فقط يا صاحب السيادة.

– أخبرهما بالعودة غداً. سنعقد جلسة استثنائيّة لسماع الذين بقوا في الخارج.

– يقولون يا صاحب السيادة إنّه أمر مهمّ...

– كلّ شيء مهمّ بالنسبة لصاحب القضيّة، حتّى لو تعلّق الأمر بدخان مدخنة الجيران – أجاب لودوفيكو وهو ينهض ويجمع ثيابه حول ساقيه، ويلتفت. – أخبرهما بالعودة غداً، أو أن يذهبا إلى الشيطان.

– أخبرني بذلك بنفسك إذا كنت قادراً على ذلك – قال صوت لطيف، لكنّه حازم. كان صوت امرأة.

التفت لودوفيكو من جديد ورأى بين الأعيان بعض الاحمرار.

كانت تقف على العتبة بنبل وغطرسة، كانت تشيشيليا غالّيراني. وإلى جانبها كان ليوناردو دافنشي.

– أيّتها الكونتيسّة الغالية تشيشيليا، لماذا تأتين في زيارتي وتدخلين مع طلبة جلسات الاستماع؟

– لأنّي أتيت اليوم إلى جلسة الاستماع يا صاحب السيادة. – أجابت تشيشيليا وقد احمرّ خدّاها وضيّقت عينيها. – لقد أتيت إليك اليوم كشخص من ميلانو ومواطنة لدى دوق ميلانو ومن يمسك بمقاليد هذه المدينة. علينا أنا وسير ليوناردو أن نخبرك بأخبار ذات أهميّة بالغة حتّى تحلّ العدالة وتتجنّب هذه المدينة الخراب.

– ألهذا الحد؟ قال لودوفيكو وهو يحاول أن يتظاهر بالخفّة، من دون أن يفلح في هذا. فلكلّ كلمة وزنها، زائداً كان أو ناقصاً، بحسب قائلها، وكون الطرف الآخر هما ليوناردو وتشيشيليا غالّيراني لا يمكن أن يتركه غير مبال. خاصّة أنّ لذين الاثنين مخّاً أكبر من بقيّة أهل القلعة، بمن فيهم الحاضرون.

– ستحكم على ذلك بنفسك يا صاحب السيادة.

– حسناً. ثمّ التفت لودوفيكو نحو المستشارين، وقال: – إذاً بما أنّه عليّ أن أحكم على الأمر بنفسي، فأرجوكم أن تنصرفوا.

– فهمت – قال لودوفيكو ويداه مضمومتان، وأصابعه على شفتيه وعيناه مغمضتان، وهذا ما لم يحدث قط أمام الناس.

– إذاً يا لودوفيكو... أي يا صاحب السيادة – استأنفت تشيشيليا الحديث كما لو أنّها أحرجت لأنّها نادته باسمه – هل كنت على حق؟ هل كانت المسألة ذات أهميّة قصوى، أم لا؟

– أجل يا تشيشيليا. – وفتح لودوفيكو عينيه، فبدا أنّه أدرك هو أيضاً ولو بشيء من التأخير أنّ هناك في الغرفة ليوناردو أيضاً. – أجل يا كونتيسّة، هي كذلك، وكانت كذلك من قبل، لكنّها الآن أكثر. لكن يجب أن أدقّق، ما قلتما له معنى، وأوافق عليه، ومتّسق. لكن عليّ أن أرى إذا كان صحيحاً.

– لكنّ سيادتك...

– لقد تكلّمت معكما، وتكلّمت مع آتشيرّيتو في هذا اليوم بالذات.

عليّ الآن أن أقارن بين أقوالكم، وعليّ أن أفهم إذا كانت صحيحة. وأنت ابق يا ليوناردو في القلعة خلال هذه الأثناء. إذ ما زال عليك التزامات تجاهي، وإذا بقيت في القلعة فإنّك ستتجنّب شرود الذهن والتلهّي.

حنى ليوناردو رأسه وقد شعر بشيء من المرارة. وإذا كان القسم الأوّل من كلامه صحيحاً فإنّ القسم الثاني يبقى غامض المعنى. فهو يريد أن يتجنّب أن يتجوّل ليوناردو ويتّفق مع البعض أو أن يخفي شيئاً ما. فمن الواضح أنّه ما زال في ريبة منه.

- حسناً، هناك شخص أخير عليّ أن أتكلّم معه، ثمّ يمكن لي بعد ذلك اتّخاذ قرار معقول.

بعدها توجّه لودوفيكو نحو الباب.

فكّر ليوناردو: حسناً، كان هذا القرار صحيحاً. وفي الواقع، فإنّ هناك شخصاً لا بد من استجوابه في هذا الشأن.

قال لودوفيكو وهو يقرع على الباب: يا آمر القلعة!

انفتح الباب الثقيل فأطلّ على القاعة وجه بِرناردينو دا كورتِه الأصفر الممتقع.

- أرسل في طلب المعلّم آمبرودجو دا روزاتِه. إنّي بحاجة كي يستطلع لي النجوم.

لكن لم يكن هو الذي أفكّر به.

من مكتب جاكومو تروتّي

إلى إركولِه دي إيست، دوق فيرّارا، فيرِّه شيتو!

سيّدي المبجّل والمحترم

أرسل إليك يا صاحب السعادة آخر أخبار أحداث النهار والليل حتى تتمكّن من فهم أشياء جديدة ومدّي بنصائحك.

في الليلة الماضية تعرّض ليوناردو دا فينشي للهجوم بعد أن غادر قلعة

جيوفيو ومن ناحية المجمّع الجديد في آخر حيّ ماينو. فقد هاجمه رجلان مقنّعان وحاولا الاعتداء عليه بعنف.

وبينما كان ليوناردو المذكور يحاول الفرار، جاء شاب وصرخ كالشياطين، وبدأ يضرب بسيفه يمنة ويسرة. وجاء كذلك رجال آخرون من شارع كوزاني فضلاً عن رجلين آخرين مسلّحين بالسيوف والمطارق وصلا من جهة أخرى وخاصّة من منطقة نيرونِه، ودخل الجميع في عراك وضجيج ممّا دعا السكّان إلى العويل والصراخ بشكل لن أصفه لك.

في هذه الفوضى، جاء خدم ماينو وحاولوا إنهاء هذه المهزلة الكبيرة، حيث كان كلّ واحد يضرب على هواه بينما واجه سير ليوناردو صعوبة كبيرة في التخلص من هذا الاشتباك اللعين.

طلب من الشاب الذي صرخ أن يكشف عن نفسه، وعرفه ليوناردو على أنّه جاكومو كابروتّي المعروف بلقب سلاييّنو الذي كان متدرّباً في مرسمه. وقال اثنان من المسلّحين إنهما غراتزيانو وأوتّولينو وإنّهما يعملان في خدمة صاحب السيادة برناردينو دا كورتي آمر قلعة الدوق، الذي أكّد كلامهم. وانكشف اثنان آخران على أنّهما فرنسيّان وهما غوفريدو روبينوت وجوفريدو ماتينيه، وهما يعملان لدى دوق دي كومين. وفي النهاية، وهذا هو السبب الأساسي لمثل هذه الرسالة الملحّة، فقد قال اثنان آخران إنّهما فينيرو ديل بالزو وكوريولانو فيراري، وإنّهما مبعوثان من قبلك يا صاحب السيادة المبجّل دوق فيرارا.

ثار غضب الأزواج الثلاثة المسلّحين وبدأوا بإلقاء اللوم بعضهم على بعض في الاعتداء على المذكور سير ليوناردو، بينما أخذ سلاييّنو المذكور آنفاً يؤكّد بقوّة وبكلمات قذرة أنّ سيّده ومعلّمه قد تعرّض للاعتداء من قبل الفرنسيّين. وعندما سئل كيف تعرف عليهما فقال إنّ السبب في ذلك هو رائحتهما البشعة التي شمّها. وهذا ما تسبّب بمعركة أخرى، ما لبثت أن خمدت على الفور بتدخّل من قبل الحرس التسعة التابعين لصاحب السيادة المبجّل لودوفيكو الذين وصلوا في الحال. وقد

تمّ وضع جميع أولئك الأشخاص في سجن قلعة جيوفيو، لكن باستثناء ليوناردو وسالا بينو اللذين ذهبا إلى منزل ليوناردو.

إنّي أكتب إليك لأنّ صاحب السيادة لودوفيكو استدعاني هذا الصباح لإنهاء الخصومة ولتقديم الاثنين اللذيْن ادّعيا أنّهما مرسلان من قبلك إلى محكمتك يا صاحب السيادة.

وأقول اختصاراً إنّك قمت بإرسال جنود إلى ميلانو من دون أن تخبرني من ذلك بشيء، وهكذا فإنّه سيكون واجبي كالعادة إخراجك من بين الخراء. ومع ذلك فسيكون من المناسب أن تأتي إلى هنا أي إلى ميلانو، يا عزيزي إيركولِه دوق فيرّارا،

إلى من أعهد بنفسي دائماً إلى عطفه.
ميدولانو، 13 تشرين الأوّل 1493
خادمك جاكومو تروتّي

اثنا عشر

– السيّد جاكومو تروتّي، سفير صاحب السيادة المبجّل إركولِه دوق فيرّارا.

– أدخله، قال لودوفيكو من غير كثير رسميّات.

دخل تروتّي من غير هدر أيّ وقت، قبّعته في يده وخطّة عمل واضحة في رأسه.

كان لودوفيكو بانتظاره بهدوء ظاهريّ وهو جالس إلى مقعده وسط قاعة سكارليوني.

كما قال ليوناردو في معرض حديثه عن الرسم، فإنّه على الرسّام أن يرسم الشخص وأفكار ذهنه من خلال وضعيّة جسمه وحركاته. وهكذا، فإنّ رسم لودوفيكو وتقديم تعريف كامل بمقاصده، كان لا يتطلّب إلّا الانتباه إلى كيفيّة جلوسه.

فالجسم مستند تماماً إلى ظهر المقعد، الذقن مرفوعة والفكّان مطبقان، وراحتا اليدين مرتخيتان على ذراعي المقعد. ثمّ وكأنّ لودوفيكو يقول: هذا المكان لي. وكذلك الكرسيّ والقاعة والمدينة بأكملها من حولي. أنا السيّد هنا، وهذا ليس محلّ شكّ. وإذا تحدّثنا الآن ووضّحنا الأمور، ولن يكون هذا أمراً سهلاً، فإنّه عليك ألّا تنسى هذه الحقيقة أثناء مناقشاتنا. أو؟ لكن ليس هناك من أو، بل إنّي لا أتواضع كي أفكّر في خيار «أو». أنا هنا الآمر الناهي. لا تنسَ ذلك. نقطة وكفى.

– جئتك بتحيّاتي واحترامي يا صاحب السيادة – قال جاكومو تروتّي وهو يدخل.

- يا للأسف.

- ماذا، عفواً؟

- يا للأسف. - كرّر لودوفيكو القول من غير أن ينهض عن مقعده - كنت أرجو أن تأتيني بمعذرة من صهري أركولِه لأنّه أرسل عساكره إلى المدينة التي أديرها وأحكمها، ومن غير أن يطلب منّي إذناً بذلك.

فرك جاكومو تروتّي يديه خلف ظهره. فالوضع ليس من أفضل الأوضاع. فهناك إركولِه من جهة ولودوفيكو من جهة أخرى، وهناك بينهما أوامر محدّدة يجب نقلها. لذلك فقد كان عليه أن يكون مثل الصمغ والغراء: أي أن يتسلّل كالسائل بين الجانبين، وأن يتكيّف مع طرفيّهما بينما هما يعضّان عليه ويسحقانه، ثمّ، ثمّ عليه أن يجفّ وهو ثابت في مكانه، قبل أن يجبر الجانبين على الاعتراف به على أنّه الحلّ الوحيد الممكن.

- الحق معك، كلّ الحقّ يا صاحب السيادة. فالثقة المتبادلة بين الأقارب، وخاصّة إذا كانوا من أصحاب السلطة، يجب أن تكون في المكان الأوّل. ولا يسعني سوى أن أقول إنّ سلوك سيّدي المبجّل كان من أجل الخير وإنّه اتخذ الإجراءات نفسها التي اتخذتها يا صاحب السيادة المبجّل.

- لا أفهم. ما هي الإجراءات التي اتّخذتها أنا؟

- وضعت رجلين في حماية سير ليوناردو دافنشي، تماماً مثلما فعل سيّدي.

- أنت على خطأ يا سير جاكومو. فالحارسان تدخّلا من موقع دوريّتهما في حراسة القلعة، وذلك بعد أن سمعا الصخب والضجيج من شوارع ميلانو.

- إذاً يمكن لي أن أقترح على سيادتك أن تستعمل هذين السيّدين إذا نشبت الحرب وتمنحهما مهمّة السعاة والرسل. إذ يبدو أنّهما قادران على

الجري السريع بما أنّهما تمكّنا من قطع المسافة بين القلعة وآخر الطريق والوصول إلى هناك قبل رجال إركولِه.

- ماذا تعني؟

أخذ جاكومو تروتّي نفساً عميقاً. فلم يكن من السهل ولا من المفيد أن يحاول المرء أن يظهر لرجل قويّ أنّه على خطأ يتجاوز كلّ الشكوك المعقولة.

- إنّي أفترض يا صاحب السيادة أن التعليمات التي حصل عليها رجال سيّدي تقضي بتقديم الحماية لسير ليوناردو ولهذا فقد لحقوا به بأدب وعلى بعد خطوات منه في محاولة ألّا ينكشفوا. ومع هذا فقد وصل جنودك إلى مكان الاعتداء قبل جنود فيرّارا.

- هل أنت تفترض؟

رفع تروتي نظره إلى أعلى. لقد حان الوقت ليلعب بكلّ أوراقه بطريقة All-in [21]، كما قد يقول لاعبو بوكر تكساس لو حضروا هذا المشهد - وهذا أمر غير مرجّح، لأنّ أمريكا لم تكتشف إلّا قبل عام فقط، وفي تلك الأشهر كان أولئك الغزاة منشغلين بأمور أخرى مثل إبادة السكّان الأصليّين، ولا وقت لديهم لاختراع ألعاب الورق.

- أنا متأكّد يا صاحب السيادة أنّ إركولِه كان يرمي إلى حماية سير ليوناردو، بعد أن أخبرته أنا بالمشروع السرّي الذي تعملون عليه.

- المشروع السرّيّ؟

- سَمِّه كما تشاء. لكنّه هو السبب الذي كان يحمل ليوناردو على الخروج في الليل، كلّ ليلة، ليذهب إلى القلعة في الخفاء. السبب الذي وضعه في خطر، حتّى إنّ ذلك الفتى الذي يسمّيه هو سالاي، كان يتبعه مسلّحاً. وحتّى إنّك قرّرت أنت بالذات أن تضعه تحت حمايتك. وهكذا فإنّ إركولِه أيضاً، وبعد أن قرأ رسائلي، قرّر أيضاً وضعه تحت الحماية.

21- اللعب بطريقة All-in في البوكر تعني لعب كلّ الأوراق دفعة واحدة.

نظر لودوفيكو إلى تروتّي بوجه من حجارة.

– كان لديّ أسباب وجيهة لوضع سير ليوناردو تحت الحراسة، وقد رأيتَ أنّ ذلك لم يكن جزافاً. لقد تعرّض سير ليوناردو للهجوم في هذه الليلة، لكنّ العمل الذي يقوم به من أجلي هو شيء بيني وبينه، ولا علاقة له بالأمر.

– وكيف يمكن لك أن تعرف هذا؟

– لأنّها مسألة لا تهمّ أحداً من خارج القلعة.

حاول تروتّي أن يلجم نفسه، لكنّه لا يحبّ أن يُعتبر أحمق.

– أستميحك عذراً يا صاحب السيادة، لكنّ المسألة في غاية الأهميّة. إنّي أفهم رغبتك في الحفاظ على سرّيّة المسألة، لكنّ هذا لن يدوم طويلاً بالتأكيد. ولابدّ أن يفهم الناس الأمر قريباً. سيفهمون ذلك وسيتصرّفون تبعاً لذلك. وبوسعك أن تخمّن، أنّي لا أستطيع أن أبقي هذا الاكتشاف سرّاً عن سيّدي. ففي فيرّارا، كما هو الحال في بقيّة أنحاء أوروبّا، سيكون ردّ الفعل بمنزلة اضطراب كبير.

جاء الآن دور لودوفيكو لينظر إلى تروتّي كأنّه أصبح أحمق.

– في فيرّارا حتماً أيّها السفير. لكنّي لا أفهم بصراحة ما دخل بقيّة أوروبّا.

– هل تريد ربّما أن تنكر أنّ ليوناردو دافنشي اكتشف طريقة لتحويل المعدن الحقير إلى ذهب؟

التزم لودوفيكو الصمت للحظة. واحمرّ وجهه.

ثمّ انفجر في الضحك.

ضحك حتّى بطنه، مثل طفل يرى رجلاً يتزحلق على الجليد ويقع أو امرأة تقوم بستّ وعشرين مناورة لتتمكّن من توقيف سيّارتها الصغيرة في مكان يتّسع لسيّارتين.

ضحك دوق باري وزعيم ميلانو ضحكة قويّة كأنّها بداية بكاء.

بينما بقي تروتّي صامتاً وجامداً بل ومتضايقاً بعض الشيء.

– اعذرني يا سير تروتّي، لكن مرّت عليّ أيّام صعبة ولابدّ أنّ التوتّرات تراكمت فوقي مثل القوس والنشّاب عندما يتمّ ربطه، وقد قمت أنت بتحريك الزناد.

أخذ لودوفيكو نفساً عميقاً وهو يجفّف دمعة لكنّه بقي على صرامته.

– لا، أيّها السير السفير، معك حق ويجب عليّ أن أقدّم توضيحاً. إنّ ليوناردو يعمل من أجلي، هذا صحيح. هل يمكنك أن تحتفظ بسرّ؟

– إنّي سفير يا صاحب السيادة، ومهنتي هي كتم الأسرار.

– قد لا يكون هذا سهلاً عليك، لكنّه ضروريّ. وقد رأيتَ أنّي سبق لي أن أسررت إليك أنّ النساء الحوامل لا يثرنني.

– النساء الحوامل يجعلنني أشعر بالاشمئزاز، هذا ما قلته لي يا صاحب السيادة.

نظر لودوفيكو إلى تروتّي نظرة من يشارك في مؤامرة وقال له: – أجل، أجل. فعندما كانت حاملاً زوجتي المحبوبة صاحبة السيادة ابنة سيّدك، كان عليّ أنّ أبحث عن اللهو وأتلهّى مع إحدى وصيفاتها. فأنت تعلم أنّ الرجال يحتاجون إلى التنفيس عن أنفسهم.

– مفهوم. – أجاب تروتّي الذي كان له من العمر سبعون سنة ولذلك فإنّه كان يتذكّر الأمور بصورة غامضة أكثر ممّا يتفهمّها.

– ومن هي تلك الوصيفة، إذا كنت أستطيع أن...

– لوكريتسيا، لوكريتسيا كريفيلّي.

– هل هي تلك الوصيفة ذات الشعر البنّي والمظهر المبتذل إلى حدّ ما؟

ابتسم إيل مورو. أيّها الثعلب العجوز، إنّك تجد العنب عالياً أكثر ممّا ينبغي، أليس صحيحاً؟

– قد تكون أنت المبتذل نوعاً ما أيّها السفير. أمّا أنا فأجد لوكريتسيا

مثيرة جدّاً. حتّى سير ليوناردو متّفق معي على هذا، بل إنّه قَبِل أن يرسم لها صورة.

– هه.

– بالفعل. لهذا كان ليوناردو كثيراً ما يأتي خلال الليل إلى القلعة. لم يكن بوسعه حتماً أن يرسم الوصيفة خلال النهار، فقد تكون وقتها منكبّة على الحديث مع زوجتي، ألا ترى ذلك؟ نهض لودوفيكو عن مقعده وعرض على تروتّي طوله البالغ متراً وتسعين ليريه بوضوح من هو صاحب السموّ بين الاثنين.

– هل يمكن لي أيّها السفير أن أعوّل على حسن تقديرك؟

– ولا حتّى بالأحلام أيّها الشرّير القبيح!

أصابت لودوفيكو الصعقة من شدّة الدهشة.

ليس حتماً لأنّه يمكن لتروتّي أن يقول ذلك الكلام، بما أنّه لم يقلها ولا يمكن له أبداً ثمّ أبداً أن يتفوّه بها. لا، لكنّ لودوفيكو اضطرب لأنّ تلك الكلمات قد سبقتها جلجلة صمّاء وبريق ضوء مفاجئ، كما لو أنّ شخصاً رمى من الخارج بمجمر على الستائر التي تمنع الرياح عن النوافذ فنزعها عنها وسط صخب كقرقعة البرونز.

وهذا ما حصل بالفعل.

إذ برزت بياتريشِه دي إيست بهيئتها النبيلة المتغطرسة ضمن الإطار المضيء للنافذة التي تعرّت عن حمايتها المبهمة، أطّلت كأنّها رأس جاموس من شدّة توتّرها وغضبها.

– يا زوجتي المحبوبة...

– زوجتي المحبوبة بالكلام! لقد اختبأت هنا لأتنصّت عليك، لأنّي على قناعة أنّك كنت ستقول للسفير أنّك ستعيّن أبي قائداً للجيش. لكنّي اكتشفت أنّك ركّبت لي قرنين بخديعتك! وهل تسرّ بذلك إلى سفير أبي بالذات، أيّها القبيح الـ...

– اسمعي يا بياتريشِه، أظنّ أنّه ليس من المناسب عرض هذا المشهد أمام الجميع.

حاول لودوفيكو أن يتّخذ مظهراً من التجرّد المهذّب، مثل قطّ حاول الاصطياد ثمّ وثب عن الطاولة وقعد متظاهراً أنّه لم يفعل شيئاً، كما حاول أن يستجمع جميع أرباع مرتبة نبله الحديثة لكن المهمّة. ويا للأسف، فحتّى لو كان بوسع مرتبة نبيلة وتربية حقّة أن تمنعا من يملكهما من الصراخ، فإنّه لا يمكن لهما أن تكمّما بعض الآخرين.

– آه، ليس من المناسب إذاً؟ ليس من المناسب أن أبدأ بالصراخ أمام الجميع، بينما يمكن لك أن تجامع الخادمة بكلّ اطمئنان، بل وأن تذهب لتحكي كلّ هذه الأمور في كلّ مكان؟ أن أزعق أنا فهذا عمل قبيح، بينما لا غبار على أن تحمل منك تلك العاهرة؟ ما هي هذه الأخلاق التي تتحلّون بها؟

– لكن، اسمعي يا بياتريشِه، أنت دوقة باري، ولا يمكن لك...

لكنّ بياتريشِه بادلت من جديد هدوءه بضجيجها.

– لقد أنصتّ أكثر من اللازم! ألم تكن أختي نبيلةً بما فيه الكفاية بالنسبة إلى صاحبك ليوناردو دافنشي كي يرسم لها صورة؟ وهل إيزابيلّا ابنة إركولِه دي إيست ليست موضوعاً مهمّاً بالنسبة إليه، بينما ترى أنّه يركض ليحضر ريشته ما إن يجتمع بواحدة من عاهراتك؟

أخذت بياتريشِه نفساً عميقاً وعنيفاً. – أمّا ماذا بوسعي أن أفعل، فإنّي سأبدأ في الحال ترتيبات عودتي إلى فيرّارا.

وهنا تدخّل تروتّي وحاول أن يقول بلهجة معسولة: – إذا كان بوسعي أن أقدّم نصيحة يا صاحبة السيادة، فإنّه من غير المناسب الذهاب إلى فيرّارا في وقت مثل هذا الوقت.

التفتت بياتريشِه نحو تروتّي كما لو أنّها لم تره إلّا في تلك اللحظة.

– أنا التي أستطيع هذه المرّة أن أنصحك يا سير جاكومو وأن أقول لك إلى أين عليك أن تذهب.

- أشكرك يا سيّدتي لكنّي أفضّل البقاء هنا.

التفتت بياتريشِه والتفّت معها ثيابها وتنانيرها، ثمّ انصرفت.

بقي لودوفيكو يراقب للحظة زوجته وهي تخرج، تسير ببطء ثمّ وهي تخفي بعد قليل وجهها بين يديها، كما لو أنّها تنظر إلى شيء ثمين مكسور ومطروح على الأرض. ثمّ حوّل وجهه ببطء عن النافذة وعاد نحو مقعده حسير البصر، ويبدو في الظاهر أنّه هادئ ومنفصل عمّا حدث. ثمّ قال وهو يجلس على مقعده: - حسناً أيّها السفير. في الساعة الثالثة بدأ يومي بهجوم على أهمّ مهندس وفنّان عندي، واستمرّ بخطأ دبلوماسي ثمّ بإهانة زوجتي لي أمام سفير والد زوجتي. لكن لنحاول الآن أن نعيد الأمور إلى المسار الصحيح.

- لابد أنّ الأسوأ قد انقضى الآن يا صاحب السيادة.

- أعرف بالتجربة أنّ موت المرتزق الأوّل بوباء الطاعون هو طاعون في حدّ ذاته. إنّي بحاجة إلى شخص ما يعرف أن يقدّم لي النصح، علماً أنّ المعلم آمبرودجو قد تنبّأ لي بيوم مفعم بالنجاح.

فأجاب تروتّي بلهجة الحكيم: - إنّ اليوم لم ينقضِ بعدُ يا صاحب السيادة.

- معك حق يا سير جاكومو. ماذا هناك؟

أعلن بِرناردينو دا كورتِه بصوت مرتجف: - دوق دي كومين والسيّد بيرون دو باش يطلبان مقابلتك يا صاحب السيادة.

اختصر لودوفيكو الأمر وقال: - ليس هذا وقتاً مناسباً.

لكنّ آمر القلعة نظر إلى يساره نظرة خوف فيها شيء من الاشمئزاز أيضاً: - إذا كان لي أن أتجرّأ فأعتقد أنّه من المناسب استقبالهما يا صاحب السيادة.

- حسناً، أدخلهما إذاً.

توضّحت هيئة دوق كومين على الباب لكنّه بقي واقفاً على العتبة.

– احترامي أيّها الدوق، أرجوك تفضّل. أريد أن أتكلّم إليك.

– أنا أيضاً أريد أن أتكلّم إليك يا صاحب السيادة. قال الدوق وهو يمدّ ذراعه نحو اليسار ليتناول شيئاً من خلف الباب: – كنت أريد أن أكلّمك عن هذا.

دخل الدوق إلى القاعة بعد أن تناول الشيء المذكور، وأمسك به بيده وأخذ يجرّه على الأرض، بينما كان بِرناردينو دا كورتِه يراقب المشهد بعين مشمئزّة أكثر ممّا هي خائفة.

كان جاكومو تروتّي على حقّ، فاليوم لم ينقض بعد.

أستميح الآن العذر من القرّاء، لكنّ الواجب التاريخيّ يحتّم على أن أكون دقيقاً، حتّى لو كان المشهد الذي سيوصف لكم الآن لن يبدو أنّه قابل للتصديق، فضلاً عن أنّه مقرف نوعاً ما.

فالشيء الذي كان دوق كومين يجرّه كان في الواقع قزماً مغطّى بالغائط.

– أريد أن تفسّر لي هذا الأمر – كرّر دوق كومين وهو يسحب بكلّ معنى الكلمة القزم نحو إيل مورو، فانجرّ القزم على الأرض تاركاً وراءه علامة على كبح انجراره.

تابع لودوفيكو بعينيه وصول القزم. ولم يكن أيّ قزم، بل قزم من معارفنا القدامى، أي ذلك العجوز الطيّب كاتروتسو الذي أدّى في الليلة الأولى العروض أمام سفيري شارلز الثامن.

كان قزماً يجيد الفرنسيّة، كما طلب لودوفيكو من غالياتسو سانسيفيرينو. وهما صفتان ضروريّتان للتمركز داخل الساق الواسعة التي تسند الطاولة في قاعة السفراء، والتي كتب عليها بأحرف لاتينيّة: HERCULES DUX FERRARIÆ ECCETERA ECCETERA وذلك ليتمكّن من الاستماع دون إزعاج إلى أحاديث المندوبين الفرنسيّين ومعاونيهما.

وكان لودوفيكو يقوم بهذا العمل بشكل معتاد مع الممثّلين

الدبلوماسيّين القادمين من مختلف المدن الإيطاليّة، أي أنّه كان يقحم قزماً داخل التجويف الخشبيّ، ثمّ يخرجه بعد ذلك خفية ليقصّ عليه ما يسمع من الأحاديث الخاصّة - أو التي يعتبرها نفسه كذلك - ويدفع له أجره بطرق مختلفة.

وكان لودوفيكو قد كافأ القزم في اليوم السابق، بعد أن استمع منه إلى تقرير عن أحاديث الفرنسيّين التي سمعها من موقع تجسّسه، بأن أرسله إلى المطبخ مع بطاقة بيضاء للطبّاخين. لذلك فما لبث كاتروتسو الطيّب أن ملأ بطنه بشراب الخوخ، والتين المجفّف، والتمور وغيرها من الأطعمة الشهيّة القادرة على إعلان الحرب على الأمعاء الغليظة. لهذا فما إن عاد إلى عمله في الصباح ودخل ضمن ساق الطاولة، حتّى بدأ يعاني من إزعاج بسيط في البطن تحوّل بعد ذلك إلى ألم فظيع، وهكذا فما بدا أنّه مجرّد انتفاخ غير ضار تحوّل إلى كارثة حقيقية.

عندما شمّ السفيران الرائحة الكريهة نظر كلّ منهما إلى الآخر بارتياب، لكن ما إن تأكّدا أنّ أحدهما لا يعاني من أيّ مشكلة، لم يكن صعباً عليهما تتبّع منشأ الإشارة. لذلك ما إن تحقّقا من وجود كائن بشريّ بعد أن غرزا سيخاً في المكان وسمعا الصراخ، سحب الاثنان ذلك البائس كاتروتسو من قدمه، لكن ليس بعد معركة حامية الوطيس وملوّثة أيضاً بالقذارة.

- سأفسّر لك الأمر في الحال أيّها الدوق - قال لودوفيكو وهو يشير إلى كاتروتسو الذي كان ملقيّاً على الأرض، جامداً لكن وهو يرتجف. - يبدو من الواضح أنّي لم أكن أثق بكما.

نهض لودوفيكو عن المقعد واستعرض مرّة أخرى كلّ طوله.

- لم أكن أثق بكما وكنت على حقّ، هذا إذا حكمنا على أنّ البعض كان يفكّر أن يسرق من ليوناردو دافنشي، أي من المهندس الذي يعمل لمصلحتي، بعض كتاباته الخاصّة.

- لم يتخيّل أحد أن يفعل مثل هذا قط. - قال بيرون دو باش بلهجة المتنطّع. - لابدّ أنّ القزم أساء الفهم.

- أخبرني إذاً أين هما مساعداكما.

نظر الفرنسيّان - أي الفرنسيّ الحقيقيّ والفرنسيّ المكتسب -بعضهما إلى بعض. وعندما وجد تروتّي أنّه لم يكن من الواضح من منهما سيجيب، عرف أنّ هذا لا يدلّ على خير لهما.

- من منهما، روبينوت أو ماتّينيه؟ سأل دوق دي كومين - لم يعودا بعد، لابدّ أنّهما تسكّعا طويلاً خلال الليل. بل علينا أن نأمل ألّا يكونا قد تدخّلا في بعض المشاكل.

- على الإطلاق. إنّهما في أمان في قبو زنزانة مريحة ودافئة.

سمّر بيرون دي باش وكومين عيونهما في وجه لودوفيكو.

فواصل إيل مورو حديثه بهدوء: - لقد تمّ اعتقالهما، بعد أن حاولا الاعتداء على ليوناردو في مدينتي وعلى بعد خطوات من قلعتي، وحاولا أن ينزعا منه شيئاً كان معه. مفكّرته على ما أظنّ. ولم يكن إلّا بفضل تدخّل حرس ليوناردو الشخصيّ واثنين آخرين من حرسي المدربين تدريباً خاصّاً...

وهنا سعل تروتّي ليخفي ضحكته.

...أن حال دون وقوع ليوناردو ضحيّة ذلك الاعتداء.

بدأ الفرنسيّان الآن تجنّب النظر حتّى فيما بينهما. مرّت لحظات من الصمت الثقيل والمفعم بروائح كريهة، بما أنّ كاتروتسو بقي في المكان الذي رمياه فيه.

فقال دوق دي كومين بلهجة حاول أن تكون على أشدّ ما يمكن من النبل والاحترام: - إنّك تدرك يا صاحب السيادة أنّه عليّ أن أتشاور مع مبعوثي.

فأجاب إيل مورو برصانة: - أنا متّفق معك كلّ الاتّفاق. لكنّي أرى أنّه من المناسب لنا جميعاً أن تفعل ذلك خارج أسوار هذه القلعة.

خارج سور القلعة على وجه التقريب، هل فهمت يا كاترينا؟ لكنّ

اللعينين لم يكادا يلمسانه حتّى جثتهما في الحال، وكنت على مقربة عشر خطوات منه. كانا اثنين، لكن لم يكونا يتوقّعان ذلك. ضربت الأوّل بغمد السيف هنا على الرقبة - وأشار سالاي إلى رقبته وهو يمثّل القيام بضربة قاصمة بيدين تحملان سلاحاً وهميّاً. أمّا الثاني فقد أخذ الغمد وسحب السيف منه. كان أكبر منّي وأقوى. لكنّي تحوّلت عندها إلى عنزة مثل اسمي وأعطيته برأسي على بطنه...

-...تقصد أنّك نطحته برأسك على بطنه - قالت كاترينا وهي تنزع الخرقة المبلّلة عن رأس ليوناردو وتضع أخرى جديدة مشرّبة بالماء المثلّج.

كان ليوناردو يلتزم الصمت وهو ممدّد على سريره وعيناه مغلقتان. لم يكن ذلك الذي انقضى يوماً سهلاً عليه. أما الآن وهو في بيته وعلى مضجعه، فإنّ الشيء الوحيد الذي قد يرغب به هو شيء من الطمأنينة والسلام.

- لا عليك، المهمّ أنّه تلقّى الضربة. ولابدّ أنّه اضطر بعدها لتقيّؤ حتّى الحليب الذي رضعه من أمّه. وماذا حدث بعد ذلك...

هنا طلب ليوناردو بصوت خافت لكنّه حازم: - أرجوك يا جاكومو، لقد كنت هناك أنا أيضاً هذه الليلة، قد يكون قد ضربك، لكنّي أنا الذي تلقّيت ضرباته، فلنكفّ عن الحديث بالأمر، أرجوك.

- على كلّ ما إن وصل الحرس، لو ترين المعمعة التي حصلت! كان الجميع يضرب الجميع، وصراخ وزعيق. انتبه! قف أنت هناك! أيّها العاطل! لكن إن لم أكن هناك...

فقالت كاترينا وهي تسند يدها إلى جبهة ابنها: - بالفعل يا جاكوميتّو لو لم تكن هناك لانتهت الأمور على أسوأ ما يكون.

لكنّ تزانينو تدخّل وقال: - لو كان هناك ضوء يا جاكّوميتّو لكنت قد تلقّيت ضربات كثيرة وبأعداد إذا أردت أن تعدّها بالأرقام الرومانيّة لتوجّب عليك أن تصرخ يا أمّي. أنت لست إلّا فتى، وأولئك الآخرون جنود.

كان تزانين ودا فيرّارا اثنين من تلامذة ليوناردو الكثر الذين ما إن

سمعوا بخبر المصيبة حتّى تركوا المرسم والمحلّ وأسرعوا إلى البيت ليطمئنّوا على صحّة المعلّم.

– لكن لو أنّك لم ترجع أيّها المعلّم في تلك الساعة المتأخّرة من القلعة، فلربّما لم يكن لأحد أن يعتدي عليك. قال جوليو الألمانيّ الذي كان آخر من وصل إلى بيت ليوناردو.

كان هذا رجلاً ملتحياً كان قد جاء إلى بيت المعلّم قائلاً إنّه أتى ليخدم وليتعلّم. فسأله ليوناردو وقتها: وماذا تعرف أن تصنع؟ فأجاب الرجل:

– إنّي أعمل بالحديد على النار وأطرق الهواء بيدين سوداوين. والواقع أنّ ليوناردو كان يحتاج مثل حاجته إلى الهواء إلى حدّادين أو أشخاص يعرفون دقائق العمل بالمعادن. لكن هيّا، تعال يا جوليو الألمانيّ، فإن لم يكن هناك مَن لا غنى عنه، فإنّ الجميع مفيدون.

فأجاب تزانينو بجفاء: – كان المعلمّ يشتغل ولم يكن يتسلّى. كما أنّ هذا الملتحي الخشن لم يرُق له منذ وصوله. رغم أنّ ليوناردو أدخل إلى منزله خبير المعادن ذلك. لقد كان هو هناك فضلاً عن المعلّم أنتونيو وسانغالّو لحين الحاجة، فمن يدري ماذا يريد المعلّم أن يفعل بهذا المتوحّش.

علّق جوليو ذو الأقوال الألمانيّة حتّى في المضمون، وقال: – العمل في النهار، والليل هو للنوم.

فقال سالاي وقد سرّ لأنّه يستطيع أن يصلّح أقوال الآخرين هو أيضاً:

– هذا إذا كان ينام، كما أنّك تعلم أنّ المعلّم ينام ويعمل على مزاجه. فهو يذهب إلى سريره لساعة عندما يريد ذلك، ثمّ تراه يعمل لأربع ساعات.

– لا أحد مثلك يعلم يا جاكّومينو متى يذهب المعلّم إلى سريره، أليس كذلك؟

– اسمع يا خبير معادن خصيتي، إذا أردت أن تعرف كم هو قاس حديد سيفي فما عليك إلّا أن تواصل كلامك بهذه الطريقة...!

– كفى!

نهض ليوناردو من سريره كالنابض، فطارت بسرعة من النافذة الخرقة

المبلّلة التي كانت على رأسه. منظر غريب لو حدث في ظروف أخرى لكان منظراً مضحكاً، لكن لم يكن هناك الآن شيء يثير الضحك.

وأردف ليوناردو وهو ينهض: - كفى بحقّ يسوع المقدّس! فالتزم الجميع الصمت في الحال.

من المعروف أنّ ليوناردو كان طيّب القلب، وكان لا يغضب إلّا نادراً مثل جميع طيّبي القلوب. لكنّه عندما يغضب بالفعل فإنّه كان يثير الخوف.

طرق بعضهم الباب في الأسفل، فانتهزت كاترينا الفرصة لتذهب وترى من الطارق. بينما كان عقل ليوناردو قد طار بالفعل.

- لقد أدانوني، أحبطوني، هاجموني، والآن لا أستطيع أن أستريح حتّى في بيتي! إلى الخارج!

- العفو أيّها المعلّم إذا...

- اخرجوا! اخرجوا، بحقّ الله!

سمع صوت كاترينا من الأسفل:

- ليوناردو هناك زوّار...

- آخرون أيضاً؟ صاح ليوناردو بعدما كان قد خرج عن طوره، ثمّ توجّه نحو باب الغرفة: - من الذي يريد الآن تفقيس البيض؟

نظر إلى الأسفل من فوق الدرابزين الخشبيّ المواجه للغرفة ونظر إلى الأسفل نظرة تهديدٍ من لا يمكن له أن يتحمّل المزيد.

لكنّه تمكّن للمرّة الأولى في حياته من رؤية لودوفيكو إيل مورو من الأعلى إلى الأسفل.

- المعذرة يا صاحب السيادة، لم أكن لأجرؤ البتّة على أن أوجّه لسيادتك مثل هذه الكلمات المسيئة.

أغلق لودوفيكو وراءه باب الغرفة، وكاد رأسه يلامس سقفها. بعد أن نظر فيما حوله، أخذ الكرسيّ الوحيد في الغرفة واستراح عليه.

- لن ننظر إلى الشكليّات يا ليوناردو، بل إلى الجوهر. لقد جئت إليك بطلب.

مكتبة
t.me/soramnqraa

كان ليوناردو قد عاد وجلس على سريره، ولم ينبس ببنت شفة.

- جئتك كزعيم لإمارة ميلانو وليس كمتعهّد لأعمالك، وسأطلب طلباً يمكن لك أن تقبل به أو أن ترفضه.

ابتسم ليوناردو، لكنّ نفَسه ارتفع من بطنه إلى صدره. فأقواله لا تحمل معاني القبلة على الرقبة، بل هي مثل صابون يدهن به حبل المشنقة.

- لكن إذا رفضت فإنّك تشير إليّ بأنّك لا تبادل ثقتي بك. لقد هاجمك هذه الليلة عسس سفير فرنسا. فهل تعلم لماذا حاولوا الاعتداء عليك؟

- أجل يا صاحب السيادة. أظنّ أنّي أعرف، كانوا يريدون أخذ مفكّرتي.

- كانوا يريدون أخذ مفكّرتك.

- أجل يا صاحب السيادة، وكان قد سبق لهم أن قاموا في الأيّام الماضية بمحاولة خرقاء، بل وهناك ما يحملني الآن على الظنّ بأنّهم قاموا بمحاولة أخرى أيضاً.

- ولماذا هم يريدون تلك المفكّرة؟ ما هي أهميّة تلك المفكّرة اللعينة؟ ماذا كتبت فيها؟

- لا شيء يهمّ الآخرين، بل يهمّني وحدي.

- إذاً لماذا يريد الآخرون وضع أيديهم عليها؟

- هذا سؤال محرج يا صاحب السيادة، لأنّي لا أستطيع معرفة ماذا يدور في رؤوس الآخرين.

- معك حقّ يا ليوناردو. سأخبرك أنا إذاً بهذا. إنّ سفراء فرنسا الذين عيّنهم لويس دوق أورليانز يظنّون أنّك تخفي في مفكّرتك تصاميم بعض الأسلحة السرّيّة، مثل جسم آليّ عسكريّ قادر على الدفاع عن حدود المدينة.

فابتسم ليوناردو وهو يهزّ رأسه.

- كما أنّ جاكومو تروتّي سفير فيرّارا يرى أنّ فيها أسرار تحويل المعادن إلى ذهب، وأنّ هذا هو سبب ثراء هذه الإمارة.

ضحك ليوناردو هذه المرّة ولكن من قلبه.

– إنّ تحويل المعدن الخسيس إلى ذهب هو أمر، يا صاحب السيادة، لم أحلم قط بإهدار وقتي فيه. لقد فهمت منذ فترة طويلة أنّ ذلك السعي الحثيث وأحلام الملك ميداس[22] ليست إلّا قصصاً خرافيّة للأطفال لا أهتمّ بها. وهنا حاول ليوناردو تعديل جلسته على السرير، في محاولة لتخفيف انزعاجه. لكنّي أهتمّ بالفعل بما تفكر أنت به يا صاحب السيادة. فماذا يمكن أن أكون قد كتبت بحسب رأيك في مفكّرتي ودفتر ملاحظاتي الشخصيّ هذا؟

– هذا هو سبب مجيئي إليك يا ليوناردو. لأنّ ما أراه لا يشرّفني إذا كان غير صحيح، لكن إذا كان صحيحاً فهو يسيء إليك بصورة كبيرة. لا أريد أن أخبرك به، لكنّي أريد أن تعرضه عليّ.

– سأعرضه على سيادتك وعلى سيادتك فحسب، إذا سمحت يا صاحب السيادة أن تعرض عليّ ماذا تتوقّع أن ترى فيه أو ماذا ترجو ألّا تجد فيه.

نظر لودوفيكو نحو النافذة، وتكلّم بصوت هادئ كأنّه يتمتم.

– أتمنّى ألا أجد رسالة اعتماد أو أكثر بتوقيع بينشو سيرّوستوري أو غيره من مصرفيّين آخرين من فلورنسا، تكون أنت أو غيرك قادرين على استخدامها في مرسمك من أجل تزييف رسائل جديدة.

بقي ليوناردو جامداً للحظة. ثمّ سحب ببطء رباط سترته الجلديّ وحلّ قفله. ثمّ أدخل ببطء مماثل يده بين ثوبه وجسمه وسحبها وفي يده دفتر صغير ثخين مليء بأوراق اصفرّ كثير منها.

– هذا ما طلبته يا صاحب السيادة.

لكنّ ليوناردو حرّك صوته ثانية قبل أن يتمكّن ذاك من فتحه.

22– الملك ميداس King Midas من الأساطير الإغريقيّة القائلة إنّه ملك ذو قدرة على تحويل أي شيء يلمسه إلى ذهب. والاسم موجود لدى العديد من ملوك الفرنجة. (م) عن ويكيبيديا.

– لقد طلبت منّي هذه المفكّرة كزعيم لميلانو وليس كمقاول متعهّد لأشغالي. لقد قمت بتمييز هامّ، وأنا أنوي أن أتبنّى هذا قبل أن تبدأ في القراءة.

لمس ليوناردو المفكّرة وهي بين يدي لودوفيكو، بلطف ولكن بقلق، وكأنّه أمّ تغطّي مولودها الجديد وهو في أحضان عمّته العانس.

– لقد استقبلتني كزعيم لميلانو، كما رحبّت بي كمقاول ووثقت بي بعد أن قرأت رسالتي. لقد وثقت بي بعد أن قرأت الأشياء التي كتبتها لك. أمّا الآن فإنّك تشكّ فيّ قبل قراءة الأشياء التي كتبتها لنفسي.

أراح ليوناردو يديه على مضجعه ونهض على قدميه مقابل إيل مورو.

– إنّي كمواطن على ثقة يا صاحب السيادة أنّك عادل في إدارة العدالة وفي الاعتراف لكلّ شخص بفضائله ورذائله بطريقة موضوعيّة. كما أنّي كفنّان أشعر يا لودوفيكو أنّك تعرف أنّي رجل حرّ، وأنّي مرتبط بمقاولي مادام يقرّ بإمكانيّاتي بل مادام يقيّم أعمالي بصورة عادلة.

وهنا تناول بلطف غلاف المفكّرة من يد لودوفيكو وفتحها.

هناك شيء غريب.

فيها رسائل.

لم تكن رسائل اعتماد، بل رسائل حقيقيّة بالفعل. عليها تاريخ في البداية وتوقيع في النهاية. مليئة بالرسوم، مثل جميع رسائل ليوناردو.

لكن...

– لكنّها مكتوبة من اليمين إلى اليسار.

– هذه طريقتي في الكتابة على الدوام.

– هل هذه إذاً هي رسائلك؟ هل هي محضر رسائلك؟

– سأشرح لك بينما أنت تقرأ يا صاحب السيادة. هاك، تفضّل وخذ هذه المرآة. وإذا أردت ضوءاً فسأحضر لك مصباحاً في الحال.

– منذ متى أنا هنا؟

منذ ساعتين تقريباً.

ابتلعت كاترينا ما يكفي من اللعاب لتصل إلى الليتر الثاني هذا الصباح. إنّ الذهاب إلى منزل زعيم ميلانو لم يكن من الأمور التي تحدث كلّ يوم، لكنّها لن تشعر بالهدوء الآن عندما عرفت أنّ زعيم ميلانو قد جاء من أجل ابنها، وأنّه من الممكن أن يذهب مع ابنها، وأنّ الحراس الأربعة المسلّحين الموجودين في المطبخ ربّما كانوا ينتظرونه لهذا الغرض. في النهاية فتح الباب. فخرج لودوفيكو إيل مورو في الأوّل، وكان وجهه مخيفاً، وعليه خيبة أمل واضحة، لكن أكثر من خيبة الأمل كان غاضباً.

وكان خلفه ليوناردو، وكان قلقه واضحاً، لكنّه كان مستاءً أكثر ممّا كان قلقاً.

نزل لودوفيكو إلى أسفل الدرج ببطء. وانتظر وصول ليوناردو إلى الطابق الأرضيّ قبل أن يتكلّم: - لقد أحبطتني مرّة أخرى يا ليوناردو. لقد خيّبت أملي، هل تعرف هذا؟

- أعلم هذا يا صاحب السيادة.

- حسناً. دعنا نذهب الآن إذاً. أريد أن أنتهي من هذا الأمر بسرعة. ثمّ أومأ برأسه إلى الحرس، وانصرف. فأحاط الحرس بليوناردو.

- ماذا يحدث يا صاحب السعادة؟

- يجب أن يأتي ابنك معي أيّتها السيّدة كاترينا.

- أي أنّك اعتقلته.

التفت لودوفيكو. وللمرّة الأولى في ذلك اليوم، ابتسم.

- ولا حتّى في الخيال، أيّتها السيّدة كاترينا. لكنّ ابنك سيكون شاهداً، وهو شاهد أساسيّ في قضيّة تخصّ العدالة. وسيعود هذا المساء أو قبل ذلك إلى البيت.

اثنا عشر زائد واحد

(صاحب البيت رجل متطيّر جدّا)

لم يكن منظر قاعة سكارليوني قط منظراً ساحراً ولا جذّاباً، ولم تكن تلك صدفة. فهي قاعة كئيبة، مظلمة، باردة، تنذر بالوعيد والتهديد، وبشكل يمنع من يدخل إليها ليتسوّل معروفاً أو يطلب عدالة عن أن يضيع في ثرثرات فارغة، أمّا من يستدعى إليها ليحاسبه المجلس السرّيّ الذي يرأسه لودوفيكو إيل مورو فتساعد القاعة على ترهيبه بما يكفي فينبري للاعتراف بسهولة، لأنّ الاعتراف كان في عصر النهضة هو الدليل الذي تفضّله جميع المحاكم في كلّ خطوط العرض. على كلّ مهما كان سبب الدخول إلى تلك القاعة، فهو لم يكن أمراً جميلاً ولا مستحبّاً.

ويزيد الأمر سوءاً أنّ أسباب الدخول إلى القاعة تبقى خفيّة مبهمة. فمن يمثل أمام المجلس كان في الواقع شخصيّات مختلفة تأتي بصفات مختلفة أيضاً.

وهكذا فقد قدّم آتشيرّيتو بورتيناري، مدير فرع بنك ميديشي في ميلانو، إلى المجلس حملةَ بعض رسائل الاعتماد التي اعتبرها زائفة، وذلك بصفته مدّعياً عليهم.

كليمنتِه فولتزيو، كانديدو بيرتونِه، ريتشيتّو نانّبييري، آديمارو كوستانتّه، كانوا بالفعل حملة الرسائل المذكورة وقد قادهم آتشيرّيتو إلى المجلس بصفتهم متّهمين، بينما قالوا بدورهم إنّهم هم المدَّعون ويتوقون إلى

إحقاق الحق لأنّ بورتيناري رفض أن يدفع لهم المبالغ التي تنصّ عليها رسائل الاعتماد التي قدّمها كلّ منهم والتي تبلغ قيمتها ما مجموعه خمسة آلاف دوقيّة، أي ليس خمسة آلاف قطعة من التين المجفّف.

الأب ديوداتو دا سيّينا بصحبة أخيه الراهب إيليدجو دا فارّا ميستا. وكان هذا الأخير قد استدعي بناء على توصية قدّمها بيرغونزيو بوتّا لأنّه خبير كمبيالات ورسائل اعتماد كان يعمل في البنك قبل أن يهتدي إلى الدين على طريق ميلانو. وكانت هذه حالة فريدة أكثر منها نادرة بالنسبة لمن يذهب إلى ميلانو ثمّ يتوقّف عن التعاطي بأمور المال. أمّا الأب ديوداتو فقد جاء بكلّ بساطة كمرافق، لأنّه لم ير من المناسب ترك أحد إخوته يذهب وحيداً عبر العالم أو أن يتركه يتكلّم من غير أن يكون قربه.

وفي النهاية المستشارون. وكانوا سبعة، وليس ستّة كالعادة لأنّ ليوناردو دافنشي كان جالساً بينهم. لكنّه كان يبدو أنّه الغريب الوحيد بين جميع من كانوا في القاعة.

– إنّك تؤكّد يا سير آتشيرّيتو أنّ رسائل اعتماد هؤلاء السادة هي مزيّفة، كما قدّمت الأسباب التي قادتك إلى هذا التأكيد.

ثمّ التفت لودوفيكو إلى يساره.

– أمّا أنتم أيّها السادة فتؤكّدون أنّ هذه الرسائل أصليّة، كُتبت بيد بينشو سيرّيستوري نفسه في التواريخ المذكورة. فهل تؤكّدون أقوالكم؟

– أؤكّد – قال فولزيو، وهو رجل صغير بشعر أحمر ووجه مليء ببثور الجدريّ.

– أؤكّد – كرّر وراءه بيرتونِه، وهو شابّ طويل ونحيل يتحدّث بلكنة حازمة من الواضح أنّها لكنة أهالي مدينة سيّينا.

– يا إلهي، إنّ الله شاهد عليّ، أؤكّد – انضمّ هذا إلى جوقة نينّيبيري، وهو شخص بدين أحدب بسبب الساعات الطويلة التي يقضيها وراء نول النسيج.

– أوّكد – كرّر في النهاية آديمارو كوستانتِه، وهو أربعينيّ نحيل إلى أقصى حدّ، خاصّة أنّ مصدره الوحيد من البروتين هو أظافر يده اليمنى التي لم يتوقّف عن قضمها منذ دخل.

– ما هو رأيك أيّها الأخ الراهب إيليدجو؟

كان الراهب إيليدجو رجلاً صغيراً أصلع بالكامل، إذا استثنيا خصلة شعر بلون الجرذ الميّت تتسلّل على جبهته لتمتدّ إلى ما لا نهاية. بعد أن أومأ موافقاً عدّة مرّات، كما لو أنّه كان يذكّر نفسه أنّه على ثقة من رأيه، أصدر صوتاً ناعماً نعومة خيط العنكبوت، وقال:

– الرسائل مكتوبة على ورق من فلورنسا من النوع الرقيق جدّاً، وهو الورق نفسه الذي كنت أستعمله عندما كنت أعمل في صرف العملة في بنك ميديشي. – بدأ كلامه بينما أصغى إليه جميع من في القاعة. الرسالة مكتوبة بطريقة متوافقة مع تعليمات البنك، في تأريخها، ومبالغها، وتحديد كميّة الصرف بحسب وجهة الوصول وتعيين المصرفيّ في وجهة الوصول. لذلك فليس هناك لديّ من الأسباب التي تدعو للشكّ أو اعتبارها مزيّفة.

– إذاً لماذا نحن هنا الآن؟ لماذا لا تعطونا نقودنا؟ من هو الذي يرتاب بأنّ هذه الرسائل مزيّفة، ولماذا؟

– معك حقّ يا سيّد ريتشيتّو – قال لودوفيكو، بلهجة لطيفة. فهل لك أن تعطينا يا غالياتسو بعض التفسيرات؟

– قبل أيّام خلت تمّ العثور هنا في فناء القلعة على جثّة شخص كان قد مات ميتة عنيفة. كان اسمه رامبالدو كيتي، وكان رسّاماً وفنّاناً ومن مواليد ميلانو.

– الرحمة لروحه – قال نينّيبيري بفظاظة – وماذا عنّا؟

عندما ذهبت شخصيّاً برفقة كابتن العدالة إلى بيت المذكور رامبالدو كيتي وجدنا هناك أدوات لكتابة رسائل اعتماد مزيّفة بالإضافة إلى رسالة اعتماد بتوقيع بينشو سيرّيستوري، وكانت مزيّفة أيضاً من دون أدنى شكّ.

وهنا تدخّل الراهب إيليدجو: - أستميح العذر يا صاحب السعادة. أودّ أن أعرف بسبب من فضولي الشخصيّ كيف لك أن تكون بمثل هذه الثقة، علماً أنّه ليس من السهل تأكيد زيف رسالة اعتماد ما. هذا ما تعلّمته بالتجربة. فلقد توجّب عليّ في حياتي المدنيّة أن أضع على الطاولة فلورينات من الذهب الخالص مقابل رسائل اعتماد بالرغم من أنّها كانت تثير الريبة.

- كانت الرسالة تدّعي أنّها مكتوبة في فلورنسا بتوقيع بينشو سيرّيستوري لكنّها مؤرّخة بتاريخ الرابع والعشرين من حزيران.

- هه، حسناً - قال الراهب إيليدجو وقد تنفّس الصعداء. في هذه الحال لا يوجد أيّ مجال للشكّ. فلا أحد يمكنه أن يعمل في عطلة سان جوفانّي. هذا يعني أنّ المزيّف ليس من فلورنسا.

لكن، المعذرة...

- تكلّم أيّها الراهب إيليدجو.

- إذاً رامبالدو كيتي هذا الذي قلت إنّه مات قتلاً، هو نفسه من زيّف الرسالة.

- نظنّ ذلك. ما رأيك يا سير ليوناردو؟

أومأ ليوناردو بصوت منخفض وهو جالس ويداه على ركبتيه.

- اشتغل رامبالدو كيتي في مرسمي لبضع سنين ولمست بيدي عبقريّته الفذّة في الرسم والتصوير، كما عرفت شخصيّته المحتالة والغشّاشة. خاصّة أنّه دفع لصديق لي وزبون من زبائني مبالغ بنقود مزيّفة بعد أن أخذ منّي تلك السليمة، وقد تمّ العثور على تلك الرسالة الزائفة في مخبأ كان يحتفظ فيه بأدوات الصهر والمعدّات اللازمة لسك دوقات مزيّفة.

لا يوجد شكّ حول الأمر.

- شكراً يا سير ليوناردو.

فقال فولزيو بشيء من التحدّي: - حسناً يا صاحب السيادة، كان كيتي هذا مزيّفاً. لكن ليس لهذا علاقة بالرسالة التي في حوزتي والمؤرّخة في يوم السادس عشر من حزيران. وأؤكّد لكم أنّ بينشو سيرّيستوري كان في ذلك التاريخ حيّاً يرزق وقادراً على الكتابة.

- صحيح يا سيّد كليمنتِه. فبينشو سيريستوري كان في السادس عشر من حزيران حيّاً يرزق. ولهذا الجانب أهميّته لأنّ سير بينشو مات في أوّل تمّوز.

- إذا ما هو سبب التشكيك في صحّة رسائلنا؟

- إنّكم تضمنون إذاً أنّ رسائلكم هي صحيحة وأصيلة؟

فتمتم فولزيو قائلاً: - أؤكّد ذلك بالنسبة إلى رسالتي، لأنّي رأيتها شخصيّاً وهي تكتب. لكنّي لا أعرف عن الآخرين، وإن كنت لا أرى سبباً للريبة.

- هكذا إذاً؟ رسائلكم أصليّة؟ حسناً، أيّها السادة، إنّ مدينتنا الجميلة تقوم على نظام ائتمان خاصّ بها، وإذا كانت الرسائل أصليّة فيمكن لي أن أفرض بنفسي على سير آتشيرّيتو أن يدفع مبالغها بدراهم رنّانة. وإذا لم يشأ سير بورتيناري دفعها، فإنّي لن أسجنه فحسب، بل سأدفع المبالغ بنفسي. فهل تنوي يا سير بورتيناري أن تدفع مبالغ هذه الرسائل؟

- ولا حتّى درهماً واحداً.

- حسناً أيّها السادة، لقد انتقل الأمر إلى يديّ. تفضّل إلى هنا إذا كنت موافقاً يا سير آتشيرّيتو، رجاء.

ذهب آتشيرّيتو بورتيناري إلى أمام إيل مورو، فبدأ هذا بكتابة ملاحظة على قطعة ورق بيضاء. ثمّ قلب لودوفيكو الورقة بعد أن انتهى من الكتابة وقال بطريقة رسميّة:

- وفقاً لهذا فإنّي أصرّح بتبنيّ ديونك المترتّبة على السادة الحاضرين هنا بتاريخ اليوم، وبالشروط المذكورة.

نظر آتشيرّيتو إلى الورقة فصعد الدم إلى وجهه ثمّ نزل.

- لكنّه لا يمكن لك يا صاحب السيادة أن...

- من المناسب لك أن توقّع يا سير آتشيرّيتو، هذا لمصلحتك.

نظر الأربعة بعضهم إلى بعض بعيون برّاقة، بينما كان آتشيرّيتو بورتيناري يوقّع بصمتٍ وريشةٍ مرتجفة. نادى لودوفيكو على آمر القلعة وسلّمه الورقة. أخذ برناردينو دا كورتِه الوثيقة وانحنى أمام سيّده ثمّ استلم الباب وانصرف.

- حسناً يا صاحب السيادة، متى سنستلم إذاً لوازمنا؟

- لوازمكم يا سير ريتشيتّو؟

- أعني النقود، هيّا. لقد قلت للتوّ إنّك ستدفعها أنت، فأنت الزعيم.

فأجاب لودوفيكو بهدوء: - كلّ شيء في وقته يا سير ريتشيتّو. لقد وضّح لي البارحة آتشيريّتو بورتيناري بمزيد من التفصيل، كما أكّد هذا الأخ الراهب إيليدجو قبل قليل، أنّه من المناسب للبنك في أغلب الأحيان أن يدفع رسائل مزيّفة بدلاً من أن ينفق الأموال ويخاطر بحياة السعاة الذين قد يرسلهم للتأكّد من صحّة المستند.

ووسّع لودوفيكو بين يديه.

- لكنّ الأمر الذي لا تستطيع البنوك فعله، يمكن لي بل يجب عليّ أن أفعله. فأنا لا أستطيع أن أدفع من مال الدوقيّة، أي من مال دافعي الضرائب، مقابل رسائل اعتماد مزيّفة. ولقد رأيتم أنّي أعطيت قبل قليل ورقة لسير برناردينو عليها تعليماتي التي وقّع عليها أيضاً سير آتشيرّيتو بورتيناري.

فقال كليمنتِه فولزيو: - أي الورقة التي التزمت فيها بدفع ديونه.

- لا يا سير كلمنتِه. لم يكتب هذا على وجه الدقّة على تلك الورقة.

فالتفت كليمنتِه فولزيو نحو بورتيناري الذي خفض بصره ثمّ رفعه نحو لودوفيكو.

- ما كتب في الواقع هو طلب بمراجعة سجلّات المحاسبة. وكان التوقيع ضروريّاً لاستلام سجلّات المحاسبة التابعة لبينشو سيرّيستوري في بنك ميديشي في فلورنسا، وذلك لمصلحة القائم بزعامة إمارة ميلانو لودوفيكو ماريّا سفورتسا، وبإذن وسماح من قبل ممثّل بنك ميديشي في ميلانو.

وهنا أشار لودوفيكو إلى الباب الذي خرج منه آمر القلعة.

- في هذه اللحظة، يكون سير برناردينو قد قرأ الورقة، وبدأ يعمل على تكليف ساع ليسافر إلى فلورنسا وهو يحمل الإذن الموقّع. خلال أسبوع على أبعد تقدير سيكون الساعي قد عاد. في هذه الأثناء ستحلّون ضيوفاً عليّ.

هنا أومأ لودوفيكو بإشارة إلى غالياتسو سانسيفيرينو الذي أومأ بدوره إلى رئيس الحرس. فتحرّك الحرس من حول مقعد لودوفيكو وذهبوا ليحيطوا بالمدّعين الذين أصبحوا الآن متّهمين.

كما قلت في السابق فإنّ سير ليوناردو كان يعرف حقّ المعرفة رامبالدو كيتي، ولا يوجد أدنى شكّ حول هذا الأمر. - وكان صوت لودوفيكو قد تغيّر نوعاً ما في اللهجة، بعد أن أخذ رجاله أماكنهم - لكنّ هناك شخصاً آخر هنا يعرفه أيضاً، وتيسّر له أن يتحقّق من براعته ويمتحن عبقريّته. أليس هذا صحيحاً أيّها الأب ديوداتو؟ فنظر الأب ديوداتو إلى لودوفيكو بعينين مطمئنّتين.

- أنا؟

- أظنّ أنّك على خطأ - قال الأب ديوداتو بكلّ طمأنينة - فأنا لم يكن لي أيّ نوع من المعرفة مع هذا الشخص الذي تتكلّم عنه.

- حقّاً؟ هل أنت موافق يا سير ليوناردو؟

- لا يمكن لي أن أوافق يا صاحب السيادة - أجاب ليوناردو بصوت

مليء – خاصّة أنّ هناك براهين محسوسة وظاهرة للعيان تدلّ على أنّ الأب ديوداتو كان يعرف رامبالدو كيتي، رغم أنّه أكّد وبحضوري أيضاً عكس هذا.

– هه، وبالفعل؟ وأين هي؟

– على جدران صالة الطعام لديك أيّها الأب المبجّل. أي في الأكشاك التي رسم لوحاته الجداريّة عليها وعرفت أنا آثار يديه عليها – وهنا نهض ليوناردو واقفاً لكن ليس ليعرض طول قامته كما اعتاد لودوفيكو أن يفعل، بل لتخفيف التوتّر السائد.

– كان عندي عشرات التلاميذ في مرسمي، وكنت أعرف بصمة كلّ منهم، ووزن ريشته وميوله في مقاربة الألوان والتناسب بين ارتخاء اليدين وشدّهما، وخاصّة فيما يتعلّق بالموهوبين منهم، كما كان حال رامبالدو كيتي. لذلك فإنّي أتساءل لماذا تؤكّد أنّك لم تعرفه إذا كان قد عمل معك.

– وهل تعتمد على هذا الأمر يا صاحب السيادة؟ على الحكم الفنّي لرسّام يظنّ أنّه قادر على نحت أحصنة عملاقة لم نر حتّى الآن أثراً لها؟

عندما نردّ على من يتّهم بطريقة مفصّلة، ونوجّه له إهانة شخصية، فهذا يعني أنّنا لا نملك حججاً نجيب بها. لم تتمّ صياغة هذه الملاحظة في نظريّة فلسفيّة إلّا بعد تصرّم قرون كثيرة وذلك من قبل آرثر شوبنهاور، لكنّ لودوفيكو إيل مورو كان قد فهمها منذ زمن طويل.

– يمكن لي أن أعتمد أيّها الأب ديوداتو. فكلام ليوناردو في مواضيع الرسم لا يمكن أن توضع موضع أيّ شكّ. هذا بالنسبة إليّ، لكنّي لا أريد أن أجبركم على تصديق أفكاري. لقد جئت أيّها الأخ الراهب إيليدجو بالسجّل الماليّ للدير، على ما أعتقد؟

– أجل يا صاحب السيادة، لقد جئت به معي كما هو مطلوب.

مدّ لودوفيكو يده فقدّم له الراهب إيليدجو الدفتر الضخم. وضعه لودوفيكو في حضنه وفتحه بكلّ عناية وبدأ يتصفّحه بإصبعه.

إنّ الإصرار على تصفّح أيّ سجلّ في المدارس على جميع مستوياتها كان دائماً سبباً في إثارة قدر معيّن من الانزعاج لدى الطلاب. لم يكن الأب ديوداتو الآن في المدرسة حتماً، لكنّه كان من الواضح أنّ الشحوب قد علا وجه هذا اليسوعيّ إثر حركة لودوفيكو تلك، العفو، يجب أن أقول إنّ وجهه قد امتقع بينما بدأت يداه المعقودتان فوق ثوبه الأبيض بالضغط على حزامه الجلدي.

– حسناً، هل يمكن لك أيّها الأب ديوداتو أن تفسّر لي لماذا قمت بتاريخ عشرين تمّوز من العام الحاليّ بتوجيه أمر للأخ الراهب إيليدجو كي يدفع لرامبالدو كيتي مبلغ خمسة عشر دوقيّة أجرة رسم جداريّ لأكشاك صالة الطعام في الدير؟

– لم أكن أذكر اسمه – قال الأب ديوداتو وهو يحاول إعطاء صبغة هادئة لكلماته، لكن من دون كثير نجاح – وتعرف أنّي أقابل العديد من الناس.

– أعرف، أعرف. إنّك تعرف كثيراً من الناس. وتابع لودوفيكو تصفّح السجلّ بهدوء. – كما أنّ الدير مشهور بإنتاج الأصباغ، وأنت بالذات شخص ذو ذوق رفيع مثقّف. ورجل مثلك لابدّ أن يكون على معرفة بالكثير من الناس. فهل تعرف مثلاً واحداً يدعى جوفانّي بارّاتشو؟

–لا... لا يبدو لي ذلك...

– حقّاً؟ لابدّ أنّ ذاكرتك ضعيفة على اعتبار أنّك رجل مثقّف أيّها الأب ديوداتو – ووضع لودوفيكو إصبعه على السجلّ، وعلى طرف الصفحة التي كان قد وصل إليها قبل قليل – هنا يبدو أنّك أمرت بتاريخ الأوّل من تمّوز بدفع ألف دوقيّة إلى المسمّى «جو. بارّاتشو، تاجر أصواف». وكنت قد اشتريت منه ثياباً صوفيّة بمبلغ ألف دوقيّة أيّها الأب ديوداتو، أو لا تذكر ذلك؟

لم يجب رجل الدين. كانت عيناه منخفضتين، ويداه المرتجفتان متمسّكتين بالحزام الجلديّ. لقد التزم الأب ديوداتو الصمت وبدا واضحاً أنّه لن يجيب.

رفع لودوفيكو رأسه عن السجلّ ونظر إلى الراهب إيليدجو.

– هل لك أيّها الأخ الراهب إيليدجو أن توضّح أنت لي؟

لم يكن الراهب إيليدجو غبيّاً. بعد أن بحث عبثاً عن نظرات عينيّ رئيسه، أخذ يتكلّم بصوت أخفت من السابق:

– لم يشتر صوفاً يا صاحب السيادة. فقد جاءنا سير جوفانّي بارّاتشو ومعه رسالة اعتماد بقيمة ألف فلورين. كان هذا قليل الخبرة بهذه الوسيلة وكان قد علم أنّ المصرفيّ الذي أصدر الرسالة قد مات، وظنّ أنّ الرسالة تفقد قيمتها بموته. شرحت لرئيسي أنّ الأمر ليس كذلك وأنّنا سنحقّق ربحاً وفيراً إذا اشترينا من بارّاتشو هذه الرسالة بسعر الإصدار وليس بسعر الصرف. أي ألف دوقيّة مقابل ألف فلورين، مع تغيير اسم حامل الرسالة لدى سير آتشيريّتو. وهكذا فقد دفعت ألف دوقيّة لبارّاتشو وأخذت منه الرسالة وسلّمتها لرئيسي الذي قال إنّه سيتصرّف شخصيّاً.

– سير آتشيرّيتو...

– أبداً. لم أصرف البتّة رسالة باسم جوفانّي بارّاتشو محالة إلى الأب ديوداتو من دير سان جوفانّي اليسوعيّ.

– هل أنت متأكّد؟

– أنا متأكّد وعلى استعداد لإحضار سجلّاتي!

– أصدقّك يا سير آتشيرّيتو. يمكن لك أن تحضر السجلّات لحسن سير التحقيق ولمطابقة الأحداث، لكنّي أصدّقك. أصدّقك لأنّي على قناعة بأنّ تلك الرسالة لم تسحب ولم تصرف، لأنها بقيت في يد الأب ديوداتو دا سيّينا، الذي حوّلها بعد ذلك إلى رامبالدو كيتي ليستعملها ويقلّدها عند كتابة رسائل اعتماد مزيّفة. رسائل اعتماد مزيّفة تأخذونها أنتم أيّها السادة الموجودون أمامي، لتصرفوها لدى بنك سير بورتيناري. – وهنا نهض لودوفيكو عن مقعده ببطء وجلال. – أكرّر عليكم أيّها السادة ما قد قيل لكم آنفاً. ففي هذه اللحظة هناك ساع قد سافر بتكليف منّي إلى فلورنسا

ليأخذ سجلّات بينشو سيرّيستوري. وخلال أسبوع على أبعد تقدير سيكون قد قفل عائداً ومعه ذلك السجلّ الذي يمكن لسير آتشيرّيتو بورتيناري أن يعرفه ويدقّق فيه. – لكنّ من يقوم أوّلاً بالاعتراف فيمكن له أن يغادر هذه القاعة بعد أن يقّدم أقواله. أمّا بالنسبة إلى الآخرين فإنّ العقوبة المنصوص عليها بحقّ الذين يتعاملون بأموال مزيّفة هي قطع الأيدي من الرسغ.

ضاق الجوّ في القاعة. ومرّت عدّة ثوان ذات بطء لا يمكن وصفه، قبل أن يرفع ريتشيتّو نانّبييري يده.

– صاحب السيادة...

– قل يا سير ريتشيتّو.

– الرسالة التي أخذتها إلى البنك أعطاني إيّاها الأب ديوداتو دا سيّينا في الخامس عشر من أيلول الماضي.

– كم دفعت سعرها؟

– ثلاثين دوقيّة يا صاحب السيادة.

– يبدو لي أنّه سعر معقول. هل قال لك الأب ديوداتو شيئاً آخر عندما سلّمك الرسالة؟

– قال لي أن أستعملها في آخر يوم من تشرين الأوّل، عندما تكون قد ذهبت يا صاحب السيادة.

– ولماذا استعملتها اليوم إذاً؟

– لأنّه مجنون أحمق – انفجر الأب ديوداتو بالقول، ثمّ تابع:

– لأنّي خشيت بعد موت رامبالدو كيتي وبدء التحقيق في أسباب موته، من أن يكتشف شخص ما بعض الرسائل المزيّفة. وهكذا فقد قمت أنا بالذات بتفتيش منزل كيتي علّي أعرف ما فعله، لكنّني لم أجد شيئاً. – وكان الأب ديوداتو يرتجف حرفيّاً من شدّة الغضب، بينما تضخّم الوريد على طرف عنقه وكأنّه كرمة عنب.

– لكنّي سمعت بعدها ليوناردو وهو عند الكونتيسة وهو يقصّ عن

العثور على رسالة وجد أنّها مزيّفة، فشعرت بالجليد يسري في عروقي. لقد تدهورت الأمور، تدهور كلّ شيء، ولم يكن للأمور أن تجد نهاية لها، وأصبح الخطر جاثماً. - وبقي الأب ديوداتو يرتجف حرفيّاً من شدّة الغضب وهو يتكلّم -. لكنّ هذا الأحمق وهؤلاء الحمقى طمعوا بالأرباح. فتصرّفوا رغم ذلك على هواهم كي يسافروا بعد ذلك إلى توسكانا مع أرباحهم من الأموال الوسخة. إنّكم حمقى!

حمقى!

وهنا أخذ الأب ديوداتو نفساً عميقاً.

- بعدها عندما جاء ليوناردو لزيارتي في الدير، رأيت أنّه ينظر إلى الرسومات الجداريّة، ثمّ سألني في مرحلة معيّنة إذا كنت أعرف رامبالدو كيتي. عندها فهمت، فهمت أنّه فهم.

التفتت رؤوس الجميع في القاعة نحو ليوناردو الذي ما لبث أن تكلّم بلهجة المعتذرين.

- يتّصل كلّ غصن من النبات بالجذع. وكان عندي غصنان أيّها الأب ديوداتو. كان جوفانّي بارّاتشو أحد الغصنين، وكان يزور بيت الكونتيسّة تشيشيليا بيرغاميني. أمّا الغصن الثاني فكان رامبالدو كيتي الذي كتب الرسائل المزيّفة. كلاهما ماتا، وماتا كلاهما ميتة عنيفة. فأين كان الغصن ونقطة اتّصاله؟ من هو الشخص المشترك الذي يعرف الاثنين؟ إنّك أنت أيّها الأب ديوداتو الذي كان يزور قصر كارمانيولا، والذي أرسلت إليه الكونتيسة البائسَ جوفانّي بارّاتشو عندما ظنّ لقلّة خبرته أنّ لديه مشكلة في مسألة دين كبير. إنّك أنت يا رئيس مجموعة فقراء يسوع في دير سان جيرولامو، الذي قام رامبالدو كيتي بالرسم على جدرانه. وما إن أخبرني سير أتشيرّيتو بمقتل جيوفاني بارّاتشو، حتّى فهمت لماذا كنت تنفي معرفتك بكيتي. وبعد التفكير فيما قاله لي فهمت ماذا كان يحدث؟

- حسناً يا سير ليوناردو...

ارتفع صوت غالياتسو سانسيفيرينو متردّداً كما لم يحدث إلّا في قليل من المرّات طيلة حياته.

- تحت أمرك أيّها الكابتن.

- أنا لست متأكّداً أنّني فهمت ماذا كان يحدث. فلماذا باع الأب ديوداتو تلك الرسائل بثمن قليل مثلما حصل؟

- آه، هذا بسيط جدّاً. ربّما كان هذا هو الثمن المتّفق عليه مع كيتي لإتمام العمل. إذا كنت أعرف الأب ديوداتو، فهذا هو السبب، أليس كذلك؟ ومن المؤكد أنّه لا يريد كسب المال.

- ماذا ربح إذاً؟ من هو المزيّف الذي لا يريد الربح من وراء عمله؟

- لكنّنا لسنا الآن في صدد مزيّفين أيّها الكابتن، نحن بصدد متآمرين.

- متآمرين؟

- لقد قلت لي مرّة يا سير آتشيرّيتو إنّ البنك مثل لاعب الخفّة. فأنت تقرض مالاً بفائدة خمسة عشر وتأخذ مالاً بفائدة اثني عشر.

هل هذا صحيح؟

- صحيح.

- كم هو حجم أعمالك؟ حوالي ثلاثمئة ألف دوقيّة، هل ما أقوله صحيح؟

- ما قلته صحيح.

- وكم هو رأسمالك؟ كم لديك في الصندوق كأموال متاحة؟ خمسون ألف دوقيّة، هل أنا على حق؟

قام آتشيرّيتو بورتيناري بتجفيف عرق جبينه الذي امتلأ بالعرق.

- ليس تماماً. حوالي ثلاثين ألف دوقيّة الآن، تقريباً.

- وماذا يحدث إذا جاءك جميع المودعين، جميع الأشخاص الذين أقرضوك مالاً ليربحوا فوائد إيداعه، ماذا يحدث إذا جاؤوا إلى البنك في اليوم نفسه ليطالبوا بأموالهم؟

كان ليوناردو يتكلّم بصوت لطيف وكأنّه يشعر بالحرج.

– لا أستطيع أن أعطيهم ذلك، فلن يكون عندي ما يطلبونه.

– أي أنّك ستفلس، ربّما كان هذا ما يعنيه كلام ليوناردو.

– نعم، لكن ليس أنا وحدي. وقد سبق أن قلت لك يا ليوناردو إنّ بنكي هو أهمّ بنك في ميلانو. وإذا استثنينا صاحب السيادة لودوفيكو، فإنّ جميع زبائني هم من التجّار والندّافين والعاملين بالمعادن والنسيج ومزارعي العنب. عندها لن يتمكّن هؤلاء من شراء الموادّ التي يستخدمونها ولن يمكنهم دفع أجور عمّالهم، لذلك فستحدث مصيبة عندها، ستحدث...

– أخبرني كيف يمكن إقناع كلّ المودعين بالجري إلى البنك وجعلهم يسحبون أموالهم؟

– هذا يحدث إذا سرت إشاعة تقول إنّي لا أدفع رسائل الاعتماد. أو وأسوأ من ذلك إذا سرت إشاعة أنّي أؤخّر المدفوعات. لأنّ الجميع سيفهمون حينها أنّي لا أملك مالاً في صندوقي.

– وماذا يحدث في تلك الحال؟

– الأزمة، يا ليوناردو. الأزمة. إذا لم يقيّد للأموال أن تدور فسيحدث الانهيار. بل سيحدث التمرّد بكلّ تأكيد تقريباً.

– سينهار كلّ شيء. وسيحدث التمرّد بشكل شبه مؤكّد.

– هل فهمت هذا كما يجب أيّها الأب ديوداتو؟ هل كان هذا هو هدفك؟

لم يعد الأب ديوداتو يرتجف. كان هادئاً وكأنّه استسلم.

– لقد سمعت هذا أنت أيضاً. كلّ شيء سينهار إذا لم تتوفّر الأموال. دون هذه القيمة، كلّ شيء سيذهب أدراج الرياح. لكنّ هذا ليس قيمة! لأنّ القيمة أبديّة، وهي ثابتة، بينما نرى أنّ المال مترنّح، يعوم، وهو ينتفخ وينكمش مثل الشراع، وأولئك الذين يركبون سفينة عليها هذا الشراع لا يعرفون إلى أين تذهب سفينتهم وإلى أين ستصل. فركوب البحر،

والتحرّك فيه، ومعرفة الاتّجاهات بشكل صحيح يحتاج إلى قراءة النجوم، وهي أبديّة. وكذلك فإنّه لإيجاد الاتّجاه في الحياة، عليك أن تنظر إلى الله الأبديّ، إليه، وإليه فقط.

نظر الأب ديوداتو إلى ليوناردو وكأنّه المسؤول الوحيد عن جميع ما يحدث.

- إنّنا على قناعة بأنّ الإنسان هو مقاس كلّ الأشياء. لكنّ قياس الأشياء ومعرفة قيمتها يتطلّبان شراءها بشيء ما. هناك حاجة إذاً إلى قيمة حقيقيّة تضعها أمام تلك الأشياء لتعرف قيمتها، والقيمة الحقيقيّة الوحيدة هي الله!

مع أنّ صوت الأب ديوداتو بقي خافتاً فإنّه امتلأ بالغضب وكأنّه يشتكي من ظلم أو حيف. لكنّ ليوناردو رفع حاجبه فهذا لم يقنعه تماماً.

- أنت تعني أيّها الأب ديوداتو أنّ فهم قيمة شيء ما يتطلّب وجود نظام مرجعيّة، مقياس تقرّب منه الشيء الذي نريد تقييمه. لكن كيف يمكن للإنسان أن يقيّم أشياء متناهية بالرجوع إلى الإشارة الإلهيّة، والله هو لا متناه بطبيعته؟ فإذا تكلّمنا عن الطول مثلاً فإنّ عدداً لا متناهياً من البوصات لن يكون أقلّ من عدد لا متناه من الأشبار، عدداً لا متناهياً من الأشبار لن يكون أقلّ من عدد لا متناه من الأذرع. أمّا إذا تكلّمنا عن المال فإنّ عدداً لا متناهياً من الليرات لن يكون أقلّ من عدد لامتناه من الدوقيّات. أي أنّ فكر الإنسان يمكن أن يقيّم إذا قاس شيئاً بأنّه مساو أو أقلّ أو أكثر بالنسبة إلى المتر الذي يقيس به. لكن بالنسبة إلى امتداد الله اللا متناهي، لا يمكن للإنسان أن يقيس نفسه، ولا يمكن له إلّا أن يستسلم. أمّا بالنسبة إلى المال فإنّ الإنسان قادر على مقابلة الأشياء لأنّنا نقيّمه جميعنا بالطريقة نفسها.

وهنا عرض ليوناردو كُمَّ ثوبه بعد أن أخذه بلطف بين سبّابة يده اليسرى والإبهام.

- ما هو لون ثوبي، أيّها الأب؟ إنّهورديّ أليس كذلك؟ ولماذا نحن على ثقة بأنّه ورديّ؟ لأنّنا نراه جميعاً باللون نفسه، وإذا رأينا شيئاً ما باللون

نفسه فإنّنا سنعرف ذلك. ولم يحدث قط أن رأى المرء ثوباً ورديّاً وعرف أنّه رديّ بينما يرى ورقة ورديّة ويقول إنّها خضراء. وهذا ينطبق أيضاً على المال. فكلّ الناس على سطح الأرض يفهمون المال. وكلّنا متّفقون على أنّ قيمة دوقيّة هي دوقيّة، فالمال إذاً هو قيمة، مثلما هو مقياس الشبر.

رفع الأب ديوداتو ذقنه بغضب.

– هو قيمة خاطئة! وإلّا فلماذا يمكن لي أن أحصل على المال مقابل عمل سيّئ، مثل القتل أو السرقة؟ المال يكافئك إذاً على أيّ عمل تقوم به، سواء كان عملك صالحاً أو شرّيراً. ويجب أن يكون المال وسيلة، وليس غاية، ولا يمكن النظر إلى ربح المال لنفهم إلى أيّ جهة يجب أن نذهب! لكن بإظهار حقيقته الفعليّة، وجوهره الخاطئ، ربّما أمكن عندها للأشخاص أن يفهموا! وقد يبدأون بالتوجّه نحو القيمة الحقيقيّة الوحيدة، نحو كلمة الله!

نظر ليوناردو إلى الأب ديوداتو كما لا يمكن إلّا ليوناردو أن ينظر إلى شيء ما. نظر إلى العينين، الرقبة، اليدين، الثوب، نظر بعينين تتحرّكان بسرعة، على دفعات غير محسوسة. لكنّ ليوناردو نظر بعد ثوان قليلة إلى الراهب نظرة جدّيّة.

– قد ينتج موت ودمار. هل فكّرت بهذا؟

– لقد دمّر الله أيضاً سدوم وعمورة، حتّى يأتي رسوله.

– وهل أنت الله؟ إذا نظرت إليك أيّها الأب ديوداتو فإنّي أرى ساقين ويدين ورأساً، إنّك إنسان كما أنا إنسان. وقد تصرّفت على أنّك إنسان.

– على أنّي إنسان، لكن بهداية كلمة الله.

– على أنّك إنسان وكفى، وسأبرهن لك على هذا.

التفت ليوناردو مشيراً إلى ابن بلده، وباطن يده إلى الأعلى.

– لقد ربحت يا سير آتشيرّيتو المعركة. فقد أعلن أنّ الرسائل كانت مزيّفة، بدون أيّ ظلّ من الشكّ، وبالاعتراف. فلماذا أنت منطو على هذا النحو؟

التفت الجميع نحو المصرفيّ، بعدما كانوا يتابعون الحوار بين ليوناردو والأب ديوداتو وكأنّهم منوّمون بالمغناطيس. كان وجهه رماديّاً وجبهته مبلّلة بالعرق وهناك مثلّثان أبيضان من الزبد على طرفي فمه. لكنّ آتشيّريتو بورتيناري تعرّض لضربة قاصمة، ولم يربح المعركة.

نظر آتشيّريتو إلى إيل مورو الذي كان جالساً بصمت وصرامة، وقال:

- لأنّي...لأنّي يا صاحب السيادة...

- هناك بين زبائن قروضك، بين الأشخاص الذين أقرضتهم مالاً تجّار وأشخاص من أهمّ شخصيّات ميلانو. فهل بينهم الأب ديوداتو أيضاً؟

- نعم يا سير ليوناردو، بالتأكيد، بالتأكيد، إنّه بينهم.

- كم من المال قدّمت له قرضاً؟

- عشرة آلاف دوقيّة. عشرة آلاف دوقيّة... - ثمّ أكمل آتشيّريتو بورتيناري حديثه بنظرات وجّهها مع الرجاء نحو زعيم ميلانو: إذا حكمت على الأب ديوداتو بالإعدام فإنّها ستضيع عليّ إلى الأبد.

هزّ لودوفيكو رأسه ليؤكّد مصير الأب ديوداتو وما يتبع ذلك المصير من مصير العشرة ألاف دوقيّة المذكورة.

- لا أستطيع أن أتجنّب التفكير أيّها الأب ديوداتو أنّك أردت بمحاولة تسبيب إفلاس آتشيّريتو بورتيناري أن تعمل أيضاً على تخليص نفسك من الديون. - كان صوت لودوفيكو ثابتاً صافياً فبدا أنّه يهزّ القاعة بأكملها -. عشرة آلاف من تلك الدوقيّات التي كنت تدّعي أنّك كثيراً ما تزدريها، من غير أن يمنعك هذا من السعي لاقتراضها. كما قلت أيّها الأب ديوداتو إنّ الله هو أساس المقارنة، لكن دعوني أقول لك إنّك صغير حتّى بالمقارنة مع الإنسان.

ثمّ غيّر صوته من غير أن يحوّل نظره.

- أيّها المعلّم ليوناردو إنّي أقدّم لك احترامي مقروناً بطلب المعذرة.

رفع ليوناردو رأسه نحو لودوفيكو. كانت نظراته تدلّ على إرهاقه، لكنّها كانت صافية.

– إنّي مسرور يا صاحب السيادة أنّي امتثلت لطلباتك. والآن أريد بالإذن منك أن تجيزني لأذهب إلى منزلي.

– كما تريد أيّها المعلّم ليوناردو.

– المعذرة...

هنا رفع ريتشيتّو نانّيبييري إصبعه ليثير الانتباه وسط الآخرين.

– هل لديك يا سير ريتشيتّو أيّ طلب؟

– إيه، بما أنّي أنا كنت أوّل من اعترف، حسناً، وكنت أنت قد وعدت بإخراجي من هذا المكان مباشرة بعد تقديم تفسيراتي. حسناً، بما أنّ سير ليوناردو يريد الانصراف، فإذا كان بوسعي أن أنصرف أنا أيضاً...

ضرب لودوفيكو يده على جبهته كأنّما ليركّز أفكاره.

– أكيد، أكيد، يا لي من نسّاء. خذ أيّها الكابتن في الحال سير ريتشيتّو إلى الجلّاد وليقطع له يديه من الرسغين وذلك قبل أن يرميه مباشرة خارج القلعة.

– لكن، لكن...لقد وعدت يا صاحب السيادة...

– أن أخرجك من هنا بعد أن تعترف. لكنّي لم أقل البتّة أنّك ستعود إلى بيتك كاملاً مكمّلاً.

اثنا عشر زائد واحد ونصف

(راجع السابق)

كانت المجموعة التي تسير عبر منطقة سان ناتزاريو تثير الفضول على أقّل تقدير.

كانوا أربعة أشخاص مسلّحين بالسيوف ويرتدون سترات من حديد مضفور، وكانوا يحيطون برجلين آخرين يتحدّثان بهدوء فيما بينهما. أحدهما طويل القامة وقويّ البنية، كان يرتدي ثوباً داكن اللون، والآخر متوسّط القامة، أشقر، وله لحية أنيقة، ويرتدي ثوباً ورديّ اللون لا تشوبه شائبة.

- إذاً كيف تمكّنت من الوصول إلى الشخص؟ سأل غالياتسو سانسيفيرينو بينما كان ينظر حوله.

كانت الطريق لحسن الحظّ شبه مهجورة.

فبعد أن خرج الاثنان خفية من الرصيف الخشبيّ في الجزء الخلفي من القلعة، سارا في حيّ كوساني على مفترق الطريق مع حيّ روفيلّو، ثمّ سلكا الطريق الضيقّة المعروفة باسم حيّ سان ناتزاريو ألّا بيتراسانتا. وإذا كان من الأفضل لهما عبور حيّ سولاتا، لأنّه مشمس ومضيء كما يدلّ اسمه[23] بالذات، وذلك ليتمكّنا من الوصول إلى الطريق التي كانا ينويان

23- سولاتا تعني بالإيطاليّة المشمسة.

سلوكها، فإنّ مرورهما من هناك سيجعلهما مكشوفيْن، وهذا مالا يريده البتّة أيّ من ليوناردو أو غالياتسو.

– اسمع أيّها الكابتن، لقد لاحظت في عدّة مرّات أنّ الأحاديث التي تجري في البيت الذي نحن ذاهبان إليه كانت تجد صدى لها مباشراً في أحداث تقع بعد ذلك بيوم أو في اليوم نفسه.

– فهمت. أي في كلّ مرّة كنتم تتحدّثون فيها عن شيء يتعلّق بموت رامبالدو كيتي...

...وكلّما كان ذلك يتعلّق بأشخاص لهم علاقة بذلك العمل. كان يحدث ذلك في كلّ مرّة يجري فيها الحديث عن هذا الأمر في بيت الكونتيسة بيرغاميني.

– لا، ليس في بيتك أيّتها الكونتيسّة بيرغاميني. إذ لا يمكن لي أن آتي إلى منزلك لأبلّغك ما أريد أن أبلغك إيّاه، أو بالأحرى لأسألك عن الذي أريد أن أسألك عنه.

– أعتبر كلّ رغبة من رغباتك دعوة لي يا صاحب السيادة – قالت تشيشيليا غالّيراني بالصوت الخافت نفسه لكن بعينين رانيتين إلى إيل مورو. عينين كانتا مليئتين بالغزل يوماً ما، بينما هما اليوم تنقبّان متسائلتين.

– لا تقولي هذا أبداً. انظري أيّتها الكونتيسة...

– كنت تدعوني باسمي ذات يوم يا صاحب السيادة.

– انظري يا تشيشيليا، لم أكن متزوّجاً في ذلك الحين، أمّا اليوم فأنا كذلك، وزوجتي أمّ ابني ماسّيمليانو غيّورة جدّاً.

– سبق لي أن لاحظت ذلك – أجابت تشيشيليا وهي تلتفت بنظرها نحو الفناء الخارجيّ فلم يفهم فيما إذا كانت تنظر إلى الروكّيتا حيث كانت تسكن خلال الأشهر الأولى من زواجها بإيل مورو، أو إلى النافذة التي شّربت حديثاً بمواد تحجبها عن الأنظار. – أعتقد أنّه عليك أن تراعي

الاحترام الذي تمكّنتْ من كسبه. خاصّة أننا نتكلّم عن دوقة ميلانو المقبلة.

– وهو الاحترام نفسه الذي عليك مراعاته تجاه زوجك صاحب السعادة الكونت بيرغاميني. أين هو الآن؟

– في الريف، في سان جوفانّي إنكروتشِه، يا صاحب السيادة.

– لن تكون فكرة سيّئة أن تقيمي معه خلال الأشهر المقبلة، ألا ترين ذلك؟

– هل تقصد أنّه عليّ أن ألحق به، أو أن استدعيه إلى البيت؟

– البديل الأوّل أيّتها الكونتيسّة. إنّي على ثقة أنّ قليلاً من الهواء الطلق في الريف لن يعود إلّا بالخير عليك وعلى صغيرك تشيزارِه. وبالمناسبة هناك أمر آخر أريد أن أخبرك به أيّتها الكونتيسّة. وهو السبب الثاني وراء طلبي لرؤيتك في القصر.

– فيما يتعلّق بزوجي؟

– فيما يتعلّق ببيتك أيّتها الكونتيسّة.

– اسمع، لقد حدث أن كنت خلال مرّتين في البيت حين جرى الحديث عن أحداث ساحة السلاح المؤسفة وميتة كيتي. كانت المرّة الأولى عندما قصصت كيف قُتل ذلك البائس، وأنّه لم يمت بسبب غضب من الله أو بسبب مرض ألّم به. لكنّ المرّة الثانية كانت عندما قلت للكونتيسة إنّي أعرف اسم الميّت ووضعته في صلة بأمر رسالة الاعتماد المزيّفة التي كتبها هو بالذات. وإذا تذكّرت فقد كنت في اليوم نفسه في القصر مع بوتّا وأعطيت أسماء الأشخاص الذين أعرف أنّهم على علاقة عمل مع المسكين بينشو سيرّيستوري.

– أذكر ذلك. وقال بوتّا حينها إنّك ذكرت اسم جوفانّي بورّاتشو ذاك.

– أهنّئك على هذه الذاكرة أيّها الكابتن. لقد أثارني بالفعل أنّ المسكين جوفانّي بارّاتشو قد قتل في ذات الليلة التي ذكرتُ فيها اسمه، أي بعد أن

قالت لي الكونتيسة غالّيراني إنّها هي نفسها التي وجّهت بارّاتشو ليشاور الأب ديوداتو. لقد قتلوه ليحرموه على الأرجح من إمكانيّة الكلام، لأنّه كان الشاهد المباشر الوحيد على تسليم الرسالة، تلك الرسالة التي لم تسحب البتّة. وهكذا يمكن للأبّ ديوداتو أن يقول بكلّ سهولة إنّه لم يتلقّ قط زيارة من بارّاتشو.

– وأنت تقول إنّ اليد نفسها هي التي قتلت رامبالدو كيتي؟

هزّ ليوناردو رأسه بوقار رغم أنّه كان يسير بخطى سريعة.

– ليس اليد نفسها، لكنّ الرأس نفسه. فالقتلة هما اثنان مختلفان. ولم يكن الأب ديوداتو هو الذي قتل رامبالدو.

تعثّر ليوناردو بحجر وهو يسير، وكاد يفقد للحظة توازنه، لكنّه استعاد طريقه واستأنف.

– في البداية، ظننت أنّ كيتي قد خنق بواسطة مشدّ مدرّع وأنّه عُصر داخله حتى خرجت روحه مع نفَسه. لكنّني أدركت بعد ذلك أنّه ليس من السهل إقناع شخص بارتداء درع ضد إرادته، ثمّ ضغط المشدّ عليه. لا، فهناك طريقة أسهل للقيام بذلك. وهي سهلة بسهولة التنصّت من وراء الباب، عندما تكون الكونتيسة تتحدّث بالسرّ مع رجل يعرف أشياء كثيرة.

وهنا التفت ليوناردو نحو غالياتسو، وتابع سيره بخطى متناغمة.

إذا كان هذا الشخص عندك في زيارة مجاملة، وأردت أنت أن تخفيه عن شخص آخر، فسيكون من السهل إقناعه بالدخول ضمن صندوق للملابس وضمّ ساقيه للانطواء في وضعيّة الجنين، ثمّ تغلق فوقه الصندوق وتضغط على ذلك البائس مثل الكمّاشة.

وهنا قال غالياتسو: – يجب امتلاك قوّة كبيرة للقيام بمثل هذا العمل يا سير ليوناردو. ولا أدري إذا كان بوسع امرأة أن تفعل هذا، خاصّة إذا كان ذلك الرجل قويّ البنية وصحيح الجسم مثل كيتي.

– تستطيع ذلك، تستطيع ذلك، خاصّة إذا كان عندها جهاز يضاعف

قوّة الشخص، بحسب مبدأ الرافعة والبكرة، حين تكفي قوّة بسيطة لتحويل دورة بطول ذراع يدورها الجهاز إلى حركة بطول بوصة لكن ذات قوّة شديدة.

– وهل هذا الصندوق الآليّ موجود يا سير ليوناردو؟ هل أنت متأكّد أنّ ذلك الشخص يملكه؟

– أنا واثق من ذلك أيّها الكابتن غالياتسو. لأنّي أنا الذي صمّمته وصنعته. وهو في البيت الذي سندخل إليه.

توقّف غالياتسو وليوناردو على الباب. باب الخدمة في قصر كارمانيولا، منزل الكونتيسّة تشيشيليا غالّيراني بيرغاميني. وهنا تراجع ليوناردو وأعطى مكانه لرفيقه.

– أعتقد أيّها الكابتن أنّه من الواجب أن تقرع أنت الباب.

وهذا ما فعله غالياتسو، بتصميم. بعد ثوان قليلة فتحت الباب فتاة جميلة، فشحب لونها عندما رأت أربعة جنود مدجّجين بالسلاح وراء كلّ من غالياتسو وليوناردو. – الكونتيسّة ليست في البيت أيّها السادة...

– لا يهمّ أيّتها الوصيفة تيرسيلّا، كنّا نريد مقابلتك أنت بالذات.

أربعة عشر

كانت تشيشيليا غالّيراني واقفة جامدة وسط الفناء.

يحيط بها القصر ذو الجدران المزيّنة برسوم تمثّل أهمّ الفصول التاريخيّة الحديثة التي مرّت على ميلانو، منذ السلام مع فيرّارا إلى حفل زواج فرانشيسكو سفورتسا.

كان إلى جانبها ليوناردو، الذي قال لها لتوّه إنّهما هما أيضاً يشكّلان جانباً من جوانب تاريخ المدينة، وإن كان من المستبعد أن يقوم أحد ما برسم ما دار بينهما من أحاديث وأفكار. فالتاريخ بالنسبة لمن يرسمه مصنوع كما هو معلوم من معارك وفتوحات، وإن كان الرسّامون ينسون كما ينسى قوّاد الجيوش أنّ المعارك يربحها المؤرّخون، ذلك كما أبرزه أحدهم بعد حوالي أربعمئة وخمسين سنة، وفي مكان غير بعيد عن مكان الاثنين.

– كنت أعرف أنّ تيرسيلّا والأب ديوداتو كانا مغرمين بعضهما ببعض، لكنّي لم أكن لأصدّق قط أنّ بوسعها أن تقول لك شيئاً من هذا القبيل.

– كنت على معرفة بالأمر إذاً؟

– كنت أعرف، وكنت أتجاهل.

كانت تشيشيليا تضع يديها أمام حضنها، الواحدة في الأخرى. كانت الكونتيسّة تشيشيليا بيرغاميني في مقتبل العشرين من عمرها، لكن كان يبدو أنّها عاشت أكثر من حياة واحدة، وكان هذا ظاهراً في حركاتها وفي أقوالها.

– لقد دمّر بوتّا حياة عائلة تيرسيلّا قبل سنين قليلة. فالضرائب تثقل كاهل من يملك أراضي واسعة لكنّها لا تنتج كما يجب أن تنتج. وعندما حلّ بهم الطوفان تدمّرت محاصيلهم وتعفّنت بذورها. ورغم هذا فقد أصرّ بوتّا وأصرّت الدوقيّة على تحصيل الضرائب فأخذوها من وفر مهرها. لذلك فقد استقبلتها في بيتي، خاصّة لما كنت أرى فيها من وجوه متعدّدة تذكّرني بنفسي، بمصير سلعة بارت قبل الأوان.

نظرت تشيشيليا حولها وكأنّها ترى أنّها لا تستحقّ ما تملك بل كأنّها لا تريد منه شيئاً.

– أحببت إيل مورو وأحبّني حين كان عمري ستّ عشرة سنة يا سير ليوناردو، لكنّ الخطبة فسخت لأنّي لا أمتلك المهر اللازم، وقد تجرّأت وقتها وطلبت أن أصبح راهبة. فالحياة ليست سهلة بالنسبة إلى امرأة هي امرأة منذ كانت صبيّة. ثمّ إنّنا نهرم ونصبح مخفيّين أو مزعجين.

أومأ ليوناردو بوقار بينما كان ينظر إلى أعمدة الفناء.

– لكنّ إيل مورو لم يكن بالنسبة إليك مثلما كان الأب ديوداتو بالنسبة إلى تيرسيلّا. فلقد حملها على قتل شخص، بينما قتل هو بارّاتشو المسكين الذي وثق باليسوعيّ بعدما ظنّ أنّه سينقذه من متاعبه.

– وكيف كان معك إيل مورو يا ليوناردو؟ كيف حدث أن استعدت ثقته؟

واصل ليوناردو النظر إلى قصص ميلانو المرسومة على الجدران المحيطة به.

قال بعد عدّة لحظات: – لا يعجبني هذا الرسم، إنّه لا يفسح المجال للتصليح والتغلّب على الأخطاء. لأنّنا نرتكب جميعنا الأخطاء. لن يكون بوسعي أبداً أن أرسم رسماً جداريّاً. وإذا كانوا قد طلبوا منّي ذلك، فإنّي ما زلت لا أدري إذا كنت سأقبل أم لا.

– إذاً فأنت ترتكب الأخطاء أيضاً.

– باستمرار أيّتها الكونتيسة. باستمرار. لكنّي أخفيها عن الجميع، إلّا

عن نفسي. لكنّ إيل مورو كان الوحيد الذي اكتشف بالصدفة واحداً من أخطائي.

- ما هو ذلك الخطأ يا ليوناردو؟ سألته غالّيراني وكأنّها لا تصدّق.

- كان أفدح أخطائي من وجهة نظره. تمثال الحصان.

- الحصان؟

- الحصان أيّتها الكونتيسة. لقد أخطأت في حساب البرونز اللازم لصهره. فذلك الحصان كما صمّمته لن يكون قادراً على الوقوف على حوافره. لكنّ إيل مورو اكتشف ذلك كما قلت لك ومن خلال قراءته لملاحظاتي أنا بالذات. إنّها من سخريات القدر، الآن وقد انتهيت من صنع النموذج الطينيّ... - وهنا تنهّد ليوناردو -...عليّ أن أبدأ من جديد.

قالت تشيشيليا بلهجة من يريد تغيير الحديث وهو خبير بهذا الفنّ:

-عليك أن تخبرني بشيء. أرجو المعذرة، لكنّ تيرسيلّا مكثت في بيتي سنتين ولم أعرف أنّك كنت ترتاب بها. فكيف حدث أن وجّهت فكرك نحوها؟

- الحقيقة أيتها الكونتيسّة أنّ الشكوك الأولى كانت تتوجّه نحو امرأة. واعلمي أنّ أوّل سؤال شغل بال سير غالياتسو كان لماذا تركوا جثّة كيتي وسط ساحة السلاح. لكنّ ما كان يشغل بالي هو الكيف. أي كيف يمكن أن يلقى وسط ساحة القلعة شيء مماثل من غير أن ينتبه لذلك أحد؟ ففكّرت حينها أنّه يمكن فعل هذا لو أنّهم جاؤوا بالجثّة على عربة.

- لكنّ حرس لودوفيكو لا يدعون كلّ العربات تدخل بطمأنينة إلى القلعة... قالت تشيشيليا، ثمّ توقّفت، لأنّها فهمت.

- بالضبط. ليس كلّ العربات. بعضها. عربتك مثلاً، تقودها صبيّة جميلة تشبهك إلى حدّ ما في الظلام. وهذا شيء ربّما يساعد على تشتيت الانتباه. ويمكن للكونتيسة بيرغاميني أن تدخل إلى القلعة ساعة تشاء،

ويمكن لسيادته أن يستقبلها على الدوام، لكن من الأفضل التظاهر بعدم رؤيتها بعد أن تكون قد دخلت، ألا تظنّين ذلك.

أعربت تشيشيليا ببطء عن موافقتها، بينما واصل الاثنان السير عبر الفناء.

– هذا حملني على التفكير أنّه لا يمكن لامرأة على اللا تعيين أن تفعل هذا، لكن يمكن أن تفعله امرأة معيّنة. – وهنا وضع ليوناردو سبّابة يده اليمنى في راحة يده اليسرى. – تيرسيلّا التي يمكن أن تستعمل عربتك. تيرسيلّا التي تملك الصندوق الذي صمّمتُه بنفسي والذي يمكن تحريكه بسهولة مع مضاعفة قوّة فتحه، بل وقوّة إغلاقه. كان عندي صور متناغمة فيما بينها. وكانت بنيتي العقليّة متراصّة تراصّ الحجارة داخل القوس وليس كالحجارة في كوْم حجارة. لذلك فقد بدأت أتساءل عن السبب بعد أن سلّمت أنّ الكيف كان على الشكل الذي بنيته في ذهني.

وهنا توقّف ليوناردو.

– لكنّ هذا السبب لم يتضّح لي حتّى فهمت ما هي نوايا الأب ديوداتو، أو من يعمل لمصلحته. كان يريد إثارة أزمة ماليّة ونقديّة. أي إثارة أزمة عامّة وقلب ميلانو بعضها ضد بعض. فكلّ أمر مخيف يمكن له أن يسهّل قيام أزمة. مثل الغضب الإلهيّ، أو ظهور الطاعون، أو وما هو أسوأ من ذلك ظهور مرض لا يعرف عنه شيء. – وفتح ليوناردو بين ذراعيه –. لهذا تمّ وضع جثّة رامبالدو كيتي في القلعة. جثة رجل مات لأسباب غامضة. أمّا علوم المعلّم آمبرودجو الطبّية الركيكة فلم يكن بوسعها إلّا أن تزيد من حدّة المخاوف. لذلك فما إن مات رامبالدو...

– المعذرة يا ليوناردو، لكنّي أريد أن أسألك حتّى عن هذا الأمر، أي لماذا قتله؟

– كان هذا ضروريّاً من أجل سلامة المتآمرين يا كاترينا. فقد طلب رامبالدو كيتي المثول أمام إيل مورو قبل يوم من قتله. كان يرجو على الأرجح أن ينقذ حياته عن طريق الاعتراف. فهو وإن كان مزيّفاً قديراً، فإنّه

كان أحمق ولا يعرف من أمور العالم إلّا الأوهام. ولو تمكّن من التحدّث إلى إيل مورو فلم تكن المؤامرة ستفشل فحسب، بل كان سيقبض على المتآمرين ليُعذّبوا ويقتلوا.

باعد ليوناردو شيئاً ما بين ذراعيه.

– علم الأب ديوداتو بالأمر بطريقة ما. على ما أعتقد عن طريق الأب فرانشيسكو سانسونِه، جنرال الفرنسيسكان. فاليسوعيّون والفرنسيسكان يتواصلون فيما بينهم، وجميعهم من فقراء يسوع، الذين تستنير مجموعاتهم بالمبادئ النبيلة نفسها، هذا في الظاهر على أقلّ تقدير.

– بالفعل، مبادئ جميلة حقّاً – قالت كاترينا وهي تضع على الطاولة ديكاً مشويّاً ضخماً كأنّه شخص من البشر سواء كان علمانيّاً أو من جماعة الفرنسيسكان، فليس هذا بالمهمّ. – إنّك الآن مسرور جدّاً لأنّ صاحب السيادة لودوفيكو قد قدّم لك شكره وتحيّاته وطلب منك المعذرة بقدر ما تشاء، لكن متى يبدأ بمدّ يده إلى جيبه؟

– لقد بدأ هذا بالفعل يا كاترينا – قال سالاي وهو يناول المرأة صحنه لكنّها ضربته ضربة قويّة بمغرفتها الضخمة على أصابعه. – آي!

– إنّنا يا جاكّوميتّو نبدأ أوّلاً بكبار السن. هل تريد قطعة يا ليوناردو؟

– هل أنت يا أمّي خيميائيّة أيضاً؟ أي هل حصلت على هذا الديك بتمرير حجر الفلاسفة[24] على ثمرة قرع ضخمة، أو أنّ هذا ولد حيواناً ثمّ ذبح؟

– آه يا ليوناردو كم أنت متحجّر؟ ماذا كنت تقول يا جاكّوميتّو؟ من الذي بدأ؟

24– حجر الفلاسفة هو مادة أسطورية يُعتقد أنها تستطيع تحويل الفلزات الرخيصة إلى ذهب ويمكن استخدامه في صنع إكسير الحياة. إن أصل هذا المصطلح هو في علم الخيمياء الذي بدأ في مصر القديمة ولكن فكرة تحويل المعادن إلى معادن أغلى تعود إلى كتابات الخيميائي العربي جابر بن حيان. (م) عن ويكيبيديا

– أخيراً دفع يا كاترينا رهبانُ أخويّة العذراء البتول هذا الصباح. دفعوا ألفاً ومئتي لير للمعلّم وأربعمئة للمعلّم آمبرودجو.

– وما علاقة المعلّم آمبرودجو بالموضوع؟ وماذا فعل ذلك الفلكيّ المنفوخ المصنوع من اللحم المقدّد الذي كثيراً ما يخلط بين الضراط وريح الجنوب ولا يرى إلّا النجوم؟

فقال ليوناردو: – لا تتكلّم يا كاترينا عن المعلّم آمبرودجو فاريزِه دا روساتِه، بل عن المعلّم آمبرودجو دي بريديس الذي كان معاوناً قديراً لي ورسم لوحات الملائكة في العمل الذي رسمته لتلك الأخويّة.

– هكذا إذاً. لأنّه لو تعلّق الأمر بالمعلّم آمبرودجو فاريزِه فسيقال إنّ كيتي المسكين مات بسبب النعاس. إذا لم تأت أنت يا بنيّ الذي لم تعرف ليس ما هو المرض فحسب بل من هو المريض أيضاً...

– أعتقد أنّ هذا كان هو السبب يا كاترينا، وراء فشل المؤامرة. – وهنا تناول تزانّينو دا فيرّارا قطعة كبيرة من الشواء ووضعها في صحنه وبدأ يعالجها بسكّينه. – إنّ في ميلانو ثلاثمئة إنسان. وقد ظنّ الأب الصالح ديوداتو، إذا جاز التعبير، أنّه لا يمكن لأحد أن يعرف الميّت من الحيّ، إذا كان بعيداً عن منطقته. لكنّه لم يحسب حساباً لمعلّمنا الذي يعمل بيده وعينه.

فأضاف ليوناردو بكلّ وقار: – بل وله ظهر شديد لتحمّل الكثير.

ضجّت ضحكات الحاضرين في المكان، ضحك لا يحدث إلّا إذا تحرّر كلّ من الذهن والبطن من كلّ ضيق.

وقال تزانينو: – لكنّك تحسن المزاح أيضاً أيّها المعلّم. وهذا من جملة الأمور التي تحسد عليها.

– لم يكن كلامي مزاحاً على الإطلاق، لكنّ ميلانو فيها كما قلت يا تزانينو ثلاثة آلاف نسمة. ولم أكن أتوّقع البتّة أن أجتمع ثانية برامبالدو كيتي.

– وهل عرفته مباشرة أيّها المعلّم؟

– ليس في الحال، هذا لا. فجمود الموت يحول أحياناً دون التعرّف إلى الحيّ. لكن في الحال على وجه التقريب، هذا نعم.

– لكنّك لم تخبر إيل مورو مباشرة بالأمر.

– لا، لم أخبره.

والتفت ليوناردو نحو سالاي الذي بدأ أخيراً يتمكّن من ملء طبقه، وهو يحاول تجاهل أمر أنّ الحديث يعنيه.

– لم يكن هو الوحيد الذي كان يستعمل نقوداً مزيّفة، فقبل سنة عرفنا هذا نحن الاثنين. لكنّ كيتي كان رجلاً ناضجاً، وكان هو العقل المدبّر. أمّا سالاي فكان مجرّد طفل تقريباً، لكنّه كبر كثيراً بعد تلك الآونة. خاصّة أنّه عوقب بما فيه الكفاية، وفهم الأمر تماماً.

بقي ليوناردو بعدها صامتاً لبرهة، ثمّ هزّ رأسه.

فأساء تزانينو فهم ذلك الصمت.

– إذاً أنت تنوي أيّها المعلّم البقاء في ميلانو في خدمة إيل مورو؟

– إنّك الشخص الثاني الذي يطرح عليّ اليوم هذا السؤال يا تزانينو.

فقال تزانينو وهو ينظّف فمه بالمنشفة: – حسناً أيّها المعلّم.

– هذا يعني أنّك فكّرت أيضاً بالإجابة.

– أجل يا تزانينو، وسأجيبك كما أجبت هذا الصباح. فقد بدأت بالقول: عندما تكون وحدك فأنت ملك نفسك.

– هل أنت وحدك يا صاحب السيادة؟

كان لودوفيكو إيل مورو واقفاً قرب النافذة في غرفته في الروكّيتّا، وكان جامداً من الثبات. التفت بالكاد عند سماع طرق نعل غالياتسو سانسيفيرينو، الخفيف لكن الحازم، التفت بعينيه لكن ليس ببصره.

– هه، تعال أيّها الصديق العزيز، تفضّل، كيف الأحوال؟

– لا أدري يا صاحب السيادة، حاولت الإطلال على باب دوقة باري المبجّلة، لكنّ كلّ ما حصلت عليه من هناك كان صرخة وإبريقاً من فضّة.

– مفهوم. أغلق الباب رجاء يا غالياتسو.

وهذا ما فعله غالياتسو بكلّ حذر.

– لابدّ أن تتجاوز الأمر سريعاً، صدّقني يا لودوفيكو – قال غالياتسو مخاطباً صديقه بلهجة الودّ كما هي عادته – لقد جرحتها الطريقة، لا أكثر، لكنّها ستتجاوز الأمر سريعاً.

– هل تعتقد؟ لا أدري يا صديقي. لأنّ الثقة يا غالياتسو تتجمّع ببطء لكنّها يمكن أن تضيع في لحظة واحدة. وبناء على هذا فمن الممكن ربّما أن أستعيد احترام زوجتي، لكن ثقتها لا، أبداً.

ثمّ نظر لودوفيكو إلى سانسيفيرينو وكأنّه لا يتمكّن من رؤيته بوضوح، كما أنّه لا أهميّة لرؤيته بوضوح.

– لقد سألتني قبل قليل إذا كنت وحدي ولم أجبك. نعم يا صديقي، إنّي وحدي. وكان سير ليوناردو قد قال لي مرّة: «إذا بقيت دائماً وحدك، ستكون دائماً ملك نفسك». لكنّي أنا يا غالياتسو لست ملك نفسي حتّى عندما أكون وحدي. – وهنا أشار لودوفيكو بحركة من ذقنه إلى المدينة الممتدّة خارج النافذة. – وأنا باق هنا حتّى عندما أكون وحيداً لكنّي أرى الجميع. أنا الذي يرى أبعد ممّا يراه الجميع، لكنّي في الوقت نفسه هدف سهل.

بدأ لودوفيكو يتمشّى عبر الغرفة، متوجّهاً نحو وسطها.

– أشعر في هذه اللحظات كأنّي أحد الذين حكم عليهم بالموت بتقطيع الأوصال، والذين يربطون بأربعة أحصنة، حصان لكلّ طرف من أطرافهم الأربعة، وعندما يجري كلّ حصان إلى الأمام ولا يستطيع المحكوم أن يصمد أمام سحبهم، يتقطّع المسكين إلى أشلاء متناثرة. – وهنا فتح ليوناردو ذراعه اليمنى وأشار بها إلى ساقه اليسرى. – لأنّ هناك من جهة واجباتي كزوج وكأب وهناك من جهة أخرى مشاعري كرجل. – وهنا وسّع لودوفيكو ذراعه اليسرى ومدّ الساق اليمنى بقوّة. – من جهة هناك متطلّبات الدولة ورفاه ميلانو، ومن جهة أخرى تحالفات الرابطة

التي شكّلتها. مع البندقية ومع فلورنسا ومع فيرّارا، وخاصّة مع فيرّارا. فبينما علينا أن نثق كلّ منا بالآخر، نجد أن كلّ واحد يسعى إلى توسيع نفوذه، وكلّ واحد يعلم ذلك.

وهنا أرخى لودوفيكو مفاصله وأخذ يتمشّى عبر الغرفة.

– ولا أستطيع أنا يا عزيزي غالياتسو أن أثق بأحد، ولا أستطيع أن أسرّ لأحد، لا في الخارج ولا في الداخل، كما رأيت. هذه هي الحقيقة يا غالياتسو. وقد أخطأت عندما أسرّيت لتروتّي، وأخطأت في الوثوق بالقزم، وأخطأت في الوثوق بآخرين.

– ليس الجميع يا لودوفيكو، ليس الجميع. ما زال هناك من تستطيع الوثوق به، هنا في الداخل، وأنت تعلم ذلك.

وهنا توقّف غالياتسو ونظر إلى حميه بعين ثابتة.

– أجل يا غالياتسو. الحقّ معك. هناك شخص، وأعتقد أنّي بحاجة في هذه اللحظة إلى مشورته قبل أيّ شيء آخر. – ووضع لودوفيكو يده على كتف صهره بينما حاول هذا أن يقوّم شيئاً ما ظهره، لأنّه كان منتصباً في الأساس مثل عمود رخام. – أشكرك. هل تأتي معي أنت أيضاً؟

– إلى أين؟

– إلى صالة الفلكيّ.

– الفلكيّ؟

– أعلم ذلك، أعلم ذلك، كنت أدعوه عادة المعلّم آمبرودجو، لكنّي لا أريد الآن تضييع وقت بلا فائدة. أنا بحاجة لمعرفة ماذا تُنبئ النجوم، أنت بحاجة إلى ذلك الآن. – وفتح لودوفيكو الباب بحزم. – من الأفضل أن أرى الآن بنفسي. هل ستأتي معي إذاً؟

– لا، أعتقد أنّه من الأفضل أن تذهب بمفردك.

– إذا كنت وحدك فستكون دائما ملك نفسك. هذا ما كنت أقوله يوماً ما. – وهزّ ليوناردو رأسه. – لكن كي تكون وحدك كما أعني أنا فيجب

أن تكون بين الناس. فبين جميع السجون التي أتخيّلها أعتقد أن الصحراء هي أسوأها.

- لا أفهمك يا ليوناردو.

نظر ليوناردو إلى تشيشيليا ثمّ استأنف كلامه، وهو ينظر إلى الأرض.

- الحقيقة أنّه جاءتني عروض من سادة كثر ومن أماكن مختلفة. لكنّ ميلانو هي الآن أفضل مكان للعمل، لأنّها أفضل مكان للعيش.

هنا توقّف ليوناردو وجلس على السور المحيط بالفناء، بين الأعمدة. كانت تشيشيليا تقف إلى جانبه، وتنظر في الاتجاه نفسه وهي تستمع إليه.

أظنّ أنّ بوسعي أن أقول أيّتها الكونتيسة ومن دون أيّ تواضع لا لزوم له، إنّي رجل فكر وقدرة. كما أعتقد أنّ هذه القدرات جاءتني بالولادة وبالنموّ. بالولادة لأنّي كنت ثمرة حبّ متحرّر كالذي جرى بين والديّ، وكان مجرّداً عن أيّ إكراه أو اعتبارات رسميّة. وبالنموّ، لأنّه لم يتوجّب عليّ البتّة أن أقلق بشأن أمني وبشأن بقائي. كانت أمّي ترعاني ثمّ أبي خلال سنيّ طفولتي، وكان عندي ما يلزمني. لم أعانِ قط من الجوع كما يعاني الفقراء ولا من الوحدة كما يعاني النبلاء. أي أنّي استطعت أن أنمو في سلام جميل، حرّاً لكن ليس وحيداً.

توقّف ليوناردو لبرهة وكأنّه يتساءل فيما إذا كان قد تكلّم أكثر من اللازم. لكنّه عندما رأى أنّ تشيشيليا لا تقول شيئاً استأنف حديثه.

- إن النموّ كما يجب يتطلّب حرّية واطمئناناً، أي ثقةً إذا قلناها بكلمة واحدة. لكنّه يحتاج أيضاً إلى قواعد تنظّمها واحتراماً لها، وإلّا فإنّ القويّ سيعلو على الضعيف والخبيث سيخدع الغبيّ وستزول الحرّية المنشودة.

ابتسمت تشيشيليا وهي تنظر إلى طرف ليوناردو.

- وهل ما زال بنيّتك أن تنمو أكثر من هذا؟ لقد تجاوزت الأربعين يا سير ليوناردو.

- هناك الكثير من الأشياء التي لا أعرفها، والتي لا أعرف كيف

أصنعها، أيّتها الكونتيسّة، لكنّي أنوي ذلك، بل عليّ أن أفعل. وميلانو هي المكان المثاليّ بالنسبة إليّ. ففيها أنت وصالونك والأشخاص الرائعون الذين يتحدّثون فيه. وفيها أشخاص يعملون، ويجابهون المشاكل كلّ يوم، وأنا أرى في كلّ مشكلة في حدّ ذاتها مصدراً لعشرة حلول ممكنة.

– وفيها لودوفيكو إيل مورو الذي يضغط عليك.

– بل الذي يشجّعني ويلهمني. الذي يجبرني على إنهاء أعمالي، إذا لم يكن هناك إيل مورو فقد لا أنتهي من أيّ عمل منها. فأنا لست برامانتِه الذي يبدأ العمل بثلاثة مشاريع وينهي ستّة ويريد أن يدفعوا له ثمن عشرة.

هنا ابتسم ليوناردو أيضاً، ثمّ عاد إلى وقاره.

– إنّ القيام بأعمالي يتطلّب الحريّة والحافز معاً، بنسبة متساوية، وبحسب حجم النار، فنار الشمعة ينطفئ عندما ينفخ عليها، لكنّ توجيه الهواء على الموقد ينعش النار التي فيه ويزيد من لهيبها إلى أقصى حدّ. وهكذا فإنّ ميلانو هي أفضل مكان بالنسبة إليّ ولودوفيكو هو أفضل زبون.

– المعذرة يا ليوناردو...

– قولي أيّتها الكونتيسّة.

– على سيرة الزبون، لقد استعملت هذه الكلمة التي أثّرت فيّ. كما أنّك قلت قبل قليل «الأب ديوداتو أو من يعمل لمصلحته». فلماذا؟ بمن تشكّ؟

هزّ ليوناردو رأسه.

– لقد استقبلتِ الأب ديوداتو في صالونك أيّتها الكونتيسّة. كما ناقشته أنا هناك. فهل وجدت مثلاً أنّه يتمتّع بذلك الفكر القادر على تدبير كلّ هذا الأمر؟

رفعت تشيشيليا حاجبها. لا، على الأرجح، كانت تقول تعابير وجه الكونتيسّة بيرغاميني. فوسّع ليوناردو بين يديه.

– كانت هذه في الواقع من الأمور التي أدهشتني. وأنا لا أفعل الآن

سوى ترتيب الأحداث في ذهني. لأنّ ما أخشاه هو أن يكون الأب ديوداتو مجرّد رأس من خشب، قام شخص آخر بتوجيهه.

وهنا تنهّد ليوناردو.

– من يمكن أن يكون هذا الآخر، لا أستطيع أن أعرف ذلك. كما لا أعرف ما هي النهاية التي ستنتهي إليها فتاتكِ تيرسيلّا. أو أنّك تعرفين أشياء أكثر؟

والواقع أنّ تشيشيليا لوت يديها عندما سمّى ليوناردو ذلك الاسم. لكنّ الكونتيسّة بيرغاميني هزّت رأسها.

– لا، لا أعرف أنا أيضاً. أستطيع أن أرجو فقط.

ثلاث رسائل، حتّى ننتهي

إلى إركولهِ دي إيست، دوق فيّرارا، فيِّره

سيّدي المحترم المبجّل، في ساعة التسابيح سيق الأبُ ديوداتو دا سيينا من سجن بورتا جوفيا واقتيد إلى مكان فسيح في الريف حيث تمّ قطع رأسه عن جسمه. صلاة.

وذكر، بحسب شائعات وردت من القصر، أنّ المدعوّة تيرسيّلا قد حُلق شعرها وأُرسلت راهبةً إلى دير خارج المدينة. وقيل أيضاً إنّ لودوفيكو لم يُرسلها إلى الموت بعد أن توسّطت لها بصورة عاجلة تشيشيليا غالّيراني الكونتيسة بيرغاميني، وذلك قبل أن تسافر قبل يومين من ميديولانو إلى سان جيوفاني إنكروتشِه، أي إلى زوجها كونت كارميناله.

وتمّ الانتهاء من صنع تمثال من الطين للحصان من قبل سير ليوناردو، وكنت مسروراً برؤيته بكلّ بهائه في قصر آرينغو وذلك قبل أن يؤخذ إلى ساحة أمام القلعة. ولا يمكن تصوّر مقدار الجمال والدهشة التي يشعر بها المرء يا سيّدي المبجّل أمام هذا العمل. فهو يبدو كأنّه سيعدو ويتحرّك كأنّه حصان من لحم ودم، بل إنّ من يراه سيندفع ويهرب خوفاً من أن يدوسه.

سيبقى هذا الحصان بمادّة الطين، ولن يصبّه ليوناردو لأنّه اكتشف خطأً في حساباته ورأى أنّ المئة ألف رطل من البرونز الذي قدر أنّها ستكفي لن تفي بالغرض، وإلّا فإنّ مفاصل تمثال الحيوان ستتكسّر. لكنّ

الخطأ كان مثمراً وأسفر عن نتيجة جيّدة، لأنّ ليوناردو تمكّن بعد حساب عمليّات انصهار البرونز من معرفة أسرار تصنيع الآلات التي يسمّيها الفرنسيّون مدافع. حتّى الأمس كان من المعتاد وضع المدفع ورأس القالب إلى الأسفل بينما القسم السفليّ إلى أعلى وهكذا يسهل تسخين البرونز وتسييخه ليدخل بشكل أفضل ضمن القالب من ناحية الفم وهي عادةً دقيقة ويصعب ملؤها. ولكن إذا تمّ تنزيل البرونز في قالب المدفع المقلوب، أي بوضع أسفله من تحت وفمه من فوق فإنّ البرونز المتدفّق إلى الأسفل سيبرد في البداية ويكون أغنى بالنحاس منه بالقصدير. وهكذا فإنّ الفخذ سيبقى قوياً ولا يذوب أو ينفجر عند الضربة الأولى، كما يحدث لدينا.

وهكذا فقد قام صاحب السيادة لودوفيكو بالتوجيه ببدء تصنيع المدافع من البرونز الذي كان مخصّصاً للحصان. ويقوم ليوناردو الآن بتعليم طريقة العمل إلى المعلّم تزانّينو. وهكذا سيكون لدينا مدافع تعمل بشكل جيّد عندما تبدأ الحرب.

لأنّ الحرب ستنشب قريباً يا صاحب السعادة. كما أنّ لودوفيكو عزّز القرض لصاحب الجلالة المسيحيّة الكبرى وأرسل أوامره إلى ما وراء جبال الألب إلى السيّد دي بيلجيوسو من أجل الإشراف على تصنيع الذخائر وإرسالها إلى هنا. وفي العام الجديد سوف يتحرّك صاحب الجلالة المسيحيّة الكبرى نحو جنوى، ليبحر من هناك نحو نابولي. وقد صرّح لودوفيكو عن عزمه الراسخ على ألّا يحرّك أيّ عسكر من ميلانو.

عند هذا الحدّ وضع جاكومو تروتّي قلمه. وهكذا ستسير الأمور. أي أنّ الملك تشارلز سيتوجه إلى نابولي، وسيقوم تحالف ميلانو وفيرارا والبندقية وفلورنسا بحماية بقيّة شبه الجزيرة، ما لم تغيّر بعض الاضطرابات الجديدة التحالفات مرّة أخرى. وهكذا يكون الملك تشارلز قد بذل كلّ قواه في غزو مملكة آراغونا في نابولي، في حين تبقى كلّ

من ميلانو وفيرارا سالمتين من أيّ بليّة، الأولى تحت إمرة لودوفيكو إيل مورو، والثانية، أي بلادك، ستبقى في أيد قويّة وقادرة، في يديّ سيّدها بلا منازع إركولّه دوق فيرارا،

إلى من أوصي بنفسي دائماً إلى عطفه.

ميديولانو، 30 تشرين الأوّل 1493

خادمك جاكومو تروتّي

سيدي المبجّل، أقدّم تحياتي إليك وإلى صاحب الجلالة المسيحيّة الكبرى. رغم الحوادث المختلفة التي وقعت فقد قام الدوق لودوفيكو بالموافقة على منح قرض بثلاثين ألف دوقيّة اللازمة للبدء بشنّ الحرب. وقد تلقى السيّد دي بيلجيوسو تعليمات دقيقة للإشراف على كيفيّة التحقّق من طريقة استخدامها بحكمة.

حدث في الآونة الأخيرة أمر فظيع في ميلانو، إذ قتل رجل في قصر جيوفيا، وأدين بذلك الأب ديوداتو دا سيينا الذي جاء في العام الماضي مع صاحب الغبطة الكاردينال جوليانو دّيلا روفيرِه. ويقال إنّه كان يتزعّم عصابة تقوم بتزوير رسائل الاعتماد، وذلك لوضع البنك في أزمة ماليّة عندما يصرف رسائل الاعتماد تلك. ويقال أيضاً إنّه كان لسير ليوناردو دور في التحقيق وحلّ الأمر.

وعلى ما يبدو الآن فإنّ تعيين لودوفيكو في منصب الدوق سيجري قريباً. لكنّ الدوق الصغير جان غالياتسو يعاني الآن من حال صحيّة سيّئة للغاية، بل ويقال في كثير من الأماكن إنّه في آخر أنفاسه.

خادمك المتواضع

بيرون دي باش

في مدينة ليون كان الوقت في أوائل كانون الأوّل، وكان البرد رطباً

وقارساً. وكان هناك نار تزغرد قرب طاولة المكتب، وهي الشيء الوحيد المرح في الغرفة.

طوى دوق أورليانز الرسالة وطواها مرّة ثانية ثمّ رماها في النار.

ثمّ استراح فوق المقعد الوثير وتنهّد.

كان هناك إمكانيّة، لكنّها تلاشت.

كان يتذكّر تماماً ذلك اليسوعيّ الذي عرّفه عليه قبل سنة جوليانو ديلّا روفيرِه، وقد تحدّثا معاً لفترة طويلة. تكلّما عن طريقة إمساك إيل مورو بالمدينة في قبضته بمساعدة مال ليس من ملكه، وكيف كانت حكومته لا تبدي الاحترام اللازم للقيم المسيحيّة.

عندها قال دوق أورليانز إنّه إذا قيّض لبنك ميديشي أن يفلس فلابدّ أن يحدث اضطراب كبير في المدينة. لكن كيف يمكن حمل بنك إلى الإفلاس؟ سأله اليسوعيّ وهو يضحك. فأجاب الدوق وهو يضحك بدوره: يكفي إقناع جميع الزبائن بسحب ودائعهم في ذات اليوم.

لكنّ الأمر لم يكن يثير الضحك حقّاً.

وقد بذل ذلك الشخص كلّ ما في وسعه.

وهنا بدأ دوق أورليانز يفكّر بما يمكن له أن يحدث.

يفلس البنك. لا يستطيع صرف قروضه، العملة المفترضة مفقودة. الأزمة. مثلما جرى في فلورنسا قبل مئة وخمسين عاماً، عندما وجد مصرفيّو فلورنسا أنفسهم في الموقف نفسه. وهكذا أفلسوا، وجرّوا المدينة وراءهم إلى دوامة لا نهاية لها.

وإذا تمّ استبدال عائلة ميديشي في فلورنسا بعائلة باردي، فإنّ أهل ميلانو الذين أوهنتهم الضرائب وأغضبتهم الأزمة لابدّ أن ينادوا به زعيماً، هو، دوق أورليانز، لأنّه المنافس الوحيد الممكن للتربّع على عرش ميلانو.

وهو نفسه سيكون على مقربة من المدينة، في طليعة حملة تشارلز الثامن التي ستنطلق حالما تصل أخبار الأزمة، وحين يكون لودوفيكو قد أصبح خارج المشهد لأنّه سيكون على رأس الموكب الذي يحضر العروس الجديدة إلى الإمبراطور.

وهنا أفاق الدوق من أحلام اليقظة التي كان يحلم بها.

لم تسر الأمور على هذا المنوال. ولم يكن لها أن تسير على هذا المنوال. حسناً. اتّفقنا.

فهو يرى الآن أنّ دخوله إلى ميلانو قد تأجّل فقط. لابدّ أن يدخل إليها ذات يوم لأنّ تلك المدينة دخلت إلى قلبه، هو، وليس على أنّه قائد عسكريّ، بل لأنّه دوق وحاكم.

وهو يطمح أن يكون إلى جانبه في ذلك اليوم شخص مثل ليوناردو دافنشي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

سيّدي الذي لا سيّد لي غيره

ليس هناك ألم بالنسبة إلى رجل أشدّ من أن يعمل عملاً ما، وعندما يكاد يؤتي العمل ثماره، يجد أنّ كلّ شيء أصبح على الأرض ولا علاج لما جرى. وهذا ما سيحدث بالنسبة إلى الحصان، حصاني، عندما أقوم بصهره وصبّه في القالب وبالنِسَب التي فكّرت بها بنفسي. انظرْ إلى قوائم الفأر، إنّها نحيلة رفيعة مقارنة بجسمه. وهي أرقّ بكثير في تناسبها من قوائم الأرنب أو القطّ، التي تستند إلى دعائم أسمك، مثلها مثل قوائم الحصان أو الكلب. ثمّ انظر إلى الفيل ذي القوائم الضخمة والسميكة للغاية، والتي تكاد تشبه الأعمدة بالنسبة لهيكل جسمه وليست مثل العيدان تحت بصلة، كما في جسم الفأر.

إنّ وزن هذا الحيوان يزداد، مثل ارتفاع مكعب. خذ مكعّباً بعشرة في جانبه. تجد مساحة جانب المكعب عشر مرّات عشرة، أي مئة، وحجمه وبالتالي وزنه عشرة أضعاف كذلك، مأخوذة عشر مرات، أي أنّها ألف.

بهذا يتضّح أنّه إذا كان طول الحيوان خطوة واحدة، ووزنه رطلاً، فإنّه يزن مكعبّ اثنين عندما يكون بطول خطوتين، أي مرّتين مرّتين مرّتين، أو ثمانية أرطال. والوزن الذي يجب أن تتحمّله قوائم حيوان بطول يساوي مرّتين طول حيوان مثيله متساو بجميع نسبه، لن يزيد مرّتين، بل ثماني مرّات.

إذا حافظت على النسب، فسوف تكون الساق سميكة أو يكون سطح مقطعها أكبر أربع مرّات، لكنّ الوزن الذي يجب أن تتحمله هو أكبر ثماني مرّات. وهذا هو السبب في أنّ الطبيعة تجعل الفأر بقوائم رقيقة، والقطّ والأرنب بقوائم أضخم، بينما الفيل بقوائم ضخمة كالأعمدة. كما أنّ حيواناً طويل القامة مثل الفيل، لكنّ شكله ونسبه مثل الفأر، لا بدّ أن يفسد في الأرض. وهكذا سيفعل حصاني.

وكيما يمكن لأنموذج صغير بارتفاع خطوة أن يتحمّل، فيجب أن تكون سماكة البرونز إصبعاً. لكن إذا صنعت حصاناً بطول عشر خطوات فإنّ سماكة البرونز يجب ألّا تكون عشر أصابع، بل يجب أن تكون أكبر من ذلك بكثير، أو أنّ وزن البرونز الموجود فوقه سوف يطغى عليه، كما هو الحال في مَثَل فيلٍ على شكل فأر.

إن أنموذج الحصان الذي صنعته من طين، لا يمكن استعماله لسكب الحصان البرونزي عليه. وهذا كان هو خطأي الأول. لقد قدّرت أنّ مئة ألف رطل من البرونز تكفي لتغطية الحصان بنسب بسيطة، لكنّها كما قلت ليست كافية. وسيكون هناك حاجة إلى كثير غيرها، ولكن ليس لديّ الآن همّة تكفي للقيام بهذا الحساب. وهذا هو خطأي الثاني.

أمّا أرطال البرونز التي قدّمها لودوفيكو فستنفع الآن في صنع المدافع. ذلك كما ستعلّم تزانينو فيّراريزِه، على أساس الطريقة التي تعلّمتها عند سكب حصانك.

لم أكتب قط في هذه الأوراق خطأين في الورقة نفسها. لكنّ رسائلي هذه تفيد لهذا الغرض، وأنا أرسلها إليك، يا ليوناردو دي سير بييرو دافينشي، لتتذكّر أمرين اثنين.

الأمر الأوّل هو أنّه لا يوجد شيء ولا مخلوق من غير أخطاء. وأنّه كلّما كبرنا أصبح من الممكن أن نقع من علوّ شاهق وأعلى. ومن لا يفعل شيئاً هو وحده الذي لا يخطئ في شيء.

أمّا الأمر الثاني فهو أنّ الإنسان إذا كان بلا أخطاء أو إذا لم يعرف أخطاءه، فإنّه لا يمكن له أن يتعلّم من تجربته. أجل، فالطفل يتعلّم التقدّم إلى الأمام زحفاً، ثمّ يقف على قدميه، وبعد أن يسقط ويضرب مؤخرته بالأرض، يتعلّم فنّ الانتصاب على قدمين، وهكذا يجب أن تفعل، وفي كلّ مرّة تخطئ فيها، فإنّك تأخذ هذا بعين الاعتبار وتتذكّر الأمر عند اللزوم، ولا تفعل كما فعل رامبالدو الذي لم يدرك خطورة أفعاله إلّا بعد فوات الأوان، حتّى لو كان يعتقد أنّه يمكن معالجة أخطائه بالاعتراف وطلب الغفران. وعليك أن تتذكّر لأنّ كل إنسان بطبيعته يميل إلى ارتكاب الأخطاء نفسها.

وإنّه على كلّ شخص أن يقدّر كيف يواجه أخطاءه. لأنّنا نولد صغاراً وضعفاء، فالطفل بعمر سنتين يبقى أضعف وأنقص من الكلب أو الحصان أو الفيل بالعمر نفسه. لكن ما إن نكبر حتّى نتمكّن من السيطرة على كلّ حيوانات الأرض وتسخيرها لأنفسنا. لذلك فإنّ مقاس الإنسان يظهر في نموّه وتعلّمه وليس في مولده. ولا يتعلّم الإنسان إلّا بمراقبة الطبيعة وغيره من البشر. كما لا يمكن للإنسان أن ينمو بصحّة جيّدة في عقله وأحكامه ما لم يقارن ما يفعله بما يعتقده، وما يتوقّعه بما يجري له. والطريقة الوحيدة للتعرّف على الخطأ تكمن في قياس النفس بالطبيعة نفسها، لأنّها، على عكس الإنسان، لا تكذب أبداً.

أحيّيك على أمل الالتقاء بك

المخلص

ليوناردو

ملاحظة من الكاتب

أن يحاول مؤرّخٌ كتابة كتاب خال من الأخطاء عن ليوناردو دافنشي سيكون مجرّد ادّعاء. وأن يظنّ روائيّ أنّ بوسعه فعل ذلك لمجرّد أنّه يحمل في جيبه إجازة في الكيمياء فهو أمر جنونيّ. لذلك فإني لا أشكّ في أنّ هذا الكتاب يحتوي على عدّة أخطاء، على الصعيد التاريخيّ وعلى الصعيد الفنيّ، وأنّ هذه الأخطاء لابدّ أن تنكشف عاجلاً أم آجلاً. ومع ذلك، فإنّ هناك جوانب أخرى جرى التحقّق من حدوثها تاريخيّاً، مع أنّها كانت تبدو غريبة أو ليس من المحتمل حدوثها.

ومن المؤكّد أنّ إحدى المشاكل الملحّة في حياة ميلانو في ذلك العصر كانت مشكلة السير بسبب العربات التي كانت تقودها السيّدات على وجه الخصوص، كما كانت صحيحة قصّة الشخصين اللذين اعتبر أنّهما يزيّفان العملة، وهما بريسّيرار وكرينج، لكنّه أطلق سراحهما بعد أن عرف أنّهما يعملان في الكيمياء.

كما كان من الممكن أن ليوناردو في الفترة التي نحن بصددها كان يعيش مع أمّه، وذلك كما يتبيّن من ملاحظة كتبها في ورقة بتاريخ 1493 وقال فيها «جاءت كاترينا يوم 16 تمّوز 1493»، وانتهى بالقول في قطعة ورق بتاريخ 1484 ذكر فيها نفقات *دفن كاترينا* التي بلغت مئة وثلاث وعشرين من العملة الجارية أي ما يعادل ستّ ليرات إمبرياليّة أو إذا شئتم حوالي دوقيّة واحدة – وهذا مبلغ غير قليل بالنسبة إلى ذلك الوقت ككلفة جنازة، ومن الصعوبة بمكان تبريرها من أجل جنازة خادمة. كما أنّه من

الغريب أنّه لم يستعمل في ملاحظته حول وصول كاترينا عبارة «للعيش معي» التي استعملها حين تكلّم عن مجيء بعض تلامذته مثل سالاي وجوليو الألمانيّ. ويتّفق العديد من البحّاثة، بما في ذلك لوكا بيلترامي، مع هذه الفرضيّة.

وهناك خطأ أيضاً، ولكن ليس كبيراً، في استعمال تعبير «دو» للإشارة إلى النوطة الأولى في الموسيقى، لأنّ ذلك التعبير لم يستعمل إلّا منذ أوائل القرن السادس عشر.

ولم يكن مناسباً إعطاء لقب دوق إلى فيليب دو كومين، لكنّه كان هناك كما هو معروف كثير ممّن يحملون لقب دوق وبشكل لوى ذراعي.

لكنّه من المحتمل أنّ سالاي كان في المنتصف بين التلميذ المفضّل والابن بالتبنّي: وكان يلحق بليوناردو أينما حلّ، وحتى إذا كان هناك بعض النزاعات والخلافات، فيبدو أنّ العلاقة بين الاثنين لم تكن أبداً موضع شكّ.

من الممكن، لكنّه من غير المرجّح أن يكون ليوناردو قد تسلّم مكافأة عن «عذراء الصخور» في الوقت المناسب كما قيل: وهكذا فإنّ مسألة «أنت مدين لي بالمال لهذه اللوحة» بقيت مطروحة لمدّة عشرين سنة تقريباً. كما استمرّت مسألة حصان سفورتسا أيضاً لفترة طويلة، ولم ينه ليوناردو هذا العمل البتّة، بسبب العديد من المشكلات الفنيّة والاقتصاديّة.

ولمعرفة تفاصيل الجهود الهائلة والمشاكل التي طرحتها عمليّة صهر الحصان، يجب قراءة «ليوناردو ونصب الفروسيّة على شرف فرانشيسكو سفورتسا»، من تأليف أندريا بيرناردوني (جونتي). وهذا ما يحملني إلى الحديث عن بعض الكتب التي قد تروق، حتّى لو كان ذلك فقط من أجل المتعة، لمن يريد أن يشبع شيئاً من فضوله حول موضوع «رجل النهضة ليوناردو» والنصوص الجدّيّة في هذه الرواية.

قد لا تكون الحياة كلّها كافية، كما قيل في السابق، للإحاطة بعبقرية فينشي في جميع نواحيها. لكنّ هناك نقطة انطلاق جيدة هو كتاب جيّد

من تأليف والتر إيزاكسون، «ليوناردو دافينشي» (موندادوري). وهو ليس غير سارّ، حتى لو أنّه يفضي إلى نوع من الغنائية تكاد تكون مفرطة. وهناك رواية ديميتري ميريكوفسكي «ليوناردو دافينشي» (جونتي): وهو على كلّ أوّلُ نصّ روائيّ يظهر فيه ليوناردو وهو يعيش مع أمّه. (والجدير بالذكر أنّ الأعمال الروائيّة التي يظهر فيها ليوناردو كبطل أساسيّ أو ثانويّ هي كثيرة أو أكثر من كثيرة. وأنا أفضّل بينها ليوناردو الخياليّ الذي أحببته في فيلم كرتونيّ بعنوان «*Mr. Peabody & Sherman*»، هذا إلى جانب تلك العبقريّة الانفراديّة الشاردة في الشخصيّة التي تكافح من أجل فهم كيف يعمل سيفون المرحاض في «لم يبق لنا إلّا البكاء»).

ولا يمكن الكلام عن ليوناردو من غير الكلام عن فلورنسا في عهد الميديشي حيث تشكّلت شخصيّته في مرسم فيرّوكيو وغيره، ولا من غير الكلام عن أهميّة المال. فمجتمع فلورنسا كان على الأرجح من أوائل المجتمعات التي شكّل المال فيها قيمة مؤسِّسة ومجرّدة وليس مجرّد شيء تكميليّ، بما أعطى الحياة لنوع من الإجراءات الماليّة ما زلنا نستعملها حتّى اليوم.

أمّا على المستوى الأكاديميّ، فلا يزال كما أعتقد كتاب ريمون دي روفر رايز بعنوان «تداعي بنك ميديشي 1397-1494»، هو الكتاب المرجعيّ المهمّ بالنسبة إلى المهتمّين بتاريخ بنك فلورنسا هذا. لكنّ الكتاب صعب وليس من السهل قراءته، وهو يتطلّب وقتاً وصبراً، بالإضافة إلى خبرة اقتصاديّة وماليّة لا يتمتّع بها الجميع، ومنهم أنا، على سبيل المثال، لأنّي لا أملك مثل هذا، ولم تتّضح لي بعض المفاهيم إلّا بعد أن قرأت كتباً مثل: «نجاحات آل ميديشي»، الأكثر مرونة والأكثر متعة، من تأليف تيم باركس (بومبياني) 1345 وكتاب «إفلاس فلورنسا» من تأليف لورنزو تنزيني (ساليرنو). وهناك أيضاً الكتاب الجميل «جغرافيا العبقرية» من تأليف إريك وينر (بومبياني)، الذي يشرح هذا الجانب بطريقة جذّابة للغاية.

البطل الثاني في هذا الكتاب هو لودوفيكو إيل مورو، أي ميلانو بطريقة غير مباشرة. وإذا كانت فلورنسا هي المدينة التي ولد فيها عصر النهضة، فإنّ ميلانو هي المدينة التي تطوّر فيها ذلك العصر واكتمل بكلّ جوانبه الفنيّة والعلميّة والاجتماعيّة.

وكان قصر لودوفيكو إيل مورو مركزاً رئيسيّاً لهذا التطوّر، ولا بأس لذلك من معرفة المزيد عنه.

وهناك قراءة قد تكون قديمة لكنّها رائعة تتعلّق بكتاب من أربعة أجزاء بقلم فرانشيسكو مالاغوتسي فاليري بعنوان «قصر لودوفيكو إيل مورو» (هوبل). ومن يسعَ لإلقاء نظرة على حياة القصر غير سطحيّة بل عميقة وعلى علاقات المراسلة بين السفراء والحكّام فعليه مراجعة كتابيْ غويدو لوبيز («ليوناردو ولودوفيكو إيل مورو، الأمور والحرّيّة» و«حفلة عرس لودوفيكو إيل مورو» وكلاهما من منشورات مورسيا) كما أنّ كلاً منهما يثير السرور عند مطالعته، من دون أدنى شكّ، فضلاً عن أنّهما موثّقان بطريقة صارمة. هناك أيضاً كتاب جميل لكنّه أصبح نادراً هو «بياتريشِه دي إيست» من تأليف سيلفيا آلبيرتي دي ماتزيري (وقد حصلت على طبعة دار نشر فابري)، وهو عبارة عن رواية مشغولة، لكنّها مكتوبة بشكل جيّد وتحكي قصّة حياة بياتريشه دي إيست القصيرة لكن الغنيّة.

إنّ الاقتراب من شخصيّة مثل ليوناردو مع التبجّح بأحقّيّة القيام بوصف أفكاره، هو نوع من الوقاحة. ولم يكن لي أن أفعل مثل هذا قط بمبادرة منّي، وإن كنت لا أستطيع الآن إلّا أن أعبّر عن سروري. لهذا فإنّي أتوجّه بالشكر إلى دار النشر لأنّها اختارتني لهذا العمل، وأشكر جوليا إيكينو وهي صديقة في المحلّ الأوّل ثمّ مدققّة تابعت هذا الكتاب خطوة بخطوة، ووضعتني على صلة بخبراء حقيقيّين في هذا المجال كلّما دعا جهلي إلى ذلك (وهذا ما حدث في كثير من الأحيان). إنّ كميّة الأمور التي تعلّمتها خلال هذه السنة ونصف السنة من دراساتي حول إنسان عصر النهضة بالذات تجاوزت توقّعاتي إلى حدّ كبير. كنت أعتقد أنّي

أعرف الكثير عن ليوناردو، لكنّي اكتشفت أنّي بدأت الآن في الوصول إلى السطح.

ومن الواضح أنّه لم يكن لي بالطبع أن أتعلّم وحدي كلّ تلك الأمور. لذلك فإنّي أتوجّه بالشكر أوّلاً إلى داريو دوندي الذي ساعدني على دخول عالم مخطوطات ليوناردو والذي أبدع في معرفة ماذا كنت أريد بالضبط. وأشكر بعد ذلك، بترتيب عرضيّ غير مدروس، إدواردو روسّيتّي لبراعته التي لا يعلى عليها في المجالات التاريخيّة والعمرانيّة المتعلّقة بميلانو خلال فترة آل سفورتسا. ثمّ غابرييلِه بالداسّاري الذي تابعني بكلّ دقّة وبنوع من الإحساس بالفكاهة عندما كتبت بلهجة فيرّارا خلال السنة ألف وأربعمئة وألف وخمسمئة تقريباً، ثّم لوكا سكارليني الذي زوّدني بمعلومات حول تاريخ الموضة والأسلحة في ذلك العهد، وكذلك ماريستيلّا بوتّيشيني التي طمأنتني حول بعض جوانب تاريخ الماليّة التي كنت لا أعرف عنها شيئاً - وهذا لا يعني أنّي أعرف الآن الكثير عنها، لكنّي أعرف كيف أروي عنها...

وهذا يقودني، في نهاية هذه الملاحظة، إلى تحذير القارئ من استخدام هذا الكتاب كدفتر تاريخيّ. فهذه رواية، رغم أنّ العديد من الحقائق التاريخية التي رُوِيت صحيحة، إلّا أنّ العلاقة بين هذه الحقائق ليست كذلك بالضرورة. وإذا كان من الصحيح أنّ ليوناردو لم يكمل أبداً نصب الفروسية لفرانشيسكو سفورتسا، تماماً مثلما أنّ ليوناردو نفسه تأكّد من عدم تغيّر نسب الحيوانات، لكن أن يكون الأمران مرتبطين، فأخشى أن يكون هذا من ضرب الخيال. لكنّني أعتقد أيضاً أنّ كتابة كتاب عن عبقرية فينشي باعتباره بطل الرواية، من غير استخدام الخيال لن يكون أمراً خاطئاً فحسب، بل يدلّ أيضاً على نوع من عدم الاحترام له.

مكتبة
t.me/soramnqraa

صور من ميلانو زمن ليوناردو

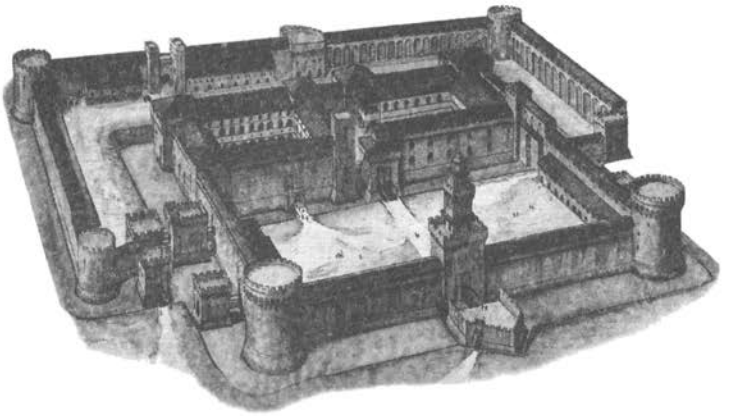

قلعة سفورتسا في زمن ليوناردو

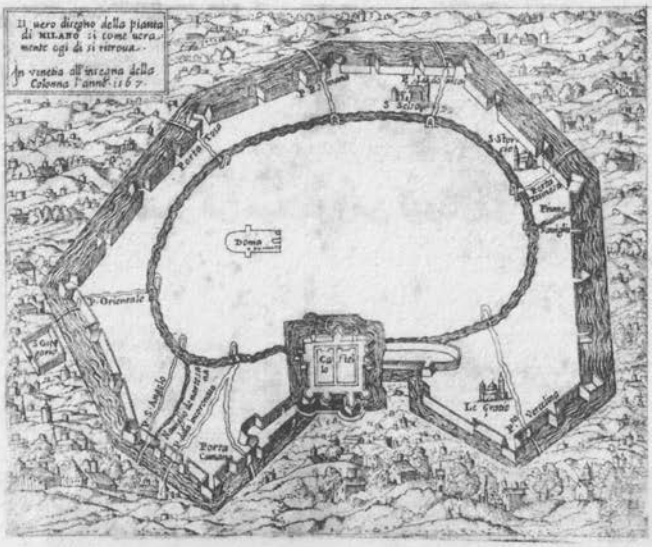

صورة ميلانو في ذلك العصر

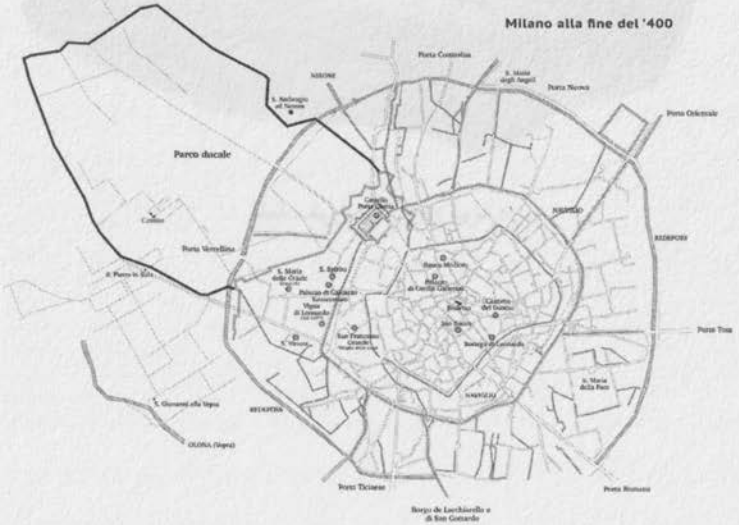

خريطة ميلانو في نهاية القرن الخامس عشر

تقسيمات إيطاليا السياسيّة 1493

المحتويات

ماركو مالفالدي مقدّمة 7
مقاس الإنسان 9
الشخصيّات 13
مقاس الإنسان 19
تمهيد 23
بداية 25
اثنان 41
ثلاثة 59
على ضوء شمعة 75
أربعة 77
خمسة 89
من مكتب جاكومو تروتّي 100
ستّة 105
سبعة 119
ثمانية 139
على ضوء الشموع 153
من مكتب جاكومو تروتّي 155
تسعة 163

عشرة..... 177
أشياء للعمل..... 191
أحد عشر..... 193
من مكتب جاكومو تروتّي 204
اثنا عشر..... 207
اثنا عشر زائد واحد (صاحب البيت رجل متطيّر جدّا)..... 225
اثنا عشر زائد واحد ونصف (راجع السابق)..... 243
أربعة عشر..... 249
ثلاث رسائل، حتّى ننتهي..... 261
ملاحظة من الكاتب 269
صور من ميلانو زمن ليوناردو 275

مكتبة
t.me/soramnqraa

توقّف الرجل لبرهة قبل أن يدخل.
كان من العبث أن ينظر حوله ليحاول أن يعرف ما إذا كان أحد قد تبعه. كان مدخل القلعة في منطقة قديمة من ميلانو، على طول طريق رطب
ومظلم لا يمكن بلوغه إلّا من خلال طرق أخرى رطبة ومظلمة أيضاً، لذلك فحتّى لو كان هناك أحد يجري وراءه فلابدّ أن يكون قد ضيّعه منذ
فترة، رغم أنّه كان يرتدي ثوباً وردياً مبهرجاً.
وإذا قلنا الحقيقة فقد حدث أنّه خشي هو أيضاً أن يضيع. فهو لم يكن قادراً أبداً على معرفة الاتّجاهات بعدما تاه في كبكوبة الأزقّة المحيطة بالقلعة. وكان ذلك بسببه إلى حدّ ما، لأنّه لم يكن يملك أبداً شعوراً قوياً بالاتّجاهات. وكذلك بسبب تلك المدينة التي تطوّرت بشكل سيّئ لا يقوم لا على تصميم ولا على شكل ورؤية. لذلك كان لابدّ من إعادة النظر فيها، بتلك المدينة، من أعلاها إلى أسفلها. لابدّ من تنظيمها بطريقة
مختلفة، ملائمة. مختلفة بصورة جذريّة. بطريقة غير معروفة من ذي قبل.
كأن تكون مدينة على عدّة مستويات مثلاً. من الأسفل إلى الأعلى، من الماء إلى السماء. مدينة على عكس البيت، حيث يقيم الفقراء في الهواء،
والأغنياء على الأرض، كما كان يجري في بيوت أهل روما كما وصفها فيتروفيو. وكان الحقّ مع فرانشيسكو دي جورجو عندما ترجم الكتاب، لأنّه يستحقّ ذلك بالفعل. ويستحقّ الثمن المرتفع الذي اشتراه به، وإذا كان قد كلّفه غالياً، فهو قد ذكّره بكثير من... اهتزّ الرجل ذو الثوب الورديّ بعد أن أدرك أنّه قد تاه - لكن ضمن أفكاره فقط. وكان هذا الأمر يحدث له في كثير من الأحيان، فتكون تلك
أفضل الأوقات في يومه. لكنّ تلك لم تكن اللحظة المناسبة للاستغراق في تخيّلاته. لأنّ الوقت الآن هو وقت عمل.

Author's photo © Giunti Archive.

بهدوء، ولكن من دون طمأنينة، قرع الرجل على الباب. سمع مباشرة صوت صرير فهم منه أنّهم في طريقهم لفتح الباب، كما أنّ غُريفة المدخل ظهرت كأنّها مضيئة وسط عتمة الشارع.
كلمة واحدة فقط.
- ادخل.
دخل الرجل وترك الظلام وراءه.

telegram @soramnqraa

9 789933 617837